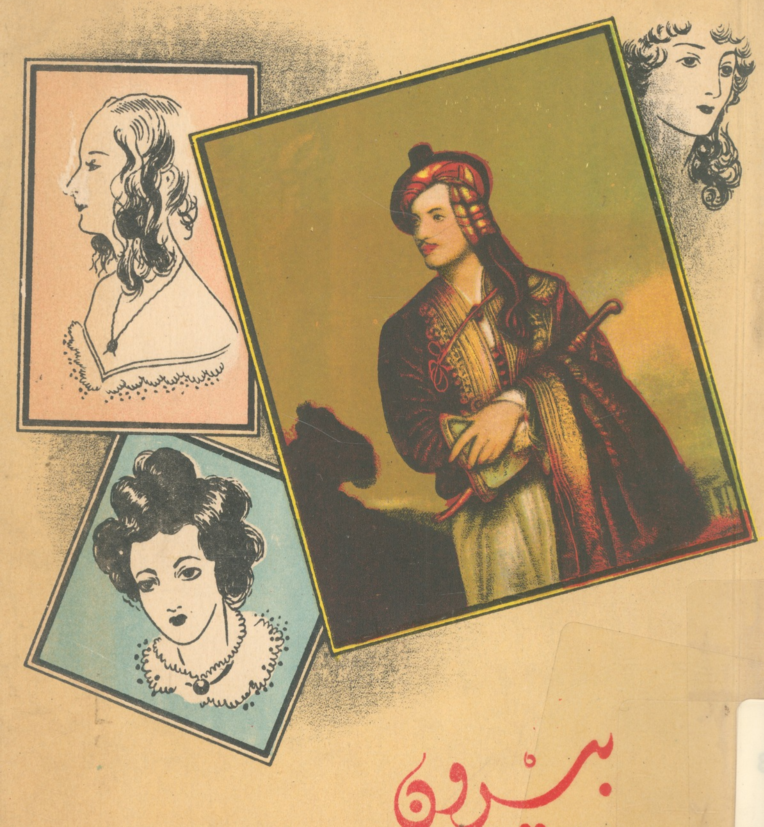


بيرون

أو

دون جوان

أحمد الصاوي محمد

دراسات فى النبوغ

إن أعظم رجلين فى الجيل هما نابليون بونابرت ولورد بيرون . [صحف باريس ١٨٢٤]

لو أنه قيل لى إن الشمس والقمر قد اختفيا من السماء جميعاً ، لمـــا أشعرنى ذلك بفراغ فى الكون أشد هولا من كلمتى : «مات بيرون» **توماس كارليل**

كان لورد بيرون يقول : «نهضت من فراشى ذات صباح فألفيتنى مشهوراً» . . . فلم يعرف الراصدون هذا الكوكب إلا وهو فى برجه الأسنى ، قد جاوز جانبى الأفق ، وأصعد فى سمت السماء ! **عباس محمود العقاد**



للمؤلف

مدرسة النبوغ

حيـــاة بيرون ... ... (دون جوان)	شركة فن الطباعة	الناشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
حيـــاة شللى ... ... (قبور فى جنة الحب)		
حيـــاة بلزاك ... ... (القصصى الأعظم)		
التلميذة الخالدة ... ... (حياة مدام كورى)		

مدرسة المجتمع

رجال ونساء (١)	شركة فن الطباعة	
« « (٢)		
حيـاة قلب		
الموجة العـذراء		
المرأة لعبتها الرجل		
شباب الفولجا	مطبعة المعارف	
جرائم شرقية وغربية		
العاصـية أو كتاب الغيرة		
غانيات		

مدرسة الحرب والسياسة

مأساة فرنسا	شركة فن الطباعة	
أسرار انهيار أوربا		
الرقص على البارود		
الوحش الأصفر والدب الاحمر		
الطـابور الأول	مطبعة المعارف	

. . . .

باريس	مطبعة دار الكتب المصرية	نفـدت
ما قل ودل (فى جزءين)		
تاييس		
الزنبـقة الحمراء		
أفروديت		
فى الحياة والحب		

طرطـــوف } بتكليف من وزارة المعارف العموميـة
عدو المجتمع }

عيد الشعب .. أخرجتها الفرقة القوميــة بدار الأوبرا الملكية

الصحافة المصرية منذ نشـأتها إلى اليوم ... ... (باريس ١٩٢٨) بالفرنســية
الاصلاح فى مصر منـــذ ثورة ١٩١٩ ... ... (« ١٩٢٩)

أحمد الصاوي محمد



أواه ! . . ليت للنساء جميعاً ثغراً واحداً . .

إذن لقبّلته واسترحت ! . . بيرون

بيرون
أو
دون جوان



ملتزم النشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الإهداء

الى

صاحب المعالى الأستاذ

أمين عثمان باشا

رائد الصداقة المصرية الإنجليزية

والعامل الأول

على توثيق عرى الحلف بين أمتين حرتين . .

لقد وجدت فيه أمة رجلاً

والرجال قليل . . .

صبرى

تضمين بتصرف

عن الكاتب الفرنسى العظيم

أندرى موروا

ANDRÉ MAUROIS

للتوسع فى المراجع

John Cam Hobhouse (Lord Broughton)	*Recollections of a Long Life* 6 Volumes	John Murray
	Lord Byron's Correspondance 2 Volumes	
Roger de Vivier de Régie	*Le Secret de Lord Byron*	Emile - Paul Editeurs, Paris
Sir John Fox	*The Byron Mistery*	
Comtesse Blassington	*A Journal of the Cenversations of Lord Byron*	
Lord Ernle	*Letters and Journals* 6 Volumes	John Murray
E. C. Mayne	*Byron* 2 Volumes	Mathwen & Co.
E. C. Mayne	*The Life of Lady Byron*	Constable & Co.
Herold Nicolson	*Byron, the Last Journey*	Constable & Co.
Ralph Milbanke (Lord Lovelace)	*Astarté*	Christophers
J. M. Bulloch	*The Tragic Adventures of the Gordons of Gight*	
Thomas Moore	*Byron's Life*	John Murray
J. C. Jeaffreson	*The Real Lord Byron*	Hurst & Blacket

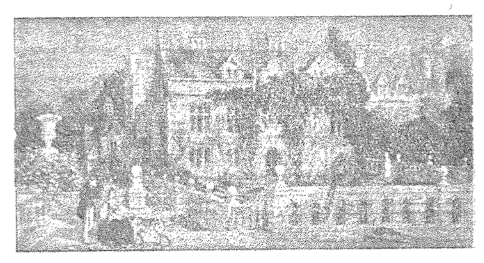
الغلاف بريشة الفنان المجرى الشهير

اريك دى مانيشى

ظهر الغلاف عن لوحة :

« اليونانه تبكى على ضحايا ميسولونغى »

بريشة الفنان الأشهر « دى لا كروا »



نيوستيد آبى « قصر بيرون »

الجزء الأول

١ – العِرْق دسَّاس

جاء بضعة رهبان فى مسوح سوداء ، إلى غابة شروود ، قرب نوتنجهام ، يسعون بين أشجار السنديان ، ليبنوا لهم فيها ديراً . . فقد كان « هنرى الثانى » ، ملك انجلترا ، مهدداً بالحرمان من الكنيسة ، لاتهامه بمقتل توماس بيكيت ، أسقف كنتربورى ، ومستشار الدولة الأعظم ، وهو قائم يصلى فى المحراب . . فوعد الملك البابا بالتكفير عن ذنبه ، وإغداق النعم والآلاء على الأديرة . . فاختير موقع جميل قرب بحيرة ، وعلى ضفة غدير ، وقطعت الأشجار تمجيداً للرب ، وتخليصاً لروح الملك . . وهنالك مُهدت مساحة كبيرة من الأرض ، نهضت عليها الحجارة القاتمة ، تزينها نوافذ غوطية ، وردية . فصارت ديراً صغيراً أنيقاً ، كان جمال ما حوله ، من مشاهد خلوية بين غابات وغدران يخفف من أسباب التقشف والزهد ، التى تراعى فيه ، ونذر الدير لمريم العذراء ، وأطلق عليه : « نيوستيد *Newstead* » أى « البقعة الجديدة *Sancta Maria Novi Loci* »

وكانت تعاليم الدير بسيطة : يحظر على الرهبان أن يملكوا شيئاً لأنفسهم ،

وعليهم : أن يحبوا الله ، ويرجوا نعيم العالم الآخر ، وأن يتغلبوا بالصوم على نداء اللحم والدم ، وألا يقولوا السوء ، أو يعتدوا ، وأن يغضوا عن النساء أبصارهم . . ثم أن يوزعوا الصدقات على الفقراء ، فى كل عام ، على روح مؤسس ديرهم .

وظل قساوسة نيوستيد يتتابعون ، خلال ثلاثة قرون ، على ضفاف البحيرة . ثم جاء حين من الدهر ، ضاق فيه الحال ، وغلّ المتقون أيديهم إلى أعناقهم . . وانتشر الميل إلى المعرفة . ووجهت هبات الملوك إلى : المدارس ، والجامعات ، والمستشفيات . وأصبحت هذه الجماعة من الناس ، التى نشأت من كفّارة ملك ، مهددة بنزوة ملك . . فإن الملك الفاسق ، هنرى الثامن ، قد وقع اختياره على « حنه بولين » ، التى لم تكن أجمل نساء الدنيا ، فهى غبراء ، ذات نحر قصير ، وفم واسع ، وصدر متهدّل . . لا شىء فيها يغرى بها ، إلا : اشتهاء ملك ، وعيناها اللتان كانتا سوداوين نجلاوين . . .

ومع ذلك سببت الانشقاق العظيم . فقد سأل هنرى الثامن البابا : إلغاء زواجه من « كاترين داراجون » ، فرفض البابا . فأوعز السادة من حزب « حنه بولين » للملك بأنه زعيم ـ إذا ما نبذ السلطة البابوية ، وأعلن سيادته على الكنيسة الإنجليزية ـ بإرضاء غرامه بالمرأة ، وهيامه بالذهب ، فى وقت معاً !

فصدر أمر ، لمصلحة التاج ، بحل كل بيوت الدين ، التى لا تملك على الأقل مئتين من الجنيهات دخلا سنوياً ، ومصادرة أملاكها . . ووضع الملك يده ، فيما وضع ، على دير نيوستيد ، وباع ما فيه ، وأعطى الضيعة لوجيه كبير ، وكفل بذلك إخلاصه للكنيسة الجديدة . . هذه البيعة التى خربت الرهبان ، لم تغن الملك شيئاً . . واشترى البقالون كتب الصلوات ، وجعلوا منها قراطيس لبضاعتهم الرخيصة . . وهكذا لم تعد جدران نيوستيد تتجاوب بالصلاة من أجل الملك . ولم يلبث رأس « حنه بولين » ، المتوج بالشعر الغزير ، أن سقط على يد الجلاد .

وقال الفلاحون الذين رأوا ، على أسف منهم ، الرهبان يرحلون : إن هؤلاء

سيسكنون ، منذ الآن ، بأرواحهم ، فى صوامع الدير وأبراجه الخالية .. ويجلبون النحس على من يجرؤ على شرائه . . وبعد عام ، أى فى ١٥٤٠ ، باع هنرى الثامن الدير بثمانمئة جنيه ، لأحد رعاياه المخلصين : « سير جون بيرون » . .

وكان بيرون ، هذا الذى ورث كهنة نيوستيد ، هو عميد أسرة من أعرق الأسر التى وفدت من مقاطعة النورماندى الفرنسية مع وليم الفاتح ، والتى تميزت فى الحروب الصليبية ، ثم فى حصار كاليه . . وكانت تملك أراضى واسعة ، لا فى نيوستيد قرب نوتنجهام وحدها ، بل فى روشديل ، وكلايتون ، فى إقليم لانكشير . وكان شعارها : « ثق ببيرون : Crede Biron »

وحوّل عميدهم الدير الغوطى إلى قصر ، تعلق به خلفاؤه . . وكان منهم ، بعد مئة سنة ، لورد صديق وفىّ للملك شارل الأول ستيوارت ، لم يتخل قط عن مولاه فى محنته ، عند ما قاوم البرلمانيين ، الذين جاءوا لحاصروا « نيوستيد » . وسوّد البارود جدران الدير القصر . ونضحت بالدم البحيرة الجميلة ، التى كان خرير مائها يصحب تراتيل الرهبان وصلواتهم .. وبعد ما انتصر كروموبل على الملك ، وظفر برأسه ، صحب لورد بيرون إلى فرنسا « شارل الثانى ستيوارت » ، بما عرف عنه من وفاء للبيت المالك ، وولاء متصل ، لاينكر عليه . . وقد سجل التاريخ ، فيما سجل ، أن الملك اتخذ ، فى منفاه ، من « ليدى بيرون » : محظيته السابعة عشرة !

ومع ذلك ، فقد أفسحت الغابة حول الدير ، شيئاً فشيئاً ، للحقول المنزرعة ، والمراعى ، والقرى ، التى اكتسحتها ، فتقهقرت الغابة أمامها . . ولم تعد ضيعة بيرون فى عزلة ، إذ جاءت أسر غنية أخرى فأقامت بيوتها فى ذلك الجوار . وكان أجملها وأدناها : قصر أنسلى Annesley ، الذى تقطنه أسرة « شاورث Chaworth » . . وكان يصله بقصر نيوستيد طريق طويل من البلوط ، أطلق عليه : « طريق العرس » ، لأن الأسرتين كانتا مرتبطتين بزواج لورد بيرون الثالث من أليزابيث ، كريمة الفيكونت شاورث ، فى نهاية

القرن السابع عشر . ولم يكن اللورد موفور الحظ ، إذ أثبتت الأيام صحة التنبؤات القائلة بدمار الذين يجرؤون على شراء دير نيوستيد ، وظل الناس يتناقلون : أن شبح راهب ، فى مسوحه السوداء ، يسرى ليلا ، خلال الدهاليز المقوّسة ، ويجدد لعنة السلف على الخلف . . ورزق لورد بيرون الرابع : ولدين ، حوكم أكبرهما « لورد وليم » بتهمة القتل ، واشتهر ثانيهما ، « الأميرال چون » ، بأنه أنحس من قاد فى المملكة سفينة . .

وحكاية القتل تستحق الذكر ، ذلك أن سادة مقاطعة نوتنجهام اعتادوا أن يجتمعوا فى لندن ، مرة كل شهر ، فى « حانه الا ُيتوال » . وفى هذه المرة ، قضوا سهرة ٢٦ يناير ١٦٧٥ فى مرح خالص . . ثم تحول الحديث إلى خير الوسائل لحفظ الصيد وتنميته . فقال شاورث ، بشىء من الجفوة : إن عنده ، وعند السير شارلز سدلى (جارهما المشترك) ، فى خمسة أفدنة ، من الصيد : أكثر مما لدى لورد بيرون ، فى ضياعه كلها ، وإنه لولا عنايتهما لما بقى فى ممتلكات بيرون أرنب واحد ! . . فتساءل لورد بيرون : « أين هى ممتلكات السير شارلز سدلى ؟ » . . فأجابه شاورث : « إذا أردت معلومات عن السير سدلى ، فهو يسكن « دين ستريت » . أما أنا فسيادتك تعلم جيداً اين تجدنى . . » . وكانت هذه الكلمات ، بلهجة التحدى ، خاتمة الحديث .

فعندما غادر لورد بيرون القاعة وجد مستر شاورث فى السلم ، فتبادل الرجلان بضع كلمات . . ثم سألا خادماً أن يدلهما على غرفة خالية ، وضع لهما فيها شمعداناً ، ثم أغلق الباب عليهما . وبعد بضع دقائق ، دق جرس ، وجاء صاحب الخان ، فوجد مستر شاورث ولورد بيرون : يتبارزان ، وقد جرح أولهما جرحاً خطراً ، فحمل إلى داره ، حيث قضى نحبه .

وما كان السيد الأمثل ، القاتل ، ليحاكم إلا أمام مجلس اللوردات . فدعى ، بعد بضعة أشهر ، إلى السجن فى برج لندن . ومن هناك حملته مركبة تحفها كوكبة من الفرسان إلى وستمنستر هول . . ووضعت إلى جانب السجين بلطة الجلاد .

وسئل الشهود . وأخذ رأى الأطباء . ودافع لورد بيرون عن نفسه بأنه : « غير مذنب » . فبرّىء من تهمة القتل . واتهم بأنه تسبب فى نزيف أفضى إلى موت . وعلى ذلك أطلق سراحه . فعاد إلى دير نيوستيد . .

الحق أن مستر شاورث كان معروفاً بأنه رجل شكس . . غير أن القاتل سيظل ، فى عيون الناس : « اللورد الشرير » ، تذاع عنه حكايات مختلفة ، منها : أنه أطلق النار على سائق عربته ، ثم وضع جثته إلى جانب زوجته ، وساق العربة بنفسه ! . . ومنها : أنه ألقى بهذه المرأة فى صهريج بالدير ، لتغرق .

وما من شك فى أنه كان رجلا شرس الطبع ، يحمل دائماً غدارتين فى حزامه . . وقد بلغ من شقاء ليدى بيرون معه : أن هربت منه . . فاتخذ بدلا منها خادمة فلاحة . . وحينما تزوج ابنه الوحيد ، على رغمه ، لم يقف غضبه ومقته عند حد ، فقطع كل ما كان يربطه بالناس ، واستوحش . وقرر : أن يحرم ورثته ، ولا يترك لهم إلا خراباً يباباً . فدفع ديون القمار من أشجار حدائقه ، وقطع منها مايساوى خمسة آلاف جنيه ، فجرّد تلك الغابة البديعة ، وتركها فضاء بلقعا . وأجر ، لواحد وعشرين عاماً ، ضيعة روشديل ، التى اكتشفوا فيها مناجم فحم ، بثمن بخس ، هو ستون جنيهاً فى السنة ! . . ذلك لكى يقضى على ولده قضاء مبرماً .

ولم تكن حياة أخيه الأصغر دون حياته فى مآسيها . كان الأميرال چون بيرون (وهو جد بطلنا) بحاراً شجاعاً ، لازمه سوء الطالع ، بحيث أطلق عليه رفاقه : « چاك العاصفة » ، فلا يكاد يقود سفينة حتى تهب عليها الزوابع والأعاصير ، وتحطمها ، فكفت الدولة عن أن تعهد إليه قيادة أية قطعة من أسطولها ، خشية أن يكون نصيبها قاع البحر .

وقد ولد للأميرال بيرون هذا : ولدان . . أكبرهما : چون (والد بطلنا) ، وكان جندياً . والثانى چورچ ، وكان بحاراً . أتم چون دراسته فى الأكاديمية الحربية الفرنسية ، والتحق بالحرس ، واشترك ، وهو ما زال يافعاً ، فى الحروب

الأمريكية ، واشتهر : بيأسه الشديد ، وغرابة فعاله ، وكثرة ديونه ، حتى سمى « چون المجنون » . وعاد إلى لندن فى العشرين من سنه . . وغزا قلب امرأة شابة ، آية من آيات الجمال ، تدعى : « المركيزة دى كارمرتن » ، وهى زوجة « اللورد كارمرتن » ، من أمناء الملك . وكان رجلا رقيقاً مثقفاً . لكنها فضلت عليه جنون چون بيرون . ولم تكد تصبح ، بعد موت أبيها ، بارونة ، ووريثة أربعة آلاف جنيه سنوياً ، حتى هربت مع عشيقها ، وهجرت : أمين الملك ، وأطفالا ثلاثة . . فطلقها .

وقضى الحبيبان زمناً فى قصر الوارثة الجميلة . . ثم نزحا إلى فرنسا ، هرباً من ألسنة السوء ، ومطاردة الدائنين . . ووضعت البارونة بنتاً ، هى : « الشريفة أوجستا بيرون » .

وماتت البارونة فى عام ١٧٨٤ ، وقالت الطبقة الراقية فى لندن : إن موتها هو من سوء معاملة زوجها . . وقال أهل بيرون : إنه بسبب تهورها بذهابها إلى الصيد والقنص بمجرد قيامها من الوضع . .

وبموتها ضاع معاشها الضخم ، الذى كان وقفا عليها .

٢ ـ مولد شاعر

بشِّر الدهر بمولود جديد
ليت شعرى : أشقى ، أم سعيد ؟

كانت « باث » ، المصيف الذائع . فقصدها الأرمل الشاب ، ليسلى حزنه على شاطئها الجميل ، المستدير كالهلال ، الشبيه ، فى الإسكندرية ، بيلاچ ستانلى باى .

وهناك التقى « بمس كاترين غوردون دى جايت » الاسكتلندية ، اليتيمة ، الوارثة . . . فتاة قصيرة القامة ، سمينة البدن ، وردية البشرة ، طويلة الأنف ، أبعد ما تكون عن الجمال . غير أن موت أبيها قد جعلها مطلقة التصرف فى أملاكها ، البالغة ثلاثة وعشرين ألفاً من الجنيهات ، منها ثلاثة آلاف نقداً ، (هى أنفع

ما تكون فى سداد الديون المعجلة !) . . والباقى مجمّد فى : ضيعة دى جايت ، ومصائد السمك ، وأسهم بنك أبردين . .

وإذا كانت كاترين غوردون غير جميلة ، فهى كريمة المنبت ، فخور بأصلها ، اسمها من أعرق الأسماء فى أسكتلندا . ولكن تاريخ الأسرة ، الذى يبدأ بسلالة ملكية ، امتاز بسلسلة من الحوادث الفاجعة : وليم غوردون مات غريقاً . . ألكسندر غوردون مقتولا . . چون غوردون مشنوقاً ، بسبب قتله أحد اللوردات . . چون غوردون آخر مشنوقاً ، أيضاً ، بتهمة القتل . . فكأن شجرة أسرة غوردون قد رويت بالدماء ، وشنق فى كل فرع من أفرعها أحد أفرادها !

كانت أسرة عنيدة ، مشاكسة ، تتحدى السلطات الحاكمة ، ولها قربى وعزوة تخشى الدولة بأسها . . فتعيث ما طاب لها فى الأرض فساداً ! . .

ولما مات ألكسندر غوردون غرقاً ، انتحر ولده چورچ غوردون غرقاً ، حزناً عليه . . . وكان هو والد صاحبتنا كاترين غوردون ، هذه الموعودة بأن تُفتن بعينى الكابتن بيرون ، الذى شغفها حباً . . نشأت كأهل بلادها على الادخار والتقتير ، وتعلقت بالمطالعة ، وورثت عن أسلافها : خلقهم الشرس ، واندفاعهم ، وكذلك شجاعتهم . . دلت على ذلك بزواجها من أخطر الأزواج ، فى اليوم الثالث عشر من مايو ١٧٨٤ ، بمدينة باث ، التى انتحر فيها أبوها غرقاً !.

وذهب العروسان إلى ضيعة غوردون الفخمة ، فاستقبلا هنالك شر استقبال . نظر الأسكتلنديون باحتقار إلى ذلك الأجنبى ، الإنجليزى الذى جاء يبدد ، بين الكأس والطاس ، ثروة أسكتلندية . ولاموا الوارثة المعتوهة ، التى زعمت نفسها حسناء ، وسترت دمامتها بثياب من الحرير وريش النعام ، وأخفت نحرها الغليظ فى قلائد من الدر ، واستسلمت لرجل تزوجها لأجل مالها . . ونظموا فى هجوها الأشعار !..

لم يكونوا فى ذلك مخطئين ولا مبالغين . فإن الرجل الإنجليزى سرعان ما ألقى فى مهب الريح ثروة غوردون الطائلة . فاختفت ، أول ما اختفى ، ثلاثة

الآلاف من الجنيهات ، التي كانت نقداً وعداً . . ثم حمل چون زوجه على بيع أسهمها فى بنك أبردين ، ثم حقوقها فى مصائد الأسماك . . ثم تجريد غابات الضياع من أشجارها ، ثم استدانة ثمانية آلاف جنيه بالرهن . . ثم بيع الضيعة كلها ، فى العام التالى ، بسبعة عشر ألفاً وثمانمئة جنيه ، تلقفها رجال القانون الأسكتلنديون ، واحتفظوا بها ، لما عليها من حجوزات للدائنين ! . .

وهكذا رحل الكابتن بيرون وزوجه من « جايت » ، يتسكعان فى انجلترا ، ثم اضطرا ، أمام مطاردة المحضرين ، إلى عبور المانش إلى فرنسا ، حيث كان للزوج أقارب رفيعو المكانة ، مثل : « المارشال دى بيرون » . .

وهنالك راح هذا الزوج المترف المسرف : يلعب ، ويغازل ، ويعيش عيشة البذخ ، بالدين . . فى حين كانت كاترين غوردون ، الأسكتلندية الشحيحة ، مقترة على نفسها ، معنية بتربية بنت زوجها ، « أوجستا » الصغيرة ، التى ستلعب دوراً خطيراً فى حياة شاعر الجيل .

بقى الزوجان زمناً فى « شانتيى » (من ضواحى باريس) . . ومرضت أوجستا مرضاً خطيراً ، وظلت واقفة أياماً طويلة على أبواب الموت ، وزوج أبيها تعالجها ، وتمرضها ، بعناية ورحمة ، حتى نجت بأعجوبة . .

كانت كاترين تحب فى زوجها : جماله ، وقوته ، وتهوره . . وإن أشفقت من المستقبل . . ثم حملت فى عام ١٧٨٧ . . ولما دنت ساعة الوضع ، تمنت العودة إلى انجلترا . . أما أوجستا فاستردتها جدتها لأمها « ليدى هولدرنس » . .

وسكنت كاترين شقة فى حى أنيق بلندن . . وهجرها زوجها فى أعز وقت تحتاج فيه النساء إلى الحماية والرعاية ، ليعيش بين دوڤر وباريس ، لا يجىء لزيارتها إلا لماماً ، ليسألها مالا ، يبدده بعد ذلك فى أيام .

وكان الرجل الوحيد الذى يعنى بها هو « چون هانسون » وكيل أشغالها .

وفى الثانى والعشرين (٢٢) من يناير ١٧٨٧ وضعت كاترين طفلا ، سمته :

« جورج غوردون بيرون »

وعلمت بمجرد عودتها إلى لندن ، بأنها أملقت ، وضاعت ضياعها . لم يبق من ثروتها الضخمة إلا ثلاثة آلاف جنيه ، وظفت بربح خمسة فى المئة ، لتكون معاشاً ثابتاً ، لها ولولدها : مئة وخمسين جنيهاً سنوياً ، تدفع على أقساط . . وكانت بتربيتها المتقشفة خير من يستطيع العيش بالقروش المعدودة . غير أن زوجها : كان ، من ورائها ، يراكم الديون ، وهى لا تستطيع دفعاً . . فلما علمت بأنه استدان من جديد ثلاثمئة وألف جنيه ، تفجر غضبها الغوردونى ، ومزقت ثيابها ، وألقت بالآنية على رأس خادمتها . . ثم لم تكد تعود فترى عينى « بيرونها » ، حتى تبلبلت ، وتلجلجت ! . كانت فى الثالثة والعشرين . رأت نفسها : فى زهرة شبابها ، وارثة اسم عظيم وثراء عظيم ، وبلغ من ضعفها أن زعمت نفسها جديرة بأن تُحب . فتهالكت على الحب . وكان شعارها : « لن يغيرنى إلا الموت ! » . وكان ينبغى لها التسليم بأنها خُدعت ، وأنها جرّدت من كل شىء ، وأنها افتقرت ، وعلى كاهلها : زوج ، وطفل ، ومرضِع ، وبيت . . وما أكثر النساء اللواتى يطشن ويتخبطن من بعض هذا ! . .

لم تجد كاترين من ضيقها مفراً إلا الالتجاء إلى أبردين ، لتعيش فى جوها الأسكتلندى المألوف ، لا تحس فيه أنها أجنبية ، يضطهدها ، كما فى لندن ، المحضرون . . ولم يتبعها الكابتن بيرون . فقد رأى نفسه مرتبطاً بامرأة مفلسة لم تكن قط جميلة . . وهى ، برغم الدم الملكى الذى يجرى فى عروقها ، أشبه بامرأة بقال القرية ! وقد أرادته على اللحاق بها فى ريف قاس ، وبرد قارس ، حيث الفلاح الأسكتلندى ، الشريف ، المستقيم ، يحتقر الإنجليزىّ المسرف ، المتلاف . . ولم يكن هذا الإنجليزى مستعجلا فى اللحاق بها ؟ . .

وسكنت مسز بيرون فى أبردين شقة صغيرة مفروشة ، سكنتها مع خادمتيها الأسكتلنديتين ، الأختين آنييس وماى جراى ، اللتين تولتا إرضاع چورچ الصغير . . وكان الطفل جميل المحيّا كأبيه . . لكنه لم يكد يبلغ سن

المشى، حتى تبينت أمه ، فى ذعر : أنه يعرج . كانت قدماه عاديتى الشكل ، وساقاه متساويتى الطول ، لكنه لا يكاد يضع كعبه على الأرض حتى يلتوى ، فلا يستطيع الوقوف إلا على إخمص القدم . وقال الأطباء : إن السبب خطأ فى عملية الولادة ، بسبب حياء مسز بيرون المفرط ! . . وصنعت للصغير أحذية خاصة . . بيد أنه ظل يعرج ، إلى جانب ماى جراى ، فى شوارع أبردين .

كان ولداً آية فى الذكاء والحنان . . ولكنه كان ضيق النفس ، سريع التلهب والغضب . والطفل يتعرف الحياة : تتخذ عنده شكلها ، وتتخذ فيه لونها ، منذ سنيه الأولى . . فماذا كان يرى بيرون الصغير ؟ أبواه يعيشان منفصلين ، وأمه تضطرم من شدة ما أصابها من دهرها اضطراماً . ومع ذلك كانت ما تزال عاجزة عن مقاومة عينى زوجها الآسرتين ! . . ألم تقترض ثلاثمئة جنيه أخرى ، أعطته إياها ، على أن تدفع فائدتها من معاشها ، الذى نزل بذلك إلى مئة وخمسة وثلاثين جنيهاً ، قنعت بها ، ولم تستدن دانقاً . حتى لا ينال من كبريائها نائل ، وإن نال منها أحياناً غيظها ، فتتطاير الصحون فى أرجاء البيت ! . .

وكان الصبى يلاحظ أبويه بتطلع غريب . فأخدانه الصبيان لهم آباء وأمهات يعيشون معاً متحابين . أما هو فقد استيقظ ذكاؤه على ضجيج : الشجار ، والشكوى ، والملام . ورأى الخادمات يعددن أبويه مخلوقين مخبولين ، خطرين حيناً ، مضحكين حيناً آخر .

إذن فهو يختلف عن سواه بأسرته ، وهو كذلك أشد اختلافاً بعاهته . لماذا ينهار كعبه المشلول تحته ، وتخونه قدمه ؟ . لقد بلغ به الاستنكار ، والشعور بالعار ، إلى حد لم يوجه بسببه قط سؤالا . وحدث يوماً أن قالت امرأة فى الطريق لمربيته ماى جراى : « هذا الولد الصغير : بيرون ، ما أجمله ! . . لكن ياخسارة ما أصاب ساقيه ! » . . فضربها بسوطه الصغير ، وصاح بها :

« أفٍّ لك ! . لا تذكرى هذا ! » . . وكانوا كل ليلة يربطون قدمه ربطاً مؤلماً ، أملاً فى شفائها .

وهرب أبوه فى أواخر ١٧٩٠ إلى فرنسا ، بعد ما أخذ من زوجته وأخته « مسز لى » قليل مال . وكانت أخته تملك منزلا فى ڤالنسيين . . وانخرط الكابتن الطريد فى الثورة الفرنسية ، دون أن يدرك مرماها . . إذا هتف الهاتفون بحياة الملك ، هتف معهم . . أو بحياة الأمة ، هتف معهم أيضاً ! . . وعاث فى الأرض فساداً ، مع : خادمات الحانات ، ووصيفات الحانات . . كتب إلى أخته :

[أما عن غرامياتى ، فقد انتهت كلها ، أو كادت .. والناس هنا يقولون عنى : إننى شديد العشق ، ولكننى قليل الثبات . . فكل واحدة تطرد الأخرى . . ولعلى حظيت بثلث نساء ڤالنسيين ! . . وآخرهن تلك الفتاة من حانة « النسر الأحمر » ، حيث تعشيت ذات مساء ماطر . . طويلة ، حسناء ، ممتعة . . لم أزهد فيها بعد ! . .]

ثم لم يكد يحل صيف ١٧٩١ حتى اتخذت رسائله لهجة فاجعة : [الحق أنه لم يعد عندى قميص ... ولم أعد أملك دانقاً] . وأبى الخباز ، وأبى الجزار ، كلاهما ، أن يستمرا فى إطعامه : [لم تعد على بدنى غير بذلة . وهى مهلهلة . لأوثر أن أكون عبداً رقيقاً !] .. [لم يعد عندى قميص ، ولا بذلة . . لأن التى أرتديها قد صارت خرقة بالية] .

وبعد أيام قلائل ، مات . . وقيل إنه انتحر .

وأثر موته كثيراً فى زوجته ، التى لم تكف عن حبه . وبعثت إلى سلفتها مسز لى ، تسألها عن تفاصيل مرضه ، وموته ، وتسألها خصلة من شَعره ! . .

ولم ينس بيرون الصغير أباه ، فقد كان معجباً به . وسيبقى وحده فى الحياة ، مع امرأة يفيض طبعها الحاد بوابل من القبل ، ثم بطوفان من اللطمات . وقد أدرك أنها تعسة ، منكودة الطالع . . فكان يخشاها ، وكان يرثى لها . وكان إذا ما ذهب إلى حديقة معلمه چون ستيوارت أستاذ اليونانية فى أبردين ، يقطف الفاكهة ، ويسأل : هل يستطيع أن يحمل بعض التفاح : « لأميمتى العزيزة المسكينة » ؟

٣ - صبيّ أعرج

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾
« سورة آل عمران »

كانت ماى جراى تقرأ فى التوراة ، بصوت مرتفع ، قصة قابيل وهابيل ، وبيرون الصغير يستمع إليها بشغف . إنه لايفهم الكلمات كلها ، ولكنه يتذوق ما فى الكتاب المقدس من شعر عجيب مروع . . فلماذا يأبى السرمدىّ تضحية قابيل المسكين ؟ . . فتقول ماى جراى : « بسبب خطيئته » . . خطيئته ؟ . . ما هى الخطيئة ؟ . إن قابيل لم يكن بعد قتل هابيل . . لا . . ولكن ماى جراى تقول إن قابيل قد حقت عليه اللعنة . . فما معنى اللعنة ؟ . معناها أن الشيطان سيأخذه ، ويشويه فى نار جهنم ، يوم القيامة . إن ماى جراى تكثر من التحدث عن الشيطان . تحب أن تبعث الخوف والرعب ، فتروى قصص الأشباح والأرواح ، وتقول إن البيت مسكون . وكانت إذا ماطفقت فى المساء تشد الأربطة الوثيقة على قدمه المريضة ، جعلته يردد آيات الإنجيل . ثم تطفىء النور . وكان المفروض أن تبقى قرب الصبى ، فى الغرفة المجاورة . ولكنه كان يعلم أنها تخرج فى طلب الهوى . فإذا ماخرجت أحس الخوف . فهذه البلاد ـ أسكتلندا ـ ملأى بالأشباح والأطياف ، يراها ترود من حوله . . والبيت يجاور مقبرة ! . . فيظلع فى الدهليز حتى النافذة ، ليتبين خيطاً من النور يؤنسه ، ويظل كذلك حتى يرده البرد إلى فراشه .

إنه يعيش بين مربية قاسية ، وأم مجنونة ، تلعنه أحياناً ، وتراه مثل أبيه : كلباً شريراً . . وتضمه أحياناً إلى صدرها ، حتى لتكاد تخمد أنفاسه ! وتقول له : إنه سليل آل غوردون الأمجاد ، المتحدرين من دم ملكى . . فى حين تقول مربيته : إن آل غوردون سلالة أثيمة : قتلت ، وشنقت ، وغرقت . . سلالة حلت عليها اللعنة ، مثل قابيل قاتل أخيه هابيل . لاشك فى أن روح الشيطان قد حلت فيهم . .

وكانت أمه لاتحدثه كثيراً عن سلالة بيرون ، فهى عندها دون سلالتها . . على أنه كان يعرف ، من مربيته ، أنه فى مكان ما ، فى شمال انجلترا ، فى قصر قديم : لورد شيخ شرير ، هو عميد الأسرة ، وأن هذه الأسرة عريقة ، ضمت : محاربين عظاماً ، وبحريين عظاماً . أن يكون هذا الصغير بيرون : ميراث حافل ، وصفة خفية بارزة ، تحمله فوق أولئك الصبيان ، رفقائه ، ذوى السيقان القوية السليمة ، وذوى الآباء العقلاء الوادعين ، الذين يحسدهم . .

وقبيل بلوغه الخامسة بشهرين ألحقوه بمدرسة قريبة من البيت ، ناظرها يدعى : « بودسى » ، مصاريفها خمسة شلنات كل ثلاثة أشهر ! . وكانت « كتّاباً » ، مكوّناً من حجرة واحدة ، قذرة ، واطئة ، مظلمة . . لم تكن مطالعتها إلا كأكثر المدارس الأسكتلندية ، تدور على « أن الله قد خلق إبليس ، وأن إبليس خلق الخطيئة » . فرأت أمه أن هذا العلم لايكفى ، فاتخذت له أستاذين للدروس الخاصة ، أحدهما «رسى» بعث فى نفس الصبى : الشغف بالتاريخ . وتولى الآخر « باترسون » : تربيته الدينية ، وتعليمه اللاتينية . . ولقنه : أن الخطيئة كامنة فينا منذ مولدنا . وقد يستطيع بعض الذين يتعلقون بالله التطهر من الإثم . والله يختار من عباده من يشاء ، ويبقى الآخرون يتخبطون ، كالذى يتخبطه الشيطان من المس . .

ولما بلغ السابعة ، بدأ يحس فى نفسه نوبات مفاجئة من الغضب ، لاحيلة له فيها ، يصعد الدم إلى وجهه ، ويظل لحظة لايدرى مايفعل . . ومع ذلك كان فى لحظات أخرى يحس غاية الحنان والطيبة . . فهل هذا أيضاً من ميراث أسلافه : آل غوردون وبيرون ؟ .

وكانت أحلامه الأولى تحوم حول المجد الحربى . . يقول : « أريد أن أقود يوماً فرقة من الفرسان . . فألبس رجالى ثياباً سوداء ، وأعطيهم خيولا سوداء . وأطلق عليهم : « سود بيرون Byron's Blacks » ، وأسيرهم فى الأرض ، لايشق لهم غبار . . »

وفى ذات يوم من عام ١٧٩٤ ، بينا مسز بيرون تتناول الشاى عند جيرانها ، سألها بعضهم : « هل عرفت أن ابن لورد بيرون مات ؟ » . . فانتفضت . فقد كان من العجب أن يموت رجل فى ريعان شبابه هكذا ! . . ومما لا يكاد يصدق أن يصبح ولدها وحده : الوريث المباشر للقب بيرون ، ورب « نيوستيد » ، وصاحب الأملاك والضياع . . وكذلك من العجب ألا يفكر أحد فى إخطارها ! . . وكان الخبر صادقاً . ولم يعد يفرق بيرون الصغير عن ذلك العز كله إلا الشيخ المعتوه ، الذى يقضى أيامه بين تسيير أسطول من ورق فى بحيرة نيوستيد ، ليحارب مراكب خادمه . . أو يرقد على أرض المطبخ ، لتجرى من حوله الصراصير المدرّبة صاغرة ، تستمع إليه ، وتلبى أوامره ! . .

وعبثاً كتبت مسز بيرون ، والتمست العون على تربية وريث الأسرة وحامل الاسم . . فقد كان الشيخ الأحمق يكره ذلك الصبى الأعرج الذى ينتظر موته ، فلم يرد عليها . . بل مضى يبدد ميراث بيرون ، بطريقة وحشية جنونية ، كى لا يبقى منه طارف ولا تليد . فلم تجد مسز بيرون مندوحة عن الرضا لولدها بمدرسة متواضعة فى أبردين ، هى مع ذلك محترمة ، تراعى فيها علوم اللغة وأصولها ، وتدرس فيها اللاتينية خمس ساعات فى اليوم . وتلاميذها جميعاً من الفقراء ، لا ينال أحدهم ، مصروف جيب ، فى الأسبوع ، غير بنس واحد !

ولم يلبث التلميذ جورج بيرون أن اشتهر ، بين زملائه ، بأنه لاعب « بلى » بارع . وأحبه رفقاؤه ، على ما أدهشهم فى طبعه من العطف والعنف . وكان بواب المدرسة كثيراً ما يطارد الغلام ، ذا الشعر الأحمر ، والسترة الحمراء ، الذى يجىء لمعاكسته وهو يعرج . وكذلك عرف فى المدرسة بالشجاعة : « فهو دائماً أكثر استعداداً لأن يكيل الضرب من أن يكال له » . . وتمرن على الوقوف الطويل على أخمصى قدميه ، وهو يضارب . . وكان يحمل الثأر بين جنبيه ،

لا يرتاح حتى ينال ممن نال منه ، شاعراً دائماً بأنه بيرون ، مطبقاً دائماً شعار الأسرة : « ثق ببيرون » . .

وكان يطالع أكثر من رفقائه كثيراً . يطالع وهو يأكل ، ويطالع وهو فى فراشه . والتمس من أمه أن تشترك له فى مكتبة ، ليقرأ كل ما وضع عن تاريخ : روما ، واليونان ، وتركيا . وتعلق بالشرق ، وأحبه ، لتأثره بالكتاب المقدس ، وشغف بألف ليلة وليلة . وكان واسع الخيال ، يستمع إليه رفاقه فى المدرسة ، بارتياح ، وهو يعرض عليهم لوحات تاريخية من مطالعاته . وإذا دهمتهم العواصف الثلجية فى الشتاء ، ولجأوا إلى مخبأ ليعصمهم ، روى لهم بيرون من ألف ليلة وليلة ، فينسى صحابه البرد !

وفى ١٧٩٦ أخذته أمه ، بعد إصابته بالحصبة ، ليقضى بضعة أيام فى مزرعة ، أحب منها تلك الجبال الأسكتلندية ، التائهة فى ضباب أزرق ، المتوجة بالثلج الناصع . . وطاب له الضلال بين الصخور الغريبة الشكل ، وزاده تعلقاً بما حوله بنت صاحب المزرعة ، « مارى » . . وكانت ذات خصل طويلة من الذهب . . يحس فى محضرها بتأثر لذيذ شديد . . كان اشتهاؤه مرهفاً باكراً ، منذ الصبا ، كإحساسه البادر سواء بسواء . . فاكتشف منذ التاسعة أن فى الإمكان : الشعور بهناء لا حد له بمحضر إنسان حبيب .

فلما عاد إلى أبردين ، هام بحب بنت العم « مارى دَف » الصغيرة ، اللوزية العينين ، الكستنائية الشعر . . أحب تقاطيعها ، ولم يتصور جمالا يفوق جمالها . أحب التنزه معها ، والجلوس إلى جانبها ، والتربيت برقة عليها . . لم يعد يفكر فى غير محيّاها ، وفى غير أثوابها . . ولم يعد ينام . ولم يعد يتكلم إلا عنها . فإذا ما بعد عنها عذب أمه ، حتى تكتب إلى حبيبته « مارى دَف » . . وأعطى الحب لهذا الغلام من القوة ما جعل أمه ، راضية أو كارهة ، تكتب رسائل غرامه ، وهى تهز كتفيها ، وتصبح بذلك سكرتيرة ولدها ! . .

آه ! . . لشد ما كان جامح العاطفة ، شديد الحياء ! . . فعند ما يذكر ساقه العرجاء ، ومشيته « النطّـاطة » ، يحس بأنه هزءة سخرة . فيود لو اختبأ واختفى ! . . وفجأة ، دون سبب ظاهر ، ينتقل من عاطفيّ حالم ، إلى نفور مستوحش ! . .

وسدد مرة ، على المائدة ، سكيناً ، بقوة ، إلى صدره . . فروعت أمه . وكان سبب هذه النوبات : أنه يحمل أسباب ألمه فى واعيته زمنا ، كما لو كانت تكتنز له الضغينة والحقد ، وتكشف له ، أحياناً ، عن الغل الكظيم .

ولما بلغ العاشرة ، جاءه يوماً نبأ وفاة اللورد الشرير ، عاهل نيوستيد . فقد غادر أخيراً الأرض ، وأصبح چورج غوردون بيرون الصغير : **لورد بيرون السادس** . جاءه النبأ وهو فى المدرسة . فدعاه أستاذه ، وأعطاه : فطائر ، وحلوى ، ونبيذاً ، وقال له إن عم أبيه الكبير العزيز قد مات ، وإنه أصبح الآن لورداً . .فأشعرته الحلوى والنبيذ ولهجة معلمه بالمكانة الرفيعة التى بلغها . .

ولما نودى عليه ، فى الصباح التالى ، بين صفوف التلاميذ ، بلقبه الجديد ، التفت إليه أقرانه معجبين ، فانخرط باكياً . ولم يحر جواباً . .

آن الأوان ، إذن ، لمغادرة أبردين ، والحصول على الميراث . . ففى خريف ١٧٩٨ سافرت مسز بيرون وولدها ومربيته ماى جراى إلى نيوستيد . . وباعت قبل الرحيل أثاثها ، فكان كل ما حصلته من هذا البيع : أربعة وسبعين جنيها ، وسبعة عشر شلنا ، وسبعة بنسات ! . .

٤ ــ العرّافة

إذن فقد صار هذا الصغير : لورد بيرون . . وهاهوذا فى طريقه إلى قصره وممتلكاته !. . أليست هذه الرحلة مدهشة ، أشبه ما تكون بمغامرات ألف ليلة وليلة ؟ . . ومع ذلك ، فإنه ، عند ما تطالعه قباب الدير القديم ، الذى

صار الآن قصره الباذخ الذى طالما تمنى أن يعيش ويحكم فيه ، سيرى أن نيوستيد أجمل من أجمل الأحلام ! . .

واصطفت بين يديه الوصيفات ، وجاء الخادم الشيخ « چون مورى » ، وبدأت الزيارة . . . خرائب وأطلال : فالسقوف ، والحيطان ، والأرضية ، مهجورة مهملة منذ سنوات . واعتذر الخدم بجنون اللورد العجوز . ورووا كيف كان يحمل دائماً فى كل جيب غدارة . ثم جاء حديث الصراصير : « إنها ، بعد موت مولاى ، غادرت نيوستيد فى عدد هائل ، حتى اسودت منها الردهة ، وكانت الأقدام تدوس منها المئات » . . أجل ، فقد أضاعت الصراصير سيدها ، الساحر الشيطانى الغريب ، الذى كان يدرّبها على طاعته ، ويضربها بعيدان من القش ! . فما كان أشدها غرابة ، تلك الحشرات التى تدب فى الأرض ، والتى اتخذ منها أسرته !

ومن أول لقاء ، تعلق بيرون بنيوستيد ، بالقوة التى تعلق بها مارى دف . فراح ، مع الوصيف الشيخ مورى ، يستكشف : الدهاليز المقببة ، والأقبية ، والماشى ، والغدران . وود لو لم يغادر هذا القصر الخرب ، هذا الميراث السحرى . . لولا أن أمه قالت باستحالة العيش فيه ، وإن إصلاحه يكبد مبالغ طائلة ، وهى لا تستطيع الإنفاق على أطلال . ولجأت إلى وكيل أشغالها فى لندن « هانسون » ليتولى أمر التركة . وسكنت شقة صغيرة ، قرب القصر ، فى شارع ضيق مظلم . فخاب أمل اللورد الصغير . . إذن فسرعان ما انهار قصر عرائس الأحلام ، وتبدل مسكناً خانقاً ! . . وكانت أمه تتردد كثيراً على لندن ، تسعى لدى المجلس الحسبى لتحصل على معاش لولدها ، حتى يبلغ سن الرشد . وتعهد به فى تلك الأثناء إلى « ماى جراى » . وكانت ماى جراى غير جديرة بهذه الثقة . فلما جاء هانسون من لندن ، للتعرف باللورد الصغير ، الذى صار وكيلا له ، أحبه من فوره . . وسأل الجيران عن معيشته ، فعرف منها ما ثار له . .

وكتب إلى مسز بيرون : [... أؤكد لك يا سيدتى : أنى ما كنت لأتدخل فى شؤونك

المنزلية ، لولا ما عرفته عن خادمتك ماى جراى .. فان صديق الشريف الصغير ، رغم استعداده لاخفاء مشاعره ، لم يجد بدأ من أن يشكو لى : شراستها ، وسوء معاملتها له . . فهى تضربه ، بلا انقطاع ، ضرباً مبرحاً . . وهى تأتى إلى الشقة بخلانها من الأوباش . . وتخرج فى ساعة متأخرة من الليل ، وتتركه ينام وحده ، وتتسكع مع السكارى ، فى عربة تقف بها وبهم عند كل حانة ، لتحتسى وإياهم الكؤوس . . إننى أحب لورد بيرون حباً جماً . . وأرجو ألا أعد وكيلا عنه فقط ، بل صديقاً له . وقد قدمته إلى اللورد جرانتلى وشقيقه الجنرال نورتون ، فاجتذبهما إليه أشد الجاذبية ، مثلهما فى ذلك مثل كل الناس . وإنى ليؤلمنى كثيراً : أن أرى السيد الصغير فى صحبة هذه المرأة السوء . . وهو موفور الذكاء ، سريع البديهة ، صادق الحكم ، إلى درجة نادرة فيمن كان فى مثل سنه الباكرة . . ومن العار أن يحاط بهذه البطانة المرذولة]

كان هانسون على حق . فقد أبدى اللورد الصغير من قوة الذهن : ما يعد نادراً فى طفل على غراره . فالحياة الشاقة كثيراً ماتعمل عملها فى تكوين الذكاء والفطنة . فالطفل السعيد يتقبل من والديه الحياة السهلة الرضية . أما ذاك الذى يشب على ضوضاء المشاحنات ، فهو يحكم على والديه ، ويكوّن لنفسه صورة عن الدنيا ، مجردة من بريقها اللامع الخادع .

بيد أن ماى جراى قالت له ، فيما قالت : إن الأشرار يسلمون لعذاب النار . فإذا كانت تصدق فعلا فيما تقول ، فهل كانت هى نفسها تسير سيرها المعوجّ فى الحياة ؟ . . إذن فهذه أكاذيب الكبار للصغار . ولعل ماى جراى نفسها ذات روح ملعون مثل قابيل . وأين إذن عدل الله ؟ وفيم الإيمان ؟ . . ولماذا يتألم صبى برىء مثله ؟ .

وكانت أمه لم تعد تطيق ، وقد صار ولدها لورداً ، أن تراه يعرج . ودلها بعضهم على دجال فى نوتنجهام يدعى : « لافندر » ، فعهدت إليه إصلاح قدمى ولدها . وكان رجلا فظاً غليظ القلب ، كل علاجه : أن يضغط قدم الصغير بقوة فى آلة خشبية . وكان بيرون يتلقى فى تلك الآونة دروساً فى اللاتينية على أمريكى يدعى : « مستر روجرس » ، رجل كريم ، كان يتألم إذ يدرس مع تلميذه :

فرچيل ، وشيشرون . . فيقرأ على محيّاه الصغير : آيات التعذيب التى تسببها آلات لاڤندر . ويندر أن يتحمل غلام فى العاشرة ماتحمله بيرون ، دون شكاية . وكان يطلب المزيد من الدروس . وكان الجيران أنفسهم يتألمون لرؤية هذا الصبى الجميل : يستشهد بين : الفاجرة ماى جراى ، والدجال لاڤندر ، الذى يتفكه بإرسال اللورد الصغير لإحضار البيرة له ، فيستنكف الناس رؤية سيد « نيوستيد » يجتاز شوارع المدينة ، وهو يعرج ، حاملا بحذر قدح البيرة للدجال الأشر .

ومع ذلك لم يفارقه البِشر . وكان انتقامه من معذبه مضحكاً . فإن لاڤندر كان جاهلا ، يدعى معرفة اللغات كلها . فكان الصبى يكتب على ورقة : أحرف الهجاء ، كيفما اتفق ، على شكل جمل وعبارات ، يقدمها للدجال مستفهما ، فيجيبه : « هذه باللغة الإيطالية ! » . فينفجر بيرون ضاحكاً ظافراً . وهاهوذا بين لاڤندر وماى جراى ، يتعلم كيف يمقت النفاق ، فيصبح ذلك جزءًا من كيانه .

وأخيراً تحصل مسز بيرون ، من الملك ، على معاش سنوى ، قدره ثلاثمئة جنيه ، مما يمكنها من الذهاب للعيش فى لندن ، ووجد هانسون معهداً يليق ببيرون ، هو « مدرسة الدكتور جلينى » . . كما تمكن من إقناع اللورد كارليل ، من أقارب بيرون ، بقبول ولاية أمره . وهو رجل رفيع الخلق ، شديد الأناقة ، يكتب الشعر والقصص التمثيلية . ولما تزوج ، عمل فى السياسة حتى صار وزيراً .

لم يكن أصلح منه للوصاية على بيرون ، لولا أن أول لقاء بين هذا السيد الرقيق الأنيق ، وبين تلك المرأة ، الزائطة ، الشائطة ، الضائقة ، مسز بيرون ، كان كافياً ليزهده فى المهمة ، وليجعلها تسلكه فى عداد « أعدائها » ! . فإن هذا اللورد النبيل قد أسف على ما بدر منه من وعد ، وقرر أن يحدّ ما استطاع من لقاء تلك المرأة التى يفوح منها الويسكى ، المرأة الزرية الهيئة ، التى تتكلم الإنجليزية بلهجة السوقة الدهماء . . ولم يلبث أن نفد اصطبار الدكتور جلينى ، ناظر بيرون الجديد ، من شراسة أمه . فبقدر إعجابه به ، وتقديره له ،

كان لايطيق تلك الأم ، ويدهش كيف تكون مثلها والدة هذا الصبي الشجاع ، الذى يبارى ، على عرجه ، أقوى التلاميذ الرياضيين فى المدرسة ، ويحفظ الشعر ، ويعرف الشعراء ، ويدرس يوم الأحد فى الإنجيل بشغف شديد . . وكان رفاق بيرون يحبونه ، ولو أنهم يتندرون عليه بأنه « البارون الإنجليزى العجوز » ، لشدة اعتداده بأصله ، وتحدثه عن محتده . وكذلك كانوا يتضاحكون من تلك المرأة السمينة ، المغطاة بالحلى ، التى تأتى لتناقش الدكتور جليني . ويقولون لبيرون : إن أمه مخبولة . فيعترف ، وهو كاسف البال ، بأنه يعرف ذلك !.

وجاءت إجازة الصيف ، فوقع هذا الطفل فى حب جديد : تعلق بإحدى قريباته : « مرجريت باركر » : « واحدة من أجمل مخلوقات الله » ، فى الثالثة عشرة من عمرها ، لن ينسى بيرون ، ما عاش ، عينيها السوداوين ، وأهدابها الطويلة ، ووجهها الذى كأنه وجه تمثال إغريقى : « إننى لا أكاد أذكر شيئاً يقارب أو يدانى هذا الجمال الشفاف ، أو تلك الدماثة فى الطبع . إنها كانت كقطعة خيالية من قوس قزح . . كلها سناء وصفاء . . . وكان لعاطفتى أثرها المعتاد فى . . فلم أعد أستطيع النوم . . ولم أعد أستطيب الأكل . . ولم أعد أجد للراحة سبيلا » . وحاول أن ينظم لها شعراً . وتجسدت له فيها : المعبودة ، التى طالما تخيلتها النفوس الغضة فى مثل سنه الباكرةالطاهرة . .

وفى خلال إجازة تلك السنة ، ١٨٠١ ، استشارت مسز بيرون ، على شاطىء البحر ، عرّافة مشهورة ، أنبأتها بأنها أم ولد أعرج ، وأن هذا الولد سيتزوج مرتين ، ثانيتهما بأجنبية ، وأن أخطر حقبتين فى حياته هما فى سن : السابعة والعشرين ، والسابعة والثلاثين .

وكان لهذه النبوءة : أثرها الشديد فى بيرون ، عند ما ذكروها أمامه . . وسيظل يذكرها ، إذ تبقى أمام ناظريه ، كأنها محفورة فى لوح القدر . . .

٥ ـ مدرسة هارو

تقرر فى عام ١٨٠١ أن يلتحق بيرون بمدرسة كبرى، تتناسب مع مكانته. فوقع الاختيار على « هارو » ، الواقعة على قمة أكمة ، غير بعيدة من لندن ، وسط غابات ونهيرات . . وإذ يصعد بيرون التل ، مصحوباً بوكيله هانسون ، نحو معهده الجديد العالى ، فى منتصف الرابعة عشرة من عمره ، كان يحس بانفعال شديد : أى استقبال يدخره هذا العالم ، الساخر ، القاسى ، لولد أعرج ، يكاد يكون جاهلا ؟ . . لقد كان ، بلا شك ، « لورد بيرون » . . ولكن قيل له : إن أحداً لن يكترث بهذا المقام ، وإن سفير أمريكا قد أرسل ولده إلى هارو ، لأنه عرف « أنها المدرسة الوحيدة التى لا تحابى إنساناً لمكانته الاجتماعية » . وكان ناظر هارو ، لأكثر من خمسة عشر عاماً ، هو « الدكتور درورى » ، فى نحو الخمسين ، عرف بالشهامة والصرامة ، وجعل للمدرسة نفوذاً عظيماً . وكان ذكياً ، فصيحاً ، واسع الصدر ، يكرس جزءاً كبيراً من وقته للتحدث والتنزه مع تلاميذه . . فقدم هانسون إليه بيرون على أنه : ولد أهملت تربيته ، ولكنه موهوب . ولم يلبث الدكتور درورى أن حكم على بيرون : « سرعان ما اكتشفت أنهم عهدوا إلى بحصان جبلى متوحش جامح . . على أن فى عينيه نار الفطنة » . . وأدرك الدكتور درورى أن أشد ما فى حصانه الجديد : عاطفة الكبرياء ، وأنه يخشى ، أشد ما يخشى ، وضعه فى فصل دون سنه . . فقرر له دروساً خاصة ، وألا يوضع فى فصل قبلما يعمل مع زملائه . . فاطمأن التلميذ الجديد نوعاً ما . . ولم يكن استهلاله الدرس سعيداً . فمن المتعذر ألا يوجد ، بين ثلاثمئة وخمسين طالباً ، بعض الذين يسخرون من ذى عاهة ، خجول بفطرته ، ذى أنفة وزهو . ولا بد له من أحذية ، ذات شكل خاص ، تصنعها له أمه عند

حذاء مشهور فى لندن . فكان يستيقظ أحيانا فى الصباح ، فيجد رفقاءه قد وضعوا حذاءه فى حوض ماء . . ولعله كان يستطيع أن يخفف من غلوائهم واندفاعهم فى السخرية منه ، لو أنه كان أكثر تسامحاً واستسلاماً . ولكن كبرياءه كانت تحول بينه وبين الخضوع . . وهو منذ نعومة أظفاره متشبع بحب الثورة الفرنسية ، يعبد نابليون بونابرت ، جندى الجمهورية . . فجاء معه إلى المدرسة بتمثال صغير له ، تحدى به كل هؤلاء الشبان الإنجليز الوطنيين ، الذين كانوا يرون فى نابليون عدو بلادهم . . ودافع عنه باليد واللسان . . وحملته عاهته على الخوف من الزراية به ، فترفّع ، وتجبر ، وتناقر ، وتشاجر ، وتضارب !.. وكان هذا الفتى الساحر المحيا ، النجل العينين ، الطويل الأهداب ، ذو الشعر الأشقر الأحمر ، متحمساً فى كل ما تصدّى له من درس وبحث ، أو نضال ونزال . . وكان واسع الاطلاع ، غزير المعرفة ، وكان كسولا . .

وكان أول غزواته المدرسية : امتلاك فؤاد ناظره ، الدكتور درورى ، الذى أدرك أن هذا الجواد الأصيل ، لا يقبل لقيادته اللجام ، ويرضى بخيط من حرير ، ففعل . . وفازت رقة ناظره ، فتعلق بيرون به . فكان أول شخص له عليه سلطان ، ووجد أنه قاس عادل معاً . وكان أحوج ما يكون إلى العدل والإنصاف .

وبعد الأستاذ ، جاء دور الرفاق . فقد كان ظرفه مزيجاً مدهشاً من الشجاعة التى لا حد لها ، قولا وفعلا . وليس فيه من الخسة ذرة . وهو عاجزاً عن الكذب ، ولا يتهيب قط نزالا . كانت الفروسية مطبوعة فيه .

وكان من رفاقه روبرت بيل ، الذى صار فيما بعد من أكبر ساسة الإنجليز . فحدث مرة أن فرض أحد الطلبة « الكبار » على بيل جزاءً ، وبدأ يوقع عليه العقاب ضرباً . فلما برّح الألم بالصغير بيل ، وكان بيرون عاجزاً عن ضرب « الكبير » ، تقدم ، وعيناه تدمعان ، وصوته يرتعش من الجزع والاستنكاف ،

وسأل الكبير : « كم ضربة تريد أن تضربه ؟ » . فسأله : « وما شأنك أيها الوغد الصغير ؟ » . فأجاب بيرون : « لأننى ، إذا سمحت ، أريد أن أتحمل نصف العقاب » !

هذا ، ومثله ، كان كفيلا بأن يظهر رفاق بيرون على أنه من معدن نقى . ورغم عجزه البدنى ، برز فى اللعب ، وأحب السباحة . ففى الماء يختفى قصوره . وقد ولد متمرداً شجاعاً ، فأحب المخاطرات ، وبذّ فيها .

وظل الجواد الجبلى يشد خيط الحرير حتى انقطع . وكان لا يتمالك اندفاعات وحشية ورثها من أسلافه الأسكتلنديين . . « كانت يده مفطورة على الشر » . . وكان أحياناً يدهش من فعال ارتكبها . . يصعد الدم إلى رأسه ، فيضرب ، ويكسر ! . . كيف يقاوم ذلك ، وهو بيرون ! . .

وكان يحب الوحدة ، فيصعد التل ، فى عناء ، وهو يظلع ، ليجلس على قبر مجهول ، تحت شجرة باسقة ، يطالع ، وينظم . وكانت تلك المقبرة المنفردة تجتذب بيرون . وفكرة الموت تقلقه . فقد طالما روّع فى طفولته بذكر النار وعذابها . يظن أن الموتى يرقدون هادئين ، ولا يحلمون ، تحت أوراق الشجر التى يداعبها النسيم . وقد جاءه الآن نبأ وفاة بنت عمه الجميلة « مرجريت باركر » فى الخامسة عشرة . تلك التى هام بها يوماً ، ولم يجد لجمالها صنواً . ففكر فى عينيها السوداوين ، وكيف أغمضت عليهما أهدابهما الطويلة ، ورقدت فى تابوت ، ودفن تحت التراب جسدها الرقيق الشفاف ، الذى طالما أحب النظر إليه . .

وكان التلاميذ يشيرون ، من بعيد ، إلى بيرون ، وهو جالس على القبر الشاهق ، كأنه اتخذه له عرشاً . . وكان يعرف أنه يدهشهم . . وليست الدهشة بعيدة عن الإعجاب . . لقد كان يمازج حزنه دلال وخيلاء . . وكان يلابس حزنه شيطان الشعراء ! . . .

٦ ـ نجمة الصباح

فى أبريل ١٨٠٣ استأجر « اللورد جراى دى روتين » ، وهو شاب وجيه ، فى الثالثة والعشرين ، قصر نيوستيد ، لخمس سنوات . . يبلغ بعدها بيرون سن الرشد فيسترد ميراثه . واحتفظت مسز بيرون بمسكنها فى نوتنجهام ، إجابة لرغبة ولدها ، الذى أراد أن يحتفظ بمسكنه قرب قصره العزيز عليه . ولكن ما حلت إجازة الصيف ، حتى دعا اللورد جراى : بيرون ، ليقضيها فى نيوستيد ، فلبى الدعوة ، مسروراً بالخلاص من البقاء مع أمه . وكان القصر على حاله المهملة ، التى تفوح حزناً وابتئاساً ، وهى الحال التى تروق بيرون . . يستعيد فى جوها ذكر أسلافه ، الذين ارتكبوا الويلات ، ولقوا من دهرهم الويلات . .

أما ما طاب له ، فى تلك الأجواء ، فهو جوار قصر أنسلى ، توأم نيوستيد ، الذى تسكنه الآنسة ماريان شاورث ، حفيدة مستر شاورث ، الذى راح ضحية المبارزة المشهورة المشئومة . تعرف بيرون بهؤلاء الجيران الأقرباء فى لندن ، وكان الزمن قد فعل فعله ، وجر ذيول النسيان على دماء جفت من زمن مديد . . فما كانوا ليحملوا ضغناً أو حفيظة للوريث الذى لايتجاوز الخامسة عشرة ، وما كانت ماريان لتؤاخذ بهذه الجريرة القديمة فتى جميلا ، يبدو عليه افتتانه بجمالها . . كانت فى السابعة عشرة ، ذات محيّاً هادىء ، وشعر مفروق ، وجسم مقسّم ، كالغصن الرطيب . . وهى ، عن يقين ، لم تر فى هذا الطالب العليل ، ولو كان لورد بيرون صاحب قصر نيوستيد ، زوجاً خليقاً بماريان شاورث ، صاحبة قصر آنسلى . . بيد أنه تلميذ خيالى ، قرأ كثيراً ، فمعه لايجد الضجر سبيلا إليها . وكانت هى ، بنشأتها ، بنتاً وحيدة فى هذه الحديقة الشاسعة : ساذجة ، تجهل الحياة . . فكيف لها أن تعرف مدى الضر من تشجيع هذا الهوس البادىء ، بله الهوى ؟ . . ثم ما الضير فى أن يحس الشباب

العواطف ؟ لقد تقبلت ماريان شاورث ، وشجعت ، راضية مرضية ، هذا العاشق المفتون ، الذى اندفع يكوّن لنفسه قصوراً خرافية من الأحلام . . أو ليس هو قارئاً يدأب على مطالعة القصص والمآسى ؟ . أو ليست هذه المغامرة أجمل ما فى الدنيا ؟ . . هاهم أولاء آل بيرون وآل شاورث ، وقد فرّقهم قاتل وقتيل ، سيجتمعون على يدى بيرون وماريان ، مثل روميو وچولييت سواء بسواء ! ؟ حقاً . إنها تكبره قليلا ، بسنتين . . ولكن ما هما السنتان فى عمر الحب والزواج ؟ . . أو ليس الممشى الطويل ، الذى يجمع القصرين ، يسمى « ممشى العرس » ؟ . . إذن فليتفاءل بيرون ، وليظن خيراً ، وليقرّ عيناً ! . .

ولما عزموا على بيرون بغرفة فى قصر آنسلى ، حتى لا يتكلف مشقة العودة ليلا إلى نيوستيد ، تمنع ، وهو راغب . . وقال يمزح ، ويجمع بين الجد والهزل : إنه يخشى أن ينزل أسلاف شاورث من إطارات صورهم ويطردوا حفيد بيرون . . ثم جاء مساء قال فيه جاداً لماريان : « أتعرفين أنى رأيت ، الليلة الماضية ، شبحاً يعترض طريقى فى المروج ؟ . . » . فابتسموا . وعزموا عليه بالبقاء معهم ، ومن يومها صار يقضى فى آنسلى لياليه كلها . . .

يا للعطلة البهيجة ! . أن يحب بجنون ، وأن يعيش ، تحت سقف واحد ، مع من يحب ! . . وأن يراها فى الصباح على الشرفة ، وما زال الكرى يداعب جفنيها ! . وأن يركب وإياها جوادين إلى البرية ! . . وأن يجلسا جنباً إلى جنب على الربوة التى فى آخر « ممشى العرس » تظللهما الأشجار العالية ! . وأن يشرفا على الكائنات من عل ، فتنبسط أمامهما المروج الخضراء ، ويتصاعد نحوهما الدخان من سقوف الفلاحين ؟ ! . . ماريان تنظر إلى هذا الوادى الخصيب البهيج ترصعه الشمس . . وبيرون ينظر إلى ماريان . . لا يرى فى الكون سواها . محيّاها وحده هو الجدير بالتأمل والإعجاب .

نظر إليها ، وتأملها ، إلى حد لم يعد يستطيع معه نسيانها . إنه لم يعد يتنفس

إلا من صوبها ، ولم يعد يوجد إلا من خلالها ! . إنها أصبحت بصره ، لأن نظرته لم تعد ترى إلا بعينيها ! . . إنه يدعوها « **نجمة الصباح** » . . لم يبح لهـا بالحب ، ولـكن للحب ألف لسان . . إنه كان أحياناً ، فى خلال نزهاتهما فى النهار ، ينفر الدم فى عروقه ، إذا مست يده يدها ، أو لمس جسمه جسمها ! . .

أما النزهة ، ذات ليلة ، فكانت أليمة . كان ذلك فى مدينة ساحلية ، يطيب الرقص فى لياليها الغناء . وكان بيرون ، لعرجه ، يحتقر الرقص احتقاراً يبلغ الحقد . فاضطر إلى البقاء جالساً ، بينما راحت ماريان ترقص مع أى كان . . فلما قادها مراقصها المجهول إلى مجلسها ، قال لها بيرون بمرارة : « أرجو أن تكونى قد أحببت صاحبك ! . . » . وفى اليوم التالى ، أخذ بثأره ، لأن البلدة الساحلية كانت على مقربة من ضياعه وأملاكه فى روشديل ، فتمتع بأن أظهر حبيبته على الاثنين والثلاثين ألف فدان ، التى سيضع يده عليها يوم يكسب قضيته ! . .

وكانت ماريان شاورث تحزر مايدور بخلده ، وأنه يخفى عنها حباً عظيما ، ورغبة ملحّة فى امتلاك فؤادها . . ولـكنها لم تعده أكثر من أخ لها . فقد كان قلبها هائماً برجل يدعى چاك مسترز ، رياضى ، صياد بارع ، وفارس مغوار ، يكبر بيرون بأحد عشر عاماً . غير أنها شجعت ، مع ذلك ، حب بيرون ، خاضعة فى ذلك لضعف المرأة ، التى يرضيها التعلق بهـا ، ولو من رجل عاجز ، دونها . إنها ليرضيها شعورها بالاستيلاء على عقل ، والتحكم فى قلب . . وأعطته : صورة ، وخاتماً . . ولم يكن بيرون الصغير المسكين ليعوزه مثل هذا الإكرام ليجن جنونه . . ولو أنها أرادت إبعاده عنها لمـا استطاعت . . بل إن حادثاً حدث ، ظل يعده إلى آخر حياته كأشد مذلة آلمته بسبب عاهته ، ومع ذلك لم يكف ليبعده عنها ويصرفه . . . حدث ، ذات مساء ، فى آنسلى ، أن صعدت ماريان إلى الدور الأول ، وكان بيرون ما زال فى ردهة الطابق الأرضى ، فسمعها تتحدث إلى وصيفتها بأعلى السلم ، وتقول : « أتزعمين

أنى أكترث لهذا الولد الأعرج ؟ » . فكانت هذه الجملة منها كطعنة نجلاء فى صدره . فارتمى فى غياهب الظلام ، آبقاً من البيت الذى شهد حبه وذله ، وجرى ، لايلوى على شىء ، حتى نيوستيد . .

حزنٌ ، وغضبٌ ، ورعبٌ ، ورغبةٌ فى الموت ، ورغبةٌ فى الانتحار ، وأشد ما يمكن من العواطف الثائرة : تحيط به ، وتحاصره ، سواد الليل . .

وفى اليوم التالى عاد أدراجه ، ولم يشر قط إلى ما سمعه . . إنه ، فى الخامسة عشرة ، يشعر بتلك الحاجة المروعة إلى مخلوق ، يؤثر أن يتحمل معه كل شىء ، ولا يكف عن لقائه ، ومشاهدة محيّاه ، وسماع صوته ، ولمس يده . . لقد كان عاشقاً عشقاً مبرّحاً جنونياً ، إلى حد أنه ، فى نهاية شهر سبتمبر ، وقد انتهت عطلته المدرسية ، أبى العودة إلى هارو . . وألحت عليه أمه فى الرحيل ، فهى لا تطيق بقاءه فى عشرة آل شاورث . . فكتب إليها : [أعرف أنه قد آن أوان العودة إلى هارو . وهذا ما يجعلنى شقياً ، ولكننى سأطيع . وكل ما أسألك إياه ، وأتوسل إليك أن تسمحى لى به ، هو يوم واحد ، وأقسم لك بشرفى أنى سأسافر غداً . بعد الظهر ، أو مساء . . وإنى آسف لعدم ارتياحك لرفقائى ، الذين هم مع ذلك أكرم أهل هذا الاقليم مكانة وأعزهم نفراً . . وهم من درجتى سواء بسواء . . ولكنى أرجو أن تدعى اختيارى لنفسى . . وما كنت لأشغل أبداً بالناس الذين تلقين ، فرجائى إليك ألا تشغلى بأصدقائى . .]

يالها من رسالة حازمة ، إلى حد غريب ، من قلم غلام فى الخامسة عشرة ! . . فسمحت الأم باليوم الذى طلبه . ولكن بيرون لم يسافر ، لا فى الغداة ، ولا فى الأسبوع ، ولا فى الخمسة عشر يوماً التالية . فكتب الدكتور درورى ناظر هارو ، فى ٤ أكتوبر ، إلى الأستاذ هانسون ، محامى بيرون ، يسأله عما أصاب تلميذه . فبعث هانسون بالخطاب إلى مسز بيرون ، فجاءه الرد التالى :

[إنى أدرك الباعث على دهشتك ، أنت والدكتور درورى ، بسبب عدم رجوع بيرون إلى هارو . ولكن الحق أنى لم أستطع حمله على العودة إلى المدرسة ، رغم ما بذلته منذ

ستة أسابيع ، بأقصى جهدى .. وهو لا يشكو مرضاً إلا الحب ، الحب اليائس ، وهذا عندى أشنع الأمراض . . وقصارى القول : أن الصغير مخبول حباً بالآنسة شاورث ، وقضى إجازته كلها فى قصرهم بآنسلى . . ولو أن ولدى كان فى سن مناسبة ، وكانت الآنسة غير مخطوبة ، لكانت هذه العلاقة هى آخر ما أريده ارتباطاً بها . . ولا صبر لى على هذا كله ، ولا راحة لى فيه . . .]

وظل بيرون متغيباً عن المدرسة ، خلال الأشهر الثلاثة الأولى . . وعاد إليها فى يناير ١٨٠٤ . . ولم يكن جد سعيد خلال هذه الشهور الثلاثة ، التى وقف فيها التنفيذ . . فقد اختلف فيها مع مضيفه ومستأجر قصره : لورد جراى ، لأسباب مبهمة خطيرة ، أبى ، فى حياء غاضب ، أن يبوح بها لأمه ، أو لمحاميه هانسون .. وهذا الشجار حال بينه وبين العودة إلى نيوستيد . . أما غرامه بماريان شاورث ، فقد انتقل من سيء إلى أسوأ . ضاق الجو بينه وبينها : بالشكوك ، والريب ، والغيرة . . عبثاً يفرض المحب المحتقر نفسه على الحبيبة .. أيكون إذن هكذا ، هذا الحب ، هذه العاطفة التى زعمها أجمل ما تكون ؟ . . .

٧ - هـــذه الأم

فقد قصر نيوستيد ، ثم قصر آنسلى : جاذبيتهما عنده . ولاحت له هارو ، على ثقلها ، أشد احتمالا . . ولم ينقم عليه الدكتور درورى لهربه ثلاثة أشهر من المدرسة ، فقد اختاره من بين التلاميذ القلائل الذين يدرس لهم بنفسه اليونانية واللاتينية . ولم يعد بيرون تلميذاً « تابعاً » ، بل متبوعاً . . جاء دوره ، وصار من حقه أن يكون له « عبيد » ! . . لكنه كان أبعد من أن يعاملهم كما كان يُعامل . فأحاط نفسه بالولدان الرائعى الجمال ، ليحمى من كان منهم صغيراً أو ضعيفاً . كان ذلك يرضى كبرياءه ، ويقصى لبانته من الحنان . وكان مختاروه : لورد كلار ، و دوق دورسيه ، و لورد دلاور ، ثم الفتى ونجفيلد . . يدفع عنهم

الأذى ، باليد واللسان . فازداد نفوذه المدرسى . واختير ، فى « يوم الخطابة » ، وهو من أكبر أعياد مدرسة هارو ، ليلقى الخطاب اللاتينى . واشتهر بين الجميع بأنه شاعر . وأحاطه المعلمون والطلاب بالإعجاب والحب . . فلماذا أحبوه ؟ . . ألأنه صديق صعب المراس : إخلاص دقيق ، عميق . . طبع متغير ، متقلب ، قلق ، مقلق ، أشبه ما يكون فى هذا ببعض النساء ؟ . . خاب فى الحب ، فبحث عن ملجأ له فى عاطفة أخرى ، اندفع فيها كعادته بعنف . وتجلت فيها : غيرته ، وحرارته ، ومغالاته . وكان يتبادل وصاحبه لورد كلار : الرسائل ، مرات عدة ، فى اليوم الواحد . ولامه إذ كتب إليه مرة : « عزيزى بيرون » ، بدلا من « يا أعز عزيز » ! . . وعنفه إذ أبدى حزنه لسفر زميلهما اللورد رسل إلى أسبانيا ! . .

وكان كذلك لورد كلار يبادله : محبة بمحبة ، وغيرة بغيرة . . وكانت هذه الغيرة تذكر بيرون بما أصابه من « نجمة الصباح » . . فلا يزال يحلم بماريان آنسلى ذات العينين النجلاوين . مزيج من المرارة ، والأسى ، والاشتهاء . أواه ! . . ليته يقتل ، أو ينتزع من قلبه تلك العاطفة الجامحة الأليمة ! وبحث عن المؤلفين الذين يتهكمون على الحب ، وينفرون منه ، ويستهترون به . وسر وزملاؤه بقراءة الشعر الإباحى للشاعر توماس مور . . « أجل . . هكذا ينبغى أن يكون العشق : شهوة بلا عاطفة ! . . »

ولما جاء عيد الفصح ، نظر إلى العطلة المدرسية بلا ابتهاج . فهو على خلاف مع لورد جراى ، فلا يستطيع الذهاب إلى نيوستيد . ولم يبق له إلا اللحاق بأمه . وكانت قد غادرت نوتنجهام ، وسكنت بلدة « ساوثويل » الصغيرة ، الواقعة على بضعة أميال من نيوستيد . واستأجرت بيتاً بسيطاً ، لا تكاد فيه تختلط بخيار الناس ، الذين اكتفوا برؤيتها مرة واحدة ليحكموا بأنها فظة ،

مضجرة ، لاتطاق . غير أنها وجدت بعض الكرام المتسامحين ، كأسرة پيجوت ، التى تسكن بيتاً كبيراً يقابل بيتها .

وأدرك بيرون ، الشديد التحرج ، الشديد الأنفة ، الأثر السيء الذى أحدثته أمه فى الطبقة الراقية المحدودة ببلدة ساوثويل . فأحس كراهية مزدوجة نحو أولئك الذين يسكنون القصور ويحتقرون أمه ، ونحو أمه التى استحقت احتقار أرباب القصور . وبقدر ما كان يمشى ، فى أرض المدرسة ، مرحاً ، كان يخشى ، ويخجل من المحيط الجديد . يخشى ، أكثر من كل شىء ، بسبب عاهته ، أن يمشى أمام قوم لم يرهم ولم يروه قط من قبل . كان يرتاع من مفاجأتهم بعاهته ، ويرتاع من شفقتهم عليه لهذه العاهة . زد على هذا الشعور بالنقص الجسدى : شعوره بنقص أمه الروحى ، وشعوره بالبغضاء نحو النساء ، لما أصابه فى غرامه الباكر . كان ، إذا ما قدموه إلى إحداهن ، يعصف به الاضطراب إلى حد لا يسعه معه ، لكى يتمالك نفسه ، إلا أن يردد : « واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة . . . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة . . . » بصوت منخفض ! . .

كان يعبدهن ، ويمقتهن . يمقتهن لأنه يعبدهن . آه ! . . ليت له أن يغزو هذه المخلوقات الغامضة ، ويذلها ، ويجعلها تتألم . . وينتقم لنفسه ! . . ولكن كيف ؟ . . إنه أعرج ، فقير ، يظن نفسه أضحوكة . . . ومع ذلك تمكنت فتاة من ساوثويل ، هى « أليزابيث بجوت » ، من أن تجعله يستأنس ، ويألف عشرتها ، ويطيب مقامه فى أسرتها . .

ثم إنه كان قد اتخذ ، منذ بضعة أشهر ، كاتمة أخرى لسرّه . هى « أوجستا » ، أخته من أبيه . وكانت ، منذ ستة عشر عاماً ، فى كفالة جدتها لأمها الليدى هولدرنس ، التى قطعت كل صلة بين أوجستا ومسز بيرون . ولهذا لم تر

الفتاة قط أخاها ، هذا الطفل « بيبي بيرون » ، الذى طالما تحدثوا عنه أمامها ، ولما ماتت الليدى هولدرنس فى ١٨٠١ عاشت الفتاة فى أسرتها النبيلة ، متنقلة بين أقاربها وابن عمها لورد « كارليل » ولى أمر بيرون . وحاولت مسز بيرون أن تعيد صلاتها بأوجستا ، التى يبهرها منها بروزها فى المجتمع الراقى ، تحن إليها ، وقد تعهدتها طفلة ، وهى اليوم شابة . . فكتبت إليها ، تسألها نسيان القطيعة الماضية ، التى لم يكن لكلتيهما دخل فيها ، وتعرض عليها استعدادها لخدمتها : [وإنى أكون سعيدة بذلك عن نفسى ، وعن ولدى الذى — وإن كان لا يكاد يعرفك — يحدثنى عنك دائماً بحنان]

فطابت نفس أوجستا بلقاء أخيها ، الذى سرّه بدوره أن يكتشف فى أسرته ، غير أمه القطيعة ، أختاً ، صديقة ، تكبره قليلا (كانت فى العشرين ، وهو فى السادسة عشرة) ، شابة ، رشيقة ، أنيقة ، رقيقة الطباع ، تشبه من كل الوجوه ما تمناه فى أسرته ولم يجده . وكان إلى الآن لم يكتب إليها قط . . ولكن ما بدأت عطلة عيد الفصح ، حتى اعتذر إليها، وأضاف : [سأبذل الآن كل جهدى ، لأقابل مكرماتك . وأرجو فى المستقبل ألا تعدينى أخاً فقط ، وإنما صديقك ، الحبيب ، وإذا استلزم الأمر ظهيرك *Your Protector* . واذكرى يا أختاه العزيزة جداً ، أنك أقرب الناس الىّ فى هذه الدنيا ، سواء بروابط الدم ، أو بوشائج المحبة ، فثقى بأخيك ، إنه لن يخون قط ثقتك]..
ويهنئها بخطبتها لابن عمها الكولونيل چورچ لى *George Leigh* نجل « مسز لى » صاحبة البيت الذى سكنه الكابتن چون بيرون فى ڤالنسيين ، عند ما هرب إلى فرنسا ، كما ذكرنا قبلا . .

وراقت للشابة أوجستا رسائل أخيها . وكانت رسائله فعلا تفيض عذوبة وحناناً ، مليئة بالعواطف الرقيقة ، واعترافات الطفولة : [أختاه الحبيبة . . . أختاه العزيزة جداً أبداً . . إن أعظم مسراتى أن أكتب إلى أوجستاى ...]

ثم تجرّأ لحدّثها عن رأيه فى الحب . . فأشعار توماس مور ، وصدود ماريان شاورث ، قد جعلا منه : متشككا حذراً . . وروى لها : أنه ذاهب إلى مرقص فى ساوثويل ، وهو ينوى أن يهيم عشقاً بامرأة ما : [سيكون ذلك ملهاة لقطع الوقت ، وسيكون لهذا ، على الأقل ، طرافته . ثم ينال اليأس منى بعد أسابيع ، فأقتل نفسى ، وأخرج من الدنيا بضجيج وعجيج] . . وإذ أجابت أوجستا بأن الحب هو عاطفة جد خطرة ، وأنها هى تحب فارسها وخطيبها ، إلى حد الألم ، رد عليها بقوله : [إنى ليشقينى ، يا أختاه العزيزة ، أن أراك شقية . . ولكن اغفرى لى إذا هممت ، على رغمى ، بالضحك منك ، لأن الحب ، فى رأيى المتواضع ، هو سخافة تامة ، وطنطنة مديح وإطراء ، وهزال خيال ، وخلب صنعة ! . . أما عن نفسى ، فلو أن لى خمسين خليلة ، لنسيتهن كلهن جميعاً ، فى خمسة عشر يوماً ، وإذا ما خطرت لى بطريق الصدفة إحداهن ، فسأضحك منها ، كما لو كنت فى حلم ، وأبارك نجمى الذى أنقذنى من شيطان الحب الأعمى]

وهكذا حل التهكم اللاذع ، عنده ، محل الغرام الخائب ! وكذلك صارت أوجستا موضع سره ، يشكو إليها ماناله على يد أمه ، ذات الطبع الشيطانى ، يزداد طبعها على الأيام شراسة . . حتى صار يحتقرها ، ويعيش معها خلال العطلة الدراسية ، ليزداد كراهية لها . وكان صريحاً جداً كسلالته كلها ، لايعرف كيف يخفى مشاعره ، مما زادها اضطراماً واحتداماً . فلا يمضى يوم إلا وينشب جدال وخصام . فتتجاوب فى قاعات البيت الشتائم والسخائم ، وتتطاير الأوانى والصحون . وكانت مسز بيرون تقول إن ولدها وحش ، يمالىء عليها أعداءها : كاللورد كارليل ، والمحامى هانسون . . ويخاصم أصدقاءها : كاللورد جراى (مستأجر قصر نيوستيد) . . وكان بيرون يفترض غرامها بذلك الشاب :

[إن لديها فكرة مدهشة عن حسنها وجمالها . وتبلغ ست سنوات من عمرها ، وتدعى أنها كانت فى الثامنة عشرة عندما ولدت ، فى حين أنك تعرفين ، يا أختى العزيزة ، كما أعرف ، أنها كانت بالغة رشدها عندما تزوجت أبى ، وأنى لم أولد إلا بعد ذلك بثلاث سنين] .

وربما كان يسلم جدلا ، ويعفو عن ضعف امرأة نَصَف ، تجرى بها السن ، لولا أنها تسبه ، وتلعن رفات أبيه ! . . .

[هل على أن أدعو مثل هذه المرأة : أمى ؟ . . ألأن قانون الطبيعة أعطاها سلطاناً على ، أخول لها أن تطأنى بقدميها ؟ . . يا للشل الذى تضربه لى ! . . أرجو الله ألا أحتذيه أبداً ! . . إننى لم أقل لك كل شيء يا أوجستا ، ولا أستطيع . . إننى أحترمك كثيراً ، كامرأة] .

وحقيقة الأمر أن مسز بيرون كانت تعسة ، فقد ترملت فى السابعة والعشرين . . وتحطمت بذلك حياتها ، ونبذتها الطبقة الإنجليزية الراقية ، وناصبتها العداء . وذلك لكى تسهر على مصالح ولد لم يدرك تضحيتها ، ويكره بلدة « ساوثويل » التى جاءت إليها من أجله . ويصرح بذلك ، لأنه فظ ، غليظ القلب ، مثل أبيه ، ومثل عمه السفاح ، ومثل آل بيرون جميعاً . وكانت مع ذلك تحس قدرتها على التفانى ، هذه الأسكتلندية ، المتقشفة ، الصلبة . وقد سبق لها أن أعطت كل شيء لزوجها . وما كانت لتضن بشيء على ولدها ، هذا الفتى الأجنبى ، الشامخ بأنفه ، المغالى ، الذى نزع نفسه منها ، واستباح الحكم عليها ! . فظلت تفقد شيئاً فشيئاً ولدها ، كما فقدت قرينها . ولكنها ، إزاء هذا العيش بلا أمل ، تجردت من حنانها ، وطار صوابها ، ولم يعد ينجدها إلا صياحها ! . .

ومع ذلك كان كلاهما يشعر ، بعد شجارهما ، بالأسف والندامة . . وبيرون يحاول التماس الأعذار لأمه يوماً ، ثم يعود فينحى عليها باللائمة أياماً . حتى رجحت عنده كفة مساوئها . . . وكان لهذه الحالات المتوالية ، المتضاربة بين السماحة والسخط ، أثرها فى نفس فتية كنفسه . فاعتادها . واكتسب من أمه ، على رغمه ، عنفها ، وجموحها ، وشذوذها ، واندفاعها .

[هذه يا أوجستا هى أمى . . أمى ؟! . . إننى منذ اليوم أنكرها ، وأتبرأ منها ! . .]

وعملت أوجستا جهدها للتوفيق . فكتبت إلى هانسون المحامى رسائل عديدة تدل على الفطنة والاتزان ، لتقفه على ما يجرى ، وتبدى إشفاقها من أن تكون

مسز بيرون جعلت تعاقر الخمر ، وتستحسن أن يقضى بيرون عطلاته المدرسية القادمة بعيداً عن أمه ، عند هانسون نفسه مثلا ، إذا شاء.. وخاطبت فى ذلك صديقها وابن عمها لورد كارليل ، ولىّ أمر بيرون ، الذى رضى بأى حل ، على شريطة أن يكون هو أيضاً بعيداً عن مسز بيرون ! . .

وقبيل انتهاء الإجازة ، جاء أمه خطاب من أسكتلندا ، ينبئها بزواج مارى دَف ، بنت العم الجميلة ، التى أحبها بيرون يوم كان فى التاسعة . فذكرت أمامه هذا الزواج بخبث . وأحست لذة خفية ، وهى تجرح هكذا ولدها النافر منها . . غير أن رد الفعل روعها . كيف كان لها أن تتصور عاطفة صبى لم تخمد بعد كل هذه السنين ؟ . . فلما استفاق بيرون من تشنجاته ، واستجم من نكسته ، التى أزعجت والدته ، تأدبت ، ولم تعد تشير إلى هذا . وقصرت روايته على معارفها ! . .

وفى هذه السنة نفسها ، راح بيرون يودع صاحبته : ماريان شاورث . . فقد كانت قصتهما ، على جمالها ، لاتعد عندها إلا عبثاً . . كانت إجازة الفتى الأعرج تروّح عنها . لكنها ، وكل الناس يعلمون ، خطيبة چاك مسترز . . فحدثها فى هدوء كثير . فقد تعلم كيف يتمالك ، وكيف يتهكم : « لعلك وعساك ، إذ أراك المرة القادمة ، تكونين سيدة ! . . » . . قالت : « أرجو ! . . . » . . وهو رد قاس ، ولكن فى محله ، ما دام من جنس السؤال الساخر . وكانت تعلم أنه أحبها ، وشقى بحبه . فتسامحت . وتبادلا وداعهما بفتور وابتسام . . وقفز على صهوة جواده ، واجتاز ، للمرة الأخيرة ، باب قصر آنسلى . . .

وتزوجت ماريان فى أوائل السنة التالية . ولو أن بيرون كان فاجراً أصيلا ، لأصبح صديق الزوجين ، وانتظر ثأراً له ، مما تأتى به الأيام . . . ولكنه أحب ماريان شاورث حباً مبرحاً خالصاً ، أخلص من أن يجعله يداور ، ويتحول إلى « المكيافيلية » العاطفية . . وربما لم يعرف أحد ، غير أوجستا ،

التغييرات الخطيرة التى أحدثها هذا الزواج فى نفسية بيرون (ومن يدرى . . فلعل أمه المسكينة أيضاً تحزن ، وتريد أن تؤاسى ، ولا تعرف إلا أن تجرح) .

إن حرمانه من ماريان ألقى به : « وحده ، فى بحر لاشاطىء له . . » .

ولما رأت أوجستا أخاها فى ١٨٠٤ ، ألفته فتى يتلهّب حماسة وحناناً . ولما عادت فرأته فى ١٨٠٥ ، كانت طباعه قد تغيرت تماماً ، وتبدل خَلقاً آخر ، بحيث لم تكد تعرفه .

٨ – السلطان

كان بيرون ، حين عاد إلى هارو ، لقضاء سنته المدرسية الأخيرة ، مراهقاً ، قلقا ، منقسماً على نفسه . . وكان سعيداً بعودته إلى معهده ، مثله مثل كل الخجولين ، يحب العيش على وتيرة واحدة ، كل ما حوله من الأعمال محدد منظم ، وكل ما حوله من المخلوقات معروف مألوف . .

هناك ، حيث لا تلفت النظر القدم العرجاء ، وحيث تدعم نفوذه ، وانبسط له السلطان ، حفر اسمه : « بيرون » على جذوع أشجار البلوط العتيقة ، بين أسماء الذين كانوا مثله : طلاباً ، ثم صاروا عظماء . . . وحفر اسمه على شغاف القلوب . . وكانت قمة تل هارو ، التى يعلوها ، وينظم الشعر جالساً فوقها ، وهى تشرف هكذا على ساحات المدرسة ، تلعب فيها الفرق الرياضية المتنازعة ، أشبه ما تكون عنده بقمة جبل إيدا *Ida* ، التى تعلوها الآلهة ، فى شعر هوميروس ، تتأمل : فعال البشر ، ونضالهم ، وحروبهم . . . غير أن للآلهة أنفسهم أهواءهم . فظلت الصداقات العنيفة ، وألوان الغيرة ، تعذب بيرون ألواناً . وأصبح دلاور هو الأثير عنده . ولكن كلار غيور منه ، ومن سواه أيضاً ! . . لم يكن دلاور يقدر الصداقة قدر بيرون لها . فبيرون متأهب دائماً

لمنح حياته ، وتضحية كل شيء من أجل صحبه ، ويدهشه أن يلقى من عواطف الآخرين كل هذا الفتور . فينظم كل صباح شعراً ، فى : العتب ، أو الشكوى ، أو الاحتقار ، أو الملام ، يوجهه ، هذا الإله الشاب ، إلى رعاياه الصغار ، الذين يحبهم أكثر مما يحبونه ! . .

ثم اعترض حادث جلل هذه العصبة المرحة ، التى كانت تتلقى الرسائل الشعرية ، وتدهش لها ، أو تتضاحك منها ، ثم تنساها . . كان هذا الحادث كفيلا بأن يهدد سلام كلية هارو ، وهناء بيرون . . فقد آن اعتزال الدكتور درورى مهام النظارة فى عيد الفصح . وكان كثيرون مرشحين ليخلفوه . منهم أخوه مارك درورى . وأشد منافس له چورچ بتلر ، وهو شاب من علماء الرياضة البارزين . ولم يكن الطلبة يعرفون كفاية هذا المرشح أو ذاك . . بيد أن اسم درورى كان وحده كافياً لتحزبهم وتعصبهم له . فتكوّن حزب درورى ، وبيرون بالطبع على رأسه ! . . وقامت المظاهرات التى اتخذت شكلا عنيفاً . ورأى بعضهم قتل الدكتور بتلر ! . . واقترح البعض أن يلغم بالبارود طريقه إلى مكتبه ! . . لولا أن أحدهم ، چيمس ريتشاردسون ، توسل إليهم ألا يفعلوا ، حتى لا تنهار الجدران التى حفرت عليها أسماء آبائهم وأجدادهم ! . .

وفى تلك الأثناء ظهرت مواهب بيرون . كخطيب رائع ، وممثل بارع . ومن عجب أن أعرج مدرسة هارو كان سبّاحها الأول ، كما كان لاعباً ممتازاً فى مسابقة الكريكيت بين مدرسة هارو وكلية إيتون فى ١٨٠٥ ! . .

وكانت تلك آخر مراحله المدرسية ، فماذا اكتسب من هارو ؟ . . تذوقاً حاداً للصداقة ، ومعرفة بالشعراء ، ومعالجة للشعر . . وإن ظل ، لسوء الطالع ، جاهلا بألغاز الحياة المتضاربة . كان يرى : الرجال والنساء ، والشبان والشابات ، يقاربون ، برفق وحذر : شؤون الحب ، والبحث عن الحقيقة ، ومعرفة الله . أما هو فلا يرضى بأن يسلك غمار هؤلاء الحذرين.

أى مكان فى العالم إذن ينتظر چورچ غوردون : لورد بيرون ؟ . . أية مكانة ؟ مكانة السلطان ، عن يمينه شباب العظماء ، وعن يساره شباب الوجهاء . . وهو متربع على عرش ، كالآلهة ، فوق قمة تل هارو . .

إنه يوشك أن ينتقل إلى جامعة كمبردج . وهو حزين لهذا التغيير القريب . فهو فى هارو أمير الشباب ، بعيد عن ذلك العالم الخارجى ، المزعج ، الحقود كالعدو اللدود . . ماذا يرجو خارج المدرسة ؟ . . ماريان شاورث ؟ . . إنها لا تلبث أن تتزوج هذا الصيف . . النساء ؟ . . ألسن كلهن سواء ؟ . . ألسن كلهن على شاكلة هذه الحبيبة الكافرة بالحب ؟ . . هذه الأم الكافرة بالأمومة ؟ . . وهل ثمة بيت ينتظره ، أم جحيم ؟ . . وولىّ أمره الرقيق الأنيق : لورد كارليل ؟ . . هل تراه يود أن يراه ؟ . .

هذا الحصان الجموح بحاجة إلى أساتذة راسخين . وتحت قناع البشر الطبيعى فى فتوّته ، تتعانق الكآبة الخرساء وضروب الاشتهاء . وكانت فكرة الموت تراوده . فقد ماتت بنت عمه الجميلة ، كما مات بعض رفاقه الأحبة ، ورثاهم بأشعاره . لقد آن للبطل الشاب ، المتربع ، كالآلهة الخالدين ، فوق رابية هارو ، أن يتخلى عن تأملاته الحزينة ، وينزل إلى الأرض ، ويختلط بعذابات البَشر الفانين . . هل تراه سيعود يوماً ليحلم فوق هذا العشب : مكتبه فى شبابه وملعبه ؟ . . إنه لا يريد على لوح قبره إلا اسماً مجرداً ، وإنما اسماً مجيداً . .

كان ما يزال فى بداية شوط الحياة . . . ومع ذلك ، ما أسرع ما خطرت له راحة الأبد ! . . .

٩ — فى جامعة كمبردج

نزل بيرون فى كلية الثالوث : ترينيتى كولدج ، بجامعة كمبردج ، فى أكتوبر ١٨٠٥ . وألفى نفسه لأول مرة غنياً ، إذ أذن له المجلس الحسبى بمرتب خمسمئة جنيه سنوياً على حساب دخله . ولا يلبث أن يتخذ له جواداً ، ووصيفاً ، ويحس بالاستقلال ، وبنعمة الخلاص من ربقة أمه . فكانت له فى الكلية شقة صغيرة جميلة ، فرشها بأثاث فاخر . وكان حنينه الخفى ، فى الجامعة ، كما كان فى المدرسة ، إلى أن يصبح : قِبلة الأنظار ، وزعيم رجال . وكان طلاب الكلية جميعاً من نحو سنّه . فلا محل إذن بينهم لعاطفة الحماية التى يحب بسطها على الصغار .

وأدرك من الأيام الأولى أن الكلية مهد للفراغ والدعة . وكانت تلك الأيام ، قد ذاعت فيها وانتشرت ، فى انجلترا ، « موضة » شرب الخمر ولعب الميسر . فالضيف الذى لا يستطيع فى مأدبة عشاء أن يحتسى أكثر من زجاجتين ، يعد رفيقاً هزيلا ، لا نديماً كريماً ! . . يسمى « الشرّيب » عندهم : « رجل أربع زجاجات . . خمس زجاجات . . . » ! . . وكان لورد باغور ، ولورد دفرين ، كلاهما ، مشهوراً بأنه رجل ست زجاجات ! . . ولا يقل القمار عن ذلك شأناً . وكان لورد هولاند يعطى مبالغ طائلة لولده شارل ، البالغ من العمر خمسة عشر عاماً : « ليمكنه أن يتعلم اللعب بطريقة لائقة » ! . . وحدث أن خسر أحد هؤلاء الجنتلمن الشبان ، ذات صباح ، فى ناد للميسر ، سبعة آلاف جنيه ! ! !

وراحت كمبردج تقلد لندن . فالمطالعة والثقافة ، اللتان كان بيرون مشغوفاً بهما فعلا ، ولو بطريقة غير منظمة ، تسببان للطلاب الضيق والضجر . وكان بيرون يتأملهم أحياناً ، وهم يتناولون الطعام فى القاعة ، بعين الاحتقار العابرة : طلاب بلا شِعر ولا نثر ، ولا عظمة نفس ! . فأى شىء يجدون له فى الحياة طعماً ؟ ! النكات التافهة ! . . وهم ، إذ ينصرفون عن الطعام ، يجتمعون

فى غرفهم ، حيث يشربون ، وهم يلعبون ، إلى ساعة متأخرة من الليل . فبعث إلى وكيله هانسون ليرسل إليه ٤٨ زجاجة : دستة من أربعة ألوان خمر مشهورة : بورتو ، شرى ، بورجونى ، ماديرا . . ولم يكن بيرون يحب لعباً ولا شرباً . ومع ذلك انساق ، وحذا حذو رفاقه . وكان مصانعاً مسايراً .

وحدث يوماً أن أنقذ من الغرق فتى فى الخامسة عشرة يدعى أدلستون ، جميل الصوت ، فتعلق به . لأن ذلك النوع من الرفاق يروقه : كان الفتى أحدث منه سناً ، ودونه محتداً وثراء . فتسلط عليه ، وبسط حمايته ، بغير حساب . . وبادله الفتى محبة بمحبة . وصار بيرون ينظم فيه الشعر . . ووزع وقته بين : نظم القصيد ، وسماع الغناء ، وركوب الخيل ، والسباحة . واسترسل فى ذلك الكسل الروحىّ اللذيذ . . وإن كانت تلك الحياة الناعمة تكلف كثيراً !.. فما جاء شهر نوفمبر حتى تبين له أن معاش الخمسمئة جنيه ، الذى بدا له ملوكياً ، قبلما يجرب الحياة الطليقة ، هو معاش ضئيل لطالب يريد أن يعيش سيداً كريماً .

وكانت تجيئه فى آخر كل شهر « فاتورة » مطبخ الكلية المتضخمة دائماً ، لأن بيرون ، بدل أن يأكل فى قاعة الطعام ، يدعو أصحابه لتناوله فى غرفته . وكان قد ترك فى هارو ديوناً واجبة السداد . وفرش فى كمبردج شقته كما قلنا . فكتب إلى وكيله هانسون ليسأل المجلس الحسبىّ رفع مرتبه . وتغيرت علاقاته بهانسون ، فلم يعد الولدَ الصغير الذى يسأل المساعدة ، وإنما اللورد النبيل الذى يعامل وكيل أشغاله بترفع . . فرد عليه المحامى بأن معاشه يكفيه لو أنه عاش عيشة معتدلة . فهدد بيرون ، ساخطاً : بأنه ، إذا لم يمكنوه من سداد ديونه ، سيفاوض المرابين فى عقد قرض . . ولم يكن يصعب على شاب يملك نيوستيد وروشديل ، ولا يلبث أن يبلغ رشده ، الحصول على المال بربا مئة فى المئة ! . . وكان اعتراض المرابين الوحيد هو : أنه إذا مات بيرون القاصر ، قبل الأوان ، لا يمكنهم تغطية ديونهم عليه ، إلا بإمضاء قريب بالغ . ففكر بيرون فى أوجستا . وأكد

لها أنها لا تجازف بشيء ، لأنه إذا مات ورثت منه ، وإذا عاش دفع : [إذا خالجك أقل شك فى أمانتى فلا تفعلى] . فأعطته أوجستا إمضاءها ، وتمكن بذلك من اقتراض عدة مئات من الجنيهات . ولم تلبث أمه أن عرفت ، فروّعت :

« هذا الولد يجننى ، وسيسبب موتى ! . . من أين له أن يجد مئات الجنيهات ؟ . . أتراه وقع فى مخالب المرابين ؟ . . إن وراء الأكمة حتما نساء » ! . .

وكان ذلك حقاً ، فهو منذ حصل على المال ، لم يكتف بالفراغ الشامل ، بل غادر الجامعة نفسها ، وسكن الدار رقم١٦ ببيكادللى ، فى الشقة التى استأجرتها مسز بيرون ، من قبل ، لتنزل فيها عند حضورها إلى لندن . واتخذ خليلة من طبقة وضيعة ، وألبسها ثياب الرجال ، متظاهراً بأنها أخوه ! . . وكان يأخذها إلى بريتون كل يوم أحد ، حيث استأجر بيتاً صغيراً على شاطىء البحر أمام الپاڤيون . . وكان يقضى فى المدينة أكثر وقته عند « چاكسون وأنجلو » فى بوند ستريت ، وهما معلمان لمختلف فنون الدفاع عن النفس ، چاكسون ملاكم ، وأنجلو لاعب بالسيف . وناديهما قبلة الوجهاء ، وأدت تمارينهما العنيفة إلى نحافته ، وكانت النحافة همّه الأكبر ، وشاغله الشاغل . ووجد فى النادى سلواه وملهاه . فقد كان وحيداً ، بلا أسرة ، ولا أصدقاء .

عاش هكذا فى لندن ثلاثة أشهر .

ولما عاد إلى كمبردج فى الربيع ، تبعته خليلته ، ثم جاء ملاكمه چاكسون . . فاستقبله بحفاوة عظيمة ، وأقام له المآدب . . لقد ظل احتقاره للحياة الجامعية يلازمه : « ليس فى هذه الجامعة شخص يفتح كتاباً ، أو يقرأ مؤلفاً قديماً أو حديثاً . . آلهة الشعر يجفوون ، وشيطانات الشعراء مهملات مهجورات . . وأنا أيضاً ، مهما يكن ميلى إلى المعرفة ، جرفنى التيار بحيث لم أنعش إلا مرتين فى بيتى ! . . »

إنه الآن يحيا حياة عربيدة تضجره ، وتخربه ، ولكنه ، تواجهاً ، لا يستطيع أن يحيا حياة سواها . .

١٠ – ساعات الفراغ

قال بيرون الفتى : لكى يصبح المرء شاعراً ، لابد له من أن يكون : عاشقاً ، أو شقيا
وقد كنت عاشقاً شقياً معاً ، عندما نظمت « ساعات الفراغ » . . »

وحكاية نشر هذا الديوان ، تلمح فيها أصبع المرأة ،كما لو أخذت حكايات شعراء الشباب فى مشارق الأرض ومغاربها ، لافرق بين النيل والسين ، أو الفرات والتاميز . . لافرق بين عامى ١٨٠٠ و ١٩٠٠

فى آخر السنة المدرسية ١٨٠٦ ، عاد إلى « ساوثويل » ، فاستقبلته مشاهد أليمة : أرسلت أمه على رأسه وابلا من الصحاف والصحون ، فلجأ إلى أسرة پيچوت ، يحتمى عندها . . ثم عاد إلى لندن . فتبعته أمه إليها ، تطارده . . وبعد معركة دامت بضع ساعات : « عادت مبللة ، محتلة ، إلى قواعدها ، تاركة وراءها : مدفعيتها ، وذخيرة الميدان ، وبعض الأسرى . . » ! . ومضى بيرون ، المنتصر فى حربه مع أمه ، لقضاء بضعة أسابيع على شاطىء البحر فى سسكس . وصحب معه چون پيچوت ، طالب الطب ، شقيق ألزابيث ، وهو شاب مثقف ، رقيق . فدهش لما أعده صاحبه بيرون لغزو البحر : مركبة رسمت على جانبيها : أسلحة آل بيرون ، وشعارهم : « ثق ببيرون » . . ثم جوادان مطهمان يتبعانها ، يقودهما سائس صغير . وركب العربة ، مع بيرون وپيچوت : الخادم فرانك ، والكلبان : « بوتسوين » ، و « نلسون » ! . .

فلماذا يحمّل بيرون نفسه ما لا طاقة لها به ؟ . لماذا يأخذ هذه التجريدة معه ، وهو غير غنى ؟ . . كان عاجزاً عجزاً مدهشاً عن أن يصفى حياته مما دخل فيها عفواً . فنى إحدى نزواته اتخذ : هذا الوصيف ، وهذين الجوادين ، وهذين الكلبين ، فظل محتفظاً بها جميعاً . كان كريم القلب ، يتعلق بكل ما يتصل به . ورأى پيچوت من حياء بيرون ما أدهشه . كانا يتناولان الطعام فى قاعة الفندق ،

ولـكن بيرون يصر على الصعود إلى غرفتيهما بمجرد انتهائهما . وكذلك دهش پيچوت من أن يجد صاحبه المشهور بالعربدة أشد ما يكون زهداً فى الخمر ، واستنكاراً لشربها . وكأن كل مسراته حصرت فى نظم الشعر ، وركوب الخيل ، والنظر إلى النساء من بعيد . . فبالرغم مما أصابه على يد ماريان شاورث ، ظل مرهف الحس ، شديد الضعف لفتنة المرأة . وإن تظاهر أمام پيچوت بأنه الرجل الذى أدرك أخطار الحب ، وحكم على النساء ، واحتقرهن :

[ليست طريقة غزوهن ، ياعزيزى پيچوت ، الوقوع فى غرامهن ، وإنما الترفع عنهن ! . .]

وأخيراً عاد الصديقان إلى ساوثويل ، حيث حل بيرون عند أمه المغلوبة ، مؤقتاً ، على أمرها . وروعت المرأة المسكينة ، إذ رأت ولدها يجيء ومعه : خادم وسائس ، وإسطبل من الخيل ، وعدد من الـكلاب ! . . ولم تجرؤ على أن تقول شيئاً ، وإن تساءلت : أنّى لها أن تطعم كل هذه القبيلة ! . . ولم يخف عنها بيرون ، بصراحته المعهودة ، أنه إنما لجأ إليها ، لأنه أنفق كل ما أقرضه إياه المرابون ، ولم يعد لديه مال يسافر به ، أو يعود إلى كمبردچ فى آخر الإجازة . وجاذبية ساوثويل الوحيدة عنده : أنه لن ينفق فيها كثيراً ولا قليلا ! . . ومع ذلك لم يلبث البلد أن طاب له . إذ صار لحياته هدف جديد ، هو : أن يصبح : شاعراً . وكانت أليزابيث پيچوت هى التى أوحت إليه بهذه الفـكرة . تلت عليه يوماً بعض الأشعار . . فقال لها إنه أيضاً ينظم الشعر . . وروى لها من شعره . فأعجبت به حقاً وصدقاً . وتأثرت من ذكريات حبه الـكسير ، فى قصائده عن : قصر آنسلى ، والعابثة ماريان شاورث . فكانت له خير صديقة .

كانت من أولئك الفتيات اللطيفات ، بلا غندرة ، المتفانيات حناناً ، اللواتى لا يحببن الرجال ، بلاهة منهم وحمقاً . . راحت تحارب فيه خجله ، وتشجعه بإعجابها . تنسخ له أشعاره ، وتعدها للطبع والنشر .

ولم يكن له فى ساوثويل غيرها ، وغير « بشير » قسيس البلد . وهو شاب

متزن حصيف . يحاول أن يظهر بيرون على ما خصته به العناية الإلهية من نعم : أصل كريم ، وعقل راجح ، ثم ثروة لا تلبث أن تكون طائلة ، ثم فوق هذا كله : « كفاية تضعه فوق بقية الخلق » . . فيرد عليه بيرون فى حزن :
« آه ياصديق العزيز . . إذا كان هذا (مشيراً إلى رأسه) يضعنى فوق بقية الخلق ، فان هذه (مشيراً إلى قدمه العرجاء) تضعنى دونهم جميعاً » . .

وكان يعد نفسه ، فى عزلته بساوثويل ، كشيخ راهب متبتل ، علمته الحكمة والمحن كراهية الناس . وكان إذ يتغدى مع أمه ، يظل يطالع خلال الطعام ، ليرغمها على السكوت . ثم يكرس ما بعد الظهر للرياضة وركوب الخيل ، ويعوم فى النهر ، ويلقى فى قاعه بأشياء ، ليتلذذ بالغطس والعثور عليها . ويروّع ساوثويل كلها بما يطلقه من نيران غدارته فى الحديقة . وكان هدفه من كل هذه التمرينات ضمور جسمه ونحافته ، ليكون رشيقاً . يحرم نفسه الطعام ، فلا يأكل فى الأربع والعشرين ساعة أوقية من اللحم ، ولا يتناول إلا وجبة واحدة فى اليوم ، ولا يشرب البيرة . . وبهذا الثمن الفادح ، برزت ضلوعه ، واكتسبت تقاطيعه الشاحبة جلالا فتاناً .

وفى المساء يقصد بيت أصدقائه من أسرة پيجوت ، أو ليكروفت . وكانت ساوثويل غاصة بالفتيات . وقد عرفهن الآن معرفة لا تجعله يخافهن . فهو يصانعهن جميعاً ، يرسل إليهن شعراً ، ويحاول أن يقبلهن ، ويشترك معهن فى تمثيليات الهواة . . وكانت له علاقة طائشة بإحداهن ، « مارى » جديدة ، ذات شعر من ذهب . . فراح يكايد الأخريات المتحفظات ، ويتباهى أمامهن بما يحمله من خصلها الذهبية . وكان يمجد نفسه ، مزهواً بأنه كالنحلة ترشف من كل زهرة قطرة ، ولا تستقر على حال من العبث ! . .

وحدث أن سيدة فى ساوثويل تملك حجراً من العقيق وجد فى قبر ، أخبرت بيرون أن هذا الحجر تميمة (حجاب) تحول بين صاحبه وبين الوقوع فى الحب . .

فصاح بها ، فى عنف مفاجىء : « أعطنى إياه ! . . فهذا هو الطلسم الذى يلزمنى ! »

وفى ساوثويل ، أخذ دروسه الأولى فى الهوى ، كما أتيحت له فرصة رأى فيها إلى أى درك ينزل الناس على حكم المنفعة : فإن أسرة من تلك الناحية كانت تغمض عينيها على علاقته الوثيقة بابنتها ، أملا فى أن تسوقه إلى زواج غير متكافىء.

ومكَّنه تشابه الأيام من العمل المستمر . فكانت هيجة تلك الغراميات الصغيرة علاجاً للسآمة والضجر ، كما كانت موضوعاً للشعر والقصيد . فالفنان بحاجة إلى حياة منظمة ، لأنه يحب عمله ، وإلى حياة مهووسة نوعاً ما ، لأنها تنعش فكره ، وتثير خياله .

وجمع بيرون أشعاره فى ديوان صغير ، مستنيراً بإعجاب أليزابيث پيجوت ، التى كانت تعتقد أنه سيفتح له باب المجد . ولما خرجت من المطبعة النسختان الأوليان ، حملهما إلى پيجوت . والقس بشير . ولكن كان الأثر أبعد مما كان يتوقعه بيرون . فإن القس ، وقد قرأ قصائد صاحبه ، صدم بقصيدة عنوانها : « الى مارى » ، ورأى استحالة السماح لبيرون بنشرها فى ديوانه .

كانت الصدمة أليمة لبيرون ، الذى توقع الثناء والإطراء ، غير أنه بادر فوعد بإعدام الكتاب كله ، ووفى بوعده فى ذات المساء . فأحرقت جميع النسخ ، إلا النسختان اللتان أرسلت إحداهما إلى چون پيجوت فى أدنبره ، وأعطيت ثانيتهما للقس بشير نفسه ! . . وكان مما يعز على مؤلف ناشىء أن يعدم كتابه الأول . . غير أن بيرون قد فعل ، وضحى بشهامة . . .

ثم أعيد طبع الكتاب ، فى الحال ، فى يناير ١٨٠٧ ، خالياً من القصيدة المنحوسة الموجهة « الى مارى » . . ووزعه المؤلف على : أصدقائه القدماء فى كمبردچ ، ومضيفيه فى ساوثويل . . فجاءه من الأولين المديح والإعجاب ، أما فى ساوثويل فثارت ضده عاصفة من الغضب . . فقد كادت كل أسرة ترى صورة فتاتها فى إحدى القصائد ، على الرغم من تحريف اسمها بعض الشىء . . أليست

« چولييت » هى « چوليا ليكروفت » نفسها ؟ . . وهكذا . .

وضيقوا الخناق على بيرون ، طالبين تفسيراً . فاستشار صاحبه القسيس . . فكان من رأيه أن يترك بيرون البلد فترة من الزمن تهدأ فيها النفوس . . وكان فعلا قد اجتواها وضاق بها . فهمّ بالرحيل . ولم تمانع أمه ، بل رحبت بفكرة سفره ، فهى منذ سبعة أشهر تعوله من دخلها المحدود ، هو وخادميه ، دون أن يعطيها قرشاً . . .

وانتشر ديوان بيرون الأول ، وتداولته الأيدى ، وتحدث عنه أهل الطبقة الراقية . . ورأى بيرون اسمه فى جميع واجهات المكتبات ، وتذوق حلاوة النفحات الأولى من المجد . . فليس فى الدنيا ألذ وأمتع من أن يكون المرء مؤلفاً . . ولكن طريق المجد طويل . . ففى انتظار الشاعر المجدَ الباذخ ، راح يعنى بالمجد الرياضى ، ويعبر لندن سباحة ، تحت رقابة ملاكمه چاكسون ..

وفى ذات يوم رأى الناقد « لى هنت » رأساً يبدو ثم يختفى على سطح الماء ، فى حين يرقب السابح على الشاطىء رجل وجيه ، هو چاكسون الملاكم العصرى المشهور . أما ذلك الرأس الذى يطفو ويغطس فكان رأس چورچ غوردون : لورد بيرون . . فتى أعرج . . لمـّا يبلغ سن الرشد ! . .

١١ — فرسان الجامعة

ماذا تراه صانعاً بحياته ؟ إنها لا يمكن أن تُقضى فى سباحة وقوافٍ . . فقصد ، فى آخر يونيه ، جامعة كمبردج ، على نية أن يودعها . ورأى ، مرة أخرى ، ساحاتها الجميلة ، وأحواشها العريقة الموشاة بالعشب السندسى . . وكان قد صار نحيلا ، ملائكياً كالخيال ، حتى إنه لا الأساتذة ، ولا الرفقاء ، ولا البواب نفسه ، عرفوا فيه ذلك الفتى المنتفخ السمين ، الذى كانه فى العام الماضى . إن نظاماً صحياً صارماً ورياضياً متواصلا قد جعل له وجه متنسك شاب ،

صار أشبه مايكون بـ « زهرية من المرمر الشفاف (الألباستر) ، مضاءة من الداخل » . . . وعلى تلك البشرة الشفافة تتساقط خصل شعره الأشقر الأحمر ، كأنها أسلاك نحاسية تلق ظلها البندقى القاتم . . وعيناه الزرقاوان الرماديتان تنظران فى قلق تحت أهدابهما الطويلة السوداء ، نصف مغمضتين . .

ولاحظ بيرون بين الطلاب شاباً ينظر إليه متردداً ، فتوسم معرفته ، هو صديقه أدلستون . . وكان ، لفقره ، على وشك مغادرة كمبردج ، ليستخدم فى محل تجارى بلندن . فتأثر بيرون بهذا اللقاء ، وعرض عليه مالا يوظف فى المحل التجارى ، ليصبح أدلستون به شريكاً ، أو أن يغادر أدلستون لندن بمجرد بلوغ بيرون سن الرشد ، ويجىء ليعيش معه فى نيوستيد .

وكتب بيرون إلى صديقته أليزابيث پيجوت ، ملكة ساوثويل ، ينبئها باستيقاظ هذه العاطفة : [... إنى أحبه ، عن يقين ، خيراً من أى إنسان ، كائناً من كان ، ولم يكن الزمن ، ولا البعد ، أى أثر فى عواطفى (التى هى مع ذلك دائمة التغير !) . . . ولعله أشد تعلقاً بى من تعلقى به] .

وتعرف بيرون بـ « ماتيوز » الطالب الذى حل محله فى مسكنه خلال غيابه . وقد أشار عليه أستاذه : « أوصيك يامستر ماتيوز بألا تتلف شيئاً من هذا الأثاث ، لأن اللورد بيرون ، ياسيدى ، شاب ذو مشاعر مشاغبة ، متضاربة » . . . فكان ماتيوز يردد هذه العبارة معجباً بها ، إذا ما جاءه صديق لزيارته أوصاه بأن يدير أكرة الباب باحتراس : « لأن اللورد بيرون ، ياسيدى شاب ذو مشاعر مشاغبة » ! . . فلما التقيا . تفاهما لأول وهلة ، ووجد كل منهما فى صاحبه : عقلا نيراً ، وقلباً قريباً من قلبه . . وراقت لبيرون سنته الثانية فى كمبردج . . كيف حدث أن هؤلاء الشبان ، الذين كانوا يصدون عنه ويحتقرونه ، أقبلوا عليه هكذا يخطبون وده ؟ لقد كان فتى بديناً جداً ، ذا عاهة ، خجولا ، متكبراً ، دون أية هبة أو كفاية تفسر ترفعه وصلفه . . فتجنبوه .

أما الآن فقد صار صاحب ديوان من الشعر ، قرأته كمبردج . وصار : جميلا ، رشيقاً ، بسّاماً . ففتحت له الأبواب والقلوب المغلقة ، ففهم ، وسرّ ، وقرر العودة فى أكتوبر إلى الجامعة .

واسترد شقته الجامعية ، واحتفظ حوله بفريق المخلصين المعجبين . وعلى رأسهم ماتيوز ، الذى كان يدرس بجد ، وكان إلى جانب درسه وبحثه من هواة المسرات المجنونة . فهو يحب : الملاكمة ، والسباحة ، ويتهور فيهما . وكان لا يؤمن بشىء ، ينكر وجود الله سبحانه ، ويسخر من الشيطان . وكان بيرون ، تحت تأثير مطالعاته فى مؤلفات ڤولتير ، قد أضاع أيضاً إيمانه ، ولكن قلقاً خفياً عظيما ما زال يساوره . وجاءت أحكام ماتيوز القاسية ، فزادت فى تشككه .

أما الصديق الآخر ، الذى سيكون صديق العمر كله ، والذى ستحفظ الأجيال اسمه ، بما دوّنه عن حياة بيرون فى مجلداته الستة ، فهو : جون كام هوبهاوس ، نجل تاجر كبير فى بريستول ، ومن ذوى النفوس الكريمة الوفية المتزنة . كان يشترك فى ألعاب العصبة ، ولكن فى تحفظ وحذر . فهو يصطاد ، بينما هم يسبحون . . ولم تكن لهجة ماتيوز فى الزراية بالإيمان تروقه . مع أنه هو أيضاً ، غير مؤمن ، لكنه لا يحب الإسفاف . وكان أشد ما وصله ببيرون إعجابهما العظيم المشترك بشخصية نابليون ، عدو بلادهما . وتميز هوبهاوس بإيثار الجد فى الحياة ، وبالميل إلى السياسة ، وباللباقة . فهو صديق لا يحابى ، يذكر لك أخطاءك ، وإنما لا يذكرها إلا لك وحدك . وازدرى هوبهاوس بادئاً هذا اللورد الفتى الأعرج ، الذى يزهى ، فى غباء ، بقبعته البيضاء ، وثيابه الرمادية الفاتحة . . ولكنه كان يحب الشعر ، فرأى فى ديوان بيرون علامات الشاعر الموهوب . ولم يكن ينظر إلى أهواء بيرون النسائية إلا نظرة الرجل المتسامح الكريم . وكان فى تلك العصبة الصغيرة من الأصدقاء يمثل الفطنة ، كما كان ماتيوز يمثل الهوس .

هؤلاء هم فرسان الجامعة الثلاثة الذين كانوا يسيطرون على كمبردج فى ١٨٠٨ ،

أما رابعهم فهو سكروب ديفز ، الذى كان يعد أيضاً ملك المتأنقين ، وهو شاب هادىء ، متحفظ ، خفيف الروح ، شديد الجاذبية . كان أشد منافس لبيرون فى السباحة . يقضى جل وقته إلى مائدة اللعب . يربح غالباً ، لما أوتيه من الهدوء وضبط النفس ودقة الحساب . ويلعب بيرون إرضاء له . ويسخط هوبهاوس على بيرون . ولا يرى أشد نكراً من هذه الصحبة السوء . ولكنه كان أقلية فى العصبة فرأى الناس ، ورأى هوبهاوس معهم فى عطف ، جماعة الجوكى واللاعبين والنساء يقبلون من لندن للعشاء مع بيرون أفواجاً .

حقاً لم يكن ثمة خسة فى معدن بيرون ، هذا المراهق الذى لم تربّه إلا الأيام والليالى . كان شهماً ، وفياً ، كريماً . بلغ من عطفه أنه كان يحتفظ دائماً بخمسة جنيهات للعجوز مورّى ، خادم نيوستيد ، الذى لم يكن يومئذ يخدمه ، يقتطعها من مرتبه البالغ مئة وخمسة وعشرين جنيهاً كل ثلاثة أشهر . لقد ظل منذ طفولته القاسية المعذبة يحمل معيناً لاينضب من الشفقة على الفقراء والبرّ بهم ، يعطى كثيراً ، ولا يملك دائماً قرشاً . يستدين ويستدين ، حتى بلغت ديونه رقماً مخيفاً . كتب إلى هانسون يسأله : [هل لى أن أبيع رتبتى ؟ . . ماذا تساوى اللوردية ؟ . خمسة عشر جنيهاً ؟ . إنها إذن تكون شيئاً مذكوراً لرجل مثلى لايملك هذا العدد قروشاً ! . .]

وفى ينـاير ١٨٠٩ كان مديناً بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه للمرابين ، وبثمانمئة لوالدته ، وبألف جنيه لنساء مختلفات . . كتب فى مارس : [بينى وبينك ، أنا فى حيص بيص ، فسوف تبلغ ديونى تسعة أو عشرة آلاف جنيه ، قبلما أبلغ سن الرشد ! . .]

وكان يمزج العمل بالعبث والفجور . ونفدت نسخ ديوانه ، وأعد منه طبعة أخرى . وظهرت فى آخر فبراير ١٨٠٨ *مجلة أدنبرة* ، وفيها نقد شديد لاذع لهذا الديوان ، وزراية به : « شعر هذا اللورد الشاب ، الذى يمت إلى طبقة لا يرضى بوجودها الله ولا الناس . . وقد أراد هذا المؤلف الوجيه أن يهون من جرمه بالاحتجاج بسنه

القاصرة . . كأنه يريد أن يدل على الناس بعدم بلوغه سن الرشد ، ويتيه فى الوقت نفسه بشعره ! . . هاؤم اقرأوا شعر فتى فى السادسة عشرة من عمره فقط ! . . »

كان هذا المقال قاسياً ، مجرداً من الإنصاف . صعق بيرون لدى قراءته . . وقال صديقه هوبهاوس : إنه لم يكن بينه وبين الانتحار إلا خطوة . وفى المساء تعشى مع سكروب ديفز ، وشرب ثلاث زجاجات من النبيذ ، ليغرق فى الخمر غضبه . . ولكنه لم يجد خلاصاً من كربه إلا بالنظم . . فأحس بعد البيت العشرين أنه أحسن حالا ! وكان كاتب ذلك المقال المقذع رجلا ساقط الهمة أصيل الشر . غير أن مقاله لم يؤثر على سمعة بيرون ، فإن الشاعر الكبير وردسورث دخل عند شارلز لام ، وفى يده عدد المجلة ، وهو يقول : « إنى لم أعد أطيق هؤلاء الناس . . فهذا فتى ، لورد ، ينشر ديواناً صغيراً من الشعر . . فاذا بهم يتهجمون عليه ، كما لو كان الشعر وقفاً على سكان الأهراء فى الخلاء ! . . إنى أرى فى هذا الفتى ، إذا مضى فى طريقه ، شاعراً نابهاً » .

وطفق بيرون ينظم قصيدة هجاء فى أعدائه . ثم أدرك ، لحسن الطالع ، أن الأخلق به الانتظار ، وأن خير رد هو فى نظم قصيدة عصماء .

وفى ٤ يوليه ١٨٠٨ ، نال من الجامعة دبلوم الماجستير ، وغادر كمبردج . وقد حولته تلك السنة الأخيرة . كانت مدرسة هارو مرحلة الصداقات العاطفية ، أما كمبردج ، فقد كشفت له عن الصداقات الفكرية . وآن له أن يتنفس الصعداء ، وأن يطلق قلبه فى الهوى كالطائر الغرد ، يتنقل من شجرة إلى شجرة ، آن له أن يتذوق الحرية . . ولكن أنى لمن نشأ نشأته ، وأثقلت طفولته بكل تلك الأغلال ، أن يصبح يوماً : حراً طليقاً ! ؟ .

١٢ - كأس فى رأس

« إن غير المألوف ممتع دائماً ، ولو كان مؤلماً »

شاتوبريانه

مضى على مسز بيرون بضعة أشهر وهى فى قلق من عودة ولدها فى الإجازة ، ومن قرب بلوغه رشده . كانت تحمل له العواطف التى حملتها لأبيه المروع من قبل . كانت تخشاه ، وتعبده ، وتلعنه . ماذا ترى هذا البيرونى الغوردونى الجديد فاعلا ، عند ما يصبح ولى أمر نفسه ومالك ماله ؟ ! أى لورد شرير سيتقمص فى شخصه ، هو ، وريث الهوس المهتوك ، والدم المسفوك ، فيعيث من جديد فى « نيوستيد » فساداً ؟ ! ولماذا تظل ، هى ، الأرملة الأسكتلندية المقترة ، تغل يدها إلى عنقها ، تعيش على ١٣٥ جنيهاً سنويا ، دون أن تستدين سحتوتاً ، وتظل مع ذلك مسئولة دائماً عن هذه السلالة الضالة ، من المبذرين إخوان الشياطين ؟ ! وهى ، فى خلال هذه الأشهر الأخيرة الفاصلة بينه وبين بلوغ الرشد ، تمطر هانسون وابلا من الرسائل الدالة على قلقها وتلهفها على مصلحة ولدها : فلا بد من تسوية مسألة روشديل وضياعها ، والحصول بذلك على دخل ثابت لبيرون ، وإلا تهور : [إنه وإن كانت لدى فكرة عالية جداً عن ولدى ، فلا يخفى على ، مع ذلك ، أن الأذكياء من الناس ليسوا دواماً أشد الناس فطنة واحتراساً فى شئون المال] . . . وهى لا تتحرج من سب المحامين المكلفين بقضية روشديل سباً جارحاً : [أقول لكم الحق : إنى لا أدرى لماذا ينهب ولدى ويسلب هكذا على أيديكم ، ومعكم المستر هانسون]

وربما كان صحيحاً ما ذكرته مسز بيرون ، غير أن هذا الشتم المقذع قد صدّ رجال القانون عنها ، كما صدّ أبداً اللورد كارليل ونفّره منها . كانت فعلا امرأة قصيرة النظر ، لا مرونة فيها ولا ليونة ، لا تعرف اللياقة ولا اللباقة . كانت

سليلة آل غوردون هذه عسرة الطبع ، تؤلب الشكاسة على الشراسة ، وتقذف بهما فى وجه الخلق .

وكانت تحمل هم لقاء ولدها باللورد جراى دى روتين : مستأجر قصر نيوستيد ، الذى انتهى عقد إيجاره ، خشية أن يقع بينهما ما لا تحمد عقباه ، لأنها سمعت بأن اللورد جراى سيترك القصر فى حالة بشعة من الخراب والقذارة ، فضلا عن الكراهية المعروفة بينهما . وكذلك كان يشغلها ويهمها أن تعرف هل سيدعوها ولدها الآن ، وقد أتم دراسته ، إلى السكنى معه فى قصر نيوستيد ، والإشراف عليه ؟ . . ولكن الرد جاء قاطعاً : [سيدتى العزيزة . . ليس عندى أسرّة مستعدة لمانسون المحامى ، أو لسواه ، كائناً من كان . . فضلا عن أنى مسافر إلى إيران فى مارس (أو على أكثر تقدير فى مايو) ، وعندئذ تحلين مستأجرة عندى ، حتى عودتى] ! . .

وفعلا وجد نيوستيد فى حالة من القذارة والتخريب لا يصدقها العقل . فاكتفى بإعداد بعض حجرات للنوم ، وعلق على حيطان غرفته صور : الجامعة ، والملاكم چاكسون ، وصورة خادمه العجوز مورى : (المخلوق الوحيد الذى أحبه ، وكلابه) . . كانت شجاعة منه أن يسكن ذلك الطلل البالى . . لكن لشد ما أحب نيوستيد ! . . لم يكن يمل الاستسلام فيه للأحلام . يحاول أن ينظم ، ويدون شعراً ، ويعمل على أريكة ، أو فى الحديقة . ولم يرغب فى التعرف إلى أصحاب القصور المجاورة ، ولم يرد زيارة الذين جاءوا منهم لزيارته . وقبل الدعوة للعشاء فى قصر آنسلى ، إذ قابل فى الحقول چاك مسترز ، الذى دعاه ، بالروح الرياضى الصريح ، على الرغم من معرفته ماضى حبه لامرأته ماريان شاورث .

كتب بيرون : [تعشيت بالأمس إلى جانب المرأة التى تعلقت بها ، طفلا ، بقدر ما يستطيع أن يتعلق الأطفال ، وأكثر كثيراً مما ينبغى لرجل أن يتعلق بامرأة . . . فقررت أن أكون شجاعاً ، وأن أتكلم ببرود . . بيد أنى ما كدت أراها حتى خانتنى شجاعتى ، ولم ينفرج فى مرة واحدة عن ابتسامة ، ولم تكد شفتاى تنبسان بكلمة ، ولم تكن السيدة

دونى مخافة وجوداً ، مما لفت أنظار الحاضرين إلينا ، أكثر بكثير مما لو كنا تصرفنا بلا اكتراث . .
وقد يبدو هذا كله ساذجاً . . أى مجنونين نحن ! . . إننا نبكى ، كالأطفال ، من أجل لعبة . .
ولا نرضى ، مالم نفكها أو نكسرها ونفتحها . . على أننا ، لسوء طالعنا ، لا نستطيع أن نفعل
فعلهم ، فنتخلص من لعبتنا بالقائها فى النار ! . .]

أما ماريان فقد لازمت الصمت ، طيلة الوقت . ولاحظت من طرف خفى أن بيرون صار نحيلا جميلا .

وجاءت المربية ببنت صغيرة عمرها سنتان . فألم بيرون أن توسم فى هذا المحيا الذى لم يكد يتم تكوينه : تقاطيع الأب الجلية الجذابة ، وعينى الأم اللتين طالما تأملهما فوق الرابية . ونظر إلى هذا الزوج القوى المفتول العضلات ، الذى يباهى بأنه لم يفتح قط إلا كتاباً واحداً « روبنسون كروزو » . ويتكلم عن آخر ثعلب قتله ! . .

ولما عاد إلى نيوستيد ، ألقى بنفسه على ديوانه ، وكتب قصيدة ، اعترف فيها :
بأن قلبه ما زال متلهفاً عليها ، متعلقاً بها . وأن الغيرة تنهش هذا القلب ، فليس أمامه إلا الرحيل ،
وإلا عاد فوقع فى حبالها . . ونصح قلبه بأن يهدأ ، أو ينكسر ! . .

وكان لا يود أن يلقى غير أصدقاء كمبردج . فجاء هوبهاوس أولهم ، يسعى ليعجب بالدير القصر . وتوثقت العلائق بينهما على اختلاف طباعهما . فكانا يعملان ، كل من جهته . ثم يسبحان فى البحيرة ، ويتسليان بتدريب الكلب بوتسوين ، إذ يلقى بيرون بنفسه ، وهو بملابسه ، فى الماء ، متظاهراً بالغرق ، تاركا للكلب الأصيل أن ينقذه . .

وطابت لبيرون هذه الحياة ، لولا جوار آنسلى الذى يثير الشجون . فإن عيش المرء قرب امرأة أحبها مما لا يطاق . ودهشت هى بدورها لهذا البرود والتجافى من رجل عرفته مولعاً مستهاماً ، فحاولت أن تزيد حنانها حناناً ! . . ولم يكن معنى الضعف لها إلا الطمع فيها . . فرأى بيرون أن خير علاج هو الفرار منها ، وأمّل الرحيل فى الربيع . وذكر هذا السفر خلال زياراته

لانسلى ، فسألته ماريان ببراءة عن سر رغبته فى هذا البعاد . . فجاءها الرد شعراً :

« إذا ما طرد الرجل من جنات عدن ، تلكأ ، متمسحاً بالباب . . يذكره كل ما تراه عيناه : بالساعات السعيدة الهاربة ، فيلعن مصيره المنتظر . . وهو ، بهربه منها ، إنما ينجو من الغواية والاغراء ، ويكفى خيره شره . . فليس يسعه أن يرى جنته ، ولا يسكن إليها ! . . »

وحاذر أن يظهر هوبهاوس على هذه الأشعار ، إذ عرفه شديد المقت لهذا الغناء العاطفى ، و « لجنس النساء السخيف » ! . .

وأصيب الكلب بوتسوين بالكَلَب . فتولى بيرون علاجه بنفسه ، كما لو كان صديقاً ، يمسح الزبد المسموم بيده المجردة عن هذا الفم الذى شوهه الداء . وظل الكلب وفياً حتى موته ، فلم يعض أحداً . ولما مات قال بيرون : « الآن لم يبق لى إلا العجوز مورى » . . وبنى له قبراً ، حفر على لوحه :

« هنا رفات كائن أوتى الجمال بلا غرور ، والقوة بلا غطرسة ، والبسالة بلا عتو ، وأوتى كل مماثل الانسان دون رذائله . . وهذا الثناء ، الذى لو خط على قبر آدمى لما كان إلا ملقاً سخيفاً ، ليس إلا شهادة حق وصدق فى بوتسوين ، الكلب الذى ولد فى تيرنيف ٢ مايو ١٨٠٣ ، ومات فى نيوستيد آبى ، ١٨ نوفمبر ١٨٠٨ »

وفى ٢٢ يناير ١٨٠٩ ، احتفل ببلوغ لورد بيرون رشده . فذُبح ثور بأكمله ، وقدّم مشوياً لحاشية القصر ، ثم أقيمت فى المساء حفلة راقصة ، جاء المحامى الوقور هانسون ليمثل موكله النبيل فيها ، ورقص . . وكان نصيبه من مستر بيرون خطاب تقريع واستنكار لكل تلك النفقات الباهظة ! . .

أما السيد الشاب نفسه ، بيرون ، فقد تعشى فى لندن : بزجاجة من البيرة ، وبيضة واحدة ، وشريحة من البيكون : عشاء الزاهدين . . ولكنه جزء من النظام الصحى الصارم الذى فرضه بيرون على نفسه . وقد استقبل عيد ميلاده هذا واجماً حزيناً . . انتهت طفولته ، ثم انتهى شبابه ، ثم دقت ساعة رجولته . ورأى أصحابه وخلانه يتساقطون من حوله ، واحداً بعد واحد ، وآخرهم صديق كمبردج العزيز « لونج » ، جنحت به سفينته فى لشبونه ، فكان من

المغرقين ، وبلغ عدد من فقدهم أربعة ، فى خلال خمس سنين ، منذ ترك المدرسة ، ولما يبلغ واحد منهم إحدى وعشرين سنة ! . . إن القبور تلعب دوراً وحشياً غريباً فى حياة هذا المراهق ، كأنما الويل والثبور حتم محتوم على سلالة بيرون . لا بد إذن من تحدى القضاء والقدر ! . . لم يعد أمامه إلا الرحيل عن انجلترا . وقد وعد هوبهاوس بأن يصحبه . فإلى أين ؟ . . إنه لايدرى . إلى الشرق ، إلى إيران ، إلى الهند ، أو إلى المناطق الحارة . . سواء لديه . . على شريطة البعد عن آنسلى ، وذكريات الفؤاد الكسير ، والدائنين والمرابين . . وأمه ! . .

ولم يكن أمامه إلا قضاء بضعة أمور مستعجلة ، منها نشر ديوان الهجاء ، الذى ملأه بالسم الناقع ، حتى إن صاحبه « دلاس » لم يجد ناشراً يرضى بطبعه إلا بعد لأى . ولم يهج بيرون النقاد الأسكتلنديين الذين أزروا به عندما أصدر ديوانه الأول فحسب ، بل إنه تحدى توماس مور نفسه ، الشاعر الذى كان يعجب به تلاميذ هارو . كما تحدى لورد كارليل ، ولى أمره ، الذى يحمل له الآن بيرون ضغنين : أولهما رده بكلمة باردة تافهة على إهدائه الديوان ، وثانيهما تحالله من خدمة بسيطة كان بيرون فى أشد الحاجة إليها ، لأنه ، وقد بلغ رشده ، يتحتم عليه أن يشغل رسمياً كرسيه فى مجلس اللوردات . . وجرى العرف فى هذه الظروف بأن يصحب النائبَ الشاب قريبٌ أو صديق كبير .. فاضطر بيرون إلى الذهاب وحده ، يوم ١٣ مارس ، وتجرع مذلة إهمال المجتمع إياه فى مثل هذا اليوم المشهود : أسفاً عليه ! . . كان له اللقب ، ولكن مجرداً من التقاليد ، ومن الصداقات ، ومن الثروة التى ليس اللقب من دونها شيئا مذكوراً . .

ودخل قاعة المجلس ، ولورد ألدون يرأس الجلسة ، فتقدم نحو المنصة ، وأقسم اليمين . وعندئذ ترك الرئيس مجلسه ، وتقدم نحوه ، ماداً إليه يده . فلم يكن من بيرون إلا أن حياه تحية جافة ، لم يكد يمد أطراف أصابعه إلى يد الرئيس الممدودة إليه ، فتراجع هذا إلى كرسيه مكلوماً . وألقى بيرون بنفسه ،

بلا اكتراث ، على أحد مقاعد المعارضة الخالية . . ثم نهض ، بعد بضع دقائق ، ولحق بصاحبه « دلاس » ، الذى جاء معه وظل فى انتظاره خارج المجلس . فقال له :
« لو أننى كنت قد ضغطت على يد الرئيس بحرارة ، لزعم أننى من حزبه ، ولكنى لا أريد أن أكون من حزبه ، ولا من حزب سواه . . والآن أستطيع السفر » . .

وأحدث ظهور ديوان الهجاء دوياً عظيماً . . وعلى الرغم من خلوه من اسم بيرون ، فقد عرفه جميع أهل الأدب . وتلقاه البعض ساخطين ، والبعض معجبين ، والبعض ذاهلين . . وهكذا أخذ بثأره . ولم يعد لديه ما يؤديه فى هذا البلد . ولم يعد يحول بينه وبين الرحيل إلا المال . وهو مدين باثنى عشر ألفاً من الجنيهات ! . . فمن يقترض أربعة الآلاف جنيه اللازمة له ؟ . . أمر هانسون بأن يجدها ، ولو أدى ذلك إلى بيع ضيعة روشديل ، لا نيوستيد : « ليحدث ما يحدث ، وستبقى نيوستيد ، ونصمد معاً ، أو نسقط معاً . الآن ، وقد عشت فى هذه الضيعة ، فقد تعلق بها قلبى ، وما من قوة حاضرة أو مستقبلة ترغمنى على التخلى عنها . . ولو لقيت الجوع والمسغبة ، وقد ينظر مستر هانسون إلى هذا الموضوع كرجل أعمال ، أما أنا ، فأحس ، عند ذكر نيوستيد ، بكرامتى ماثلة فيها ، لا صقة بها . . لن أبيع نيوستيد » .

وكانت هناك طريقة للخلاص ، هى الزواج من فتاة وارثة ، وهذا رأى مسز بيرون ، بعدما ألفت ولدها فى طريق الخراب : « . . ما لم تنقلب مناجم الفحم إلى مناجم ذهب ، أو ما لم يعوض ثروته ، على الطريقة القديمة المعتادة ، بالزواج من امرأة ذات مئتين أو ثلاثمئة ألف من الجنيهات . . . لا بد له من الزواج ، هذا الربيع ، من امرأة غنية . . فزيجات الحب سخف فى سخف . فليته ، على القليل ، ينتفع بما وهبه الله من صفات » .

وبيرون نفسه يعلق على ذلك فيكتب : [أظن الأمر سينتهى بزواجى من عروس ذهبية ، أو باطلاق الرصاص على يأفوخى . وكلاهما سيان عندى ، لأن الدواء يكاد يكون فيهما سواء] .

ووجد المال بطريقة غير منتظرة : فإن صاحبه سكروب ديفز ، أحد فرسان الجامعة الأربعة ، وكان يقضى أيامه ولياليه ، كما كان يفعل فى كمبردج ، فى لعب الميسر ، ويخسر ، أو يكسب ، مبالغ طائلة : غادره أصحابه ذات مرة ،

بعد منتصف الليل ، وهو سكران فى ناد للقمار ، وبعد ظهر اليوم التالى ، وجدوه ، بمعجزة ، نائماً فى بيته ، وإلى جانب فراشه « قصرية » ملأى ببضعة ألوف من الجنيهات ، يعلم الله وحده كيف كسبها ذلك الفارس المستهتر . .

وبذلك تمكن ديفز من إقراض بيرون المبلغ اللازم له فى سفره !

ودعا بيرون ، قبل الرحيل ، فرسان كمبردج ، ليقضوا أياماً فى نيوستيد . فجاء فى مايو ١٨٠٩ : ماتيوز ، وهوبهاوس . فعاشوا أياماً فى مرح خالص : يقرأون ، ويلعبون بالسيف ، ويطلقون الغدارات ، ويركبون الخيل ، ويجذفون فى البحيرة ، ويداعبون الدب . . وبعد العشاء ، تدور عليهم الخمر ، فى كأس أصلها جمجمة راهب من رهبان نيوستيد ، عثر عليها البستانى وهو يفلح الأرض ، فكلف بيرون صائغاً مشهوراً بصقلها وإعدادها للشراب . . ونظم فى هذه الكأس « الجمجمة البشرية » قصيدة ، خاطب فيها الكأس الملأى : بأنه :

« قد عاش ، وأحب ، ومزح ، مثلها . . وقد مات ، ونبذت الأرض عظامه . . ورحب بشفتها العظمية ، التى ليست أشد هولا وبشاعة من شفاه الديدان التى ستنهش رفاته ... »

ولكى يتم إخراج المشهد ، يرتدى المدعوون مسوح الرهبان ، ويضع بيرون طيلسان الراهب الأكبر ، ويرأس الحفل ، وفى يده الصولجان . وكانت الخمر معتّقة . ويقوم على خدمة الضيوف ، والمساهمة فى مسراتهم ، وصيفات من أجمل الفتيات المختارات لقصره من القرى المجاورة . وبيرون فخور بهذه الفرقة الصغيرة الفاتنة المنتقاة ، تروقه هذه الحياة المستهترة ، ويراها مثالية ، جديرة بعهود الإقطاعيات ، وذوى « الأبعاديات » ! . . وذاع فى الأنحاء : أن دير نيوستيد قد حل فيه « لورد شرير » جديد ، من نوع آخر طريف ! . .

وهكذا مر شهر مايو ، وتقرر أن يسافر هوبهاوس وبيرون معاً فى يونيه إلى جبل طارق ، ومنه إلى مالطه والشرق . ولم ير قبل سفره أخته أوجستا . كانت قد تزوجت ، فى ١٨٠٧ ، ابن عمها المشهور « الكولونل لى » ، وسكنت

« سكس مايل بوتوم » ، قرب نيوماركت . وأنجبت ، منذ سنة ، طفلة . وكتب إليها بيرون : [أشكرك إذ جعلتنى ضارو ، وأغفر لك الجنس هذه المرة . . ولكن فى المرة القادمة ينبغى أن يكون ولداً . .]

ورأى دلاس صاحبه بيرون فى الأيام الأخيرة قبل سفره : زاهداً فى الناس ، يمج الحياة ويجتويها ، لما قامت عليه من حملات صحفية شعواء ، ورآه أشد من أى وقت مضى نفوراً وخوفاً من مجتمع النساء . . وقد ظهر لبيرون من خلانه ما ساءه ، وجعله يسخط ويتكلم عن الصداقة بلهجة « تيمون الأثينى » الحكيم النفور . . فاللورد دلاور ، رفيق دراسته وصباه ، يعرف بسفره ، ويأبى أن يقضى ساعة للتحدث معه ، معتذراً بأن وراءه شوطاً مع أمه وبعض النساء عند بائعة قبعات ! . . أجل . . إن تيمون الأثينى على حق . . « فطالما عندنا حساء تلعقه كلابنا ، امتلكنا أفواه الخلق وعيونهم ، بل وقلوبهم ، أما هؤلاء الخلق ، فاذا حزروا أن الموت ، أو الرحيل ، أو الخراب ، سيحول بيننا وبين البقاء رفقاء لمسراتهم ، فانهم لا يلبثون أن ينبذونا بالعراء ، قائمين وحدنا ، فى مهب الريح » . أما ماتيوز فكان سلوكه خيراً من دلاور . أقام عشية السفر مأدبة فخمة لهوبهاوس وبيرون . . .

وقبلما يرحل بيرون ، كتب إلى ماريان قصيدته الأخيرة ، ينبئها فيها برحيله ، و « ... إبحار السفينة ذات الشراع الأبيض ، وهى تهتز فى العاصفة . . وقد كتب عليه فراق هذه الأرض ، لأنه أحب فيها امرأة واحدة . . »

أكانت عاطفته صادقة ؟ . . أيكون راحلا لأنه مازال حقاً يهواها ، ولا يستطيع احتمال العيش بقربها محروماً منها ؟ . قد يكون ثمة شىء من ذلك . فإن الحب الأول ، على أى حال ، يدمغ حياة الفتى بطابع قاس . . ومن بين جميع التذكارات الأليمة ، والتذكارات البهيجة ، التى أحب بيرون أن ينسج منها أحلامه الغريزية ، ظلت أيام آنسلى : أروعها ، وأوجعها . . .

١٣ – نحو الشرق

أبحر الصديقان فى ٢٩ يونيه ١٨٠٩ إلى لشبونة . وأخذ هوبهاوس معه : مئة قلم ، وجالونين من الحبر ، وأكواماً من الورق الأبيض . . ليدون ملاحظاته فى الآثار القديمة !.. وأحاط بيرون نفسه بموكب من الخدم والحشم : العجوز مورى يصحبه حتى جبل طارق ، لأن هواء البحر ينفعه ، والخادم الأول هو « فلتشر » ، وصيف نيوستيد ، يشكو ويتمرمر لفراق زوجته « سالى » التى تزوج منها حديثاً ، ثم خادم صغير يدعى : « بوب » . . ثم وصيف ألمانى آخر ، أوصى به الدكتور بتلر ناظر هارو ! . .

وكتب بيرون : [لقد طاب للعناية الألهية أن تتدخل لمصلحة الجمهور المسكين ، فتصيب هوبهاوس برضوض فى يده ، لايستطيع معها الكتابة ، وبذلك توقفت أمطار الحبر عن الانهمار ... أما أنا فأغادر انجلترا بلا أسف ، وسأعود إليها بلا شغف . ما أشبهنى بآدم ، حين حكم عليه بالابعاد ، لولا أنه ليس لى حواء ، ولم آكل قط تفاحة إلا كانت حامضة]

وتلقت مسز بيرون أيضاً خطاب وداعها . وكان قد ترك لعنايتها : الدب ، والكلب ، والذئب ، والوصيفات الفاتنات ! . .

وفى لشبونة ، أحب البرتقال الذهبىّ ، الذى يرصع زمرد الوديان ، وأعجب بالأديرة المنحوتة فوق قمم الصخور : « إنى سعيد جداً ، لأنى أحب البرتقال ، وأتكلم مع الرهبان اللاتينية السقيمة التى يفهمونها ، وأسير فى الطرقات وفى جيبى الغدارات ، وأعبر نهر التاج سباحة ، وأركب الحمير والبغال ، وأسب وألعن باللغة البرتغالية ، وأصاب بالاسهال ، ويلدغنى البعوض ! »

وسافر الركب من لشبونة إلى أشبيلية على ظهور الجياد . وكان الطريق مزدحماً بالصلبان الخشبية الشاهدة على أجداث ضحايا الحرب الناشبة بين الإنجليز والفرنسيين . وأحس بيرون فى مشهد هذا الجزء من العالم ، الذى يجتمع ، فى كل خطوة منه ، الموت والحب ، شيئاً حيوانياً صريحاً يلامس قلبه . كتب إلى أمه

يقول إنه يسكن بيت إسبانيات جميلات : [من بوجه عام ، مرحات ، مداعبات : بعيونهن الكبيرة السوداء النجلاء ، وبأجسادهن الرائعة التكوين . . وقد شرفت كبراهن ولدك الضعيف بالتفاتها الحار الخاص .. وقبلته بحنان عظيم عند سفره . . بعد ما قصت خصلة من شعره ، وقدمت إليه غديرة من شعرها الذى يبلغ الثلاثة الأقدام طولا ، وإنى مرسلها إليك راجياً أن تحتفظى لى بها لحين عودتى . وكانت كلماتها الأخيرة : « وداعاً أيها الولد الجميل !.. لشد ما تروقنى ! » . . . وقد مدّت لى فى رحاب كرمها ، فعرضت على أن أشاركها غرفتها . ولكن حلتنى عفّتى على رفض مكرمتها . . فضحكت وقالت : « إن لك ، حتما ، خليلة إنجليزية ! . . » . . . وأضافت أنها لا تلبث أن تتزوج من ضابط بالجيش الأسبانى] . .

ثم كتب من قادس : [قادس البديعة ، غاصة بأجمل نساء إسبانيا] . .

وذهب الصديقان إلى جبل طارق ، حيث افترقوا عن مورى العجوز ، وعن بوب الصغير ، اللذين أتعبتهما الرحلة . واستبقى بيرون الخادم فلتشر . . وفى الباخرة التى أبحرت بهما من جبل طارق إلى مالطة ، اختلط هوبهاوس بالمسافرين فى الحال ، وروى لهم بعد العشاء النكات . . وظل بيرون متباعداً ، فهو لايكاد يأكل شيئاً ، يغادر المائدة قبل الجميع ، ويظل معتزلا ، ناظراً إلى البحر ، وكأنما هو يستنشق شعر الصخور الكئيب . . وكأن عاهته ، التى ضربت عليه ضريبة الخجل والاستيحاش من الخلق ، جعلته يستبدل عشرتهم بصحبة صامتة عليا ، صحبة النجوم الساطعة ، والأمواج الصاخبة . . وكأنى بالنجوم تنشله من ورطته ، والأمواج تبعده عن بلواه . فتأمل فى شبابه الضائع المحروم ، ولكن بعطف آس ، كما لو كان شبابه شباب شخص سواه . . لماذا ينظم شعراً فى هذا الحج إلى الشرق ؟ . . فتخيل بطلا يطلق عليه اسم أسرته القديم : شايلد بورون *Childe Burun* . . يكون هو بيرون . . هذا البيرون اليائس القانط . . والسفينة ترقص على أضواء القمر . .

وفى مالطة أخذ بيرون دروساً فى اللغة العربية على قسيس ، ودروساً فى الحب الإفلاطونى على « فلورنس » : مسز سبنسر سمث . . كانت لهذه السيدة

مغامرات روائية ، قبض عليها جنود نابليون ، وأنقذها شريف إيطالى . . وكانت امرأة خليقة بأن توقعه فى حبائل هواها ، وقد اجتذبته فعلا ، لولا أنه استنجد بفلسفته فى الحب ، التى تقاوم الضعف ، وتنكر الحساسية : « قلب من الرخام » . . هكذا يؤثر اليوم أن يرى نفسه واثقاً منها ، محاذراً المرأة ، محتقراً الانتصار السهل عليها . . وفازت منه « فلورنس الرقيقة » بالماسة الكبيرة الصفراء التى يحملها فى خاتم . وظلت هذه المرأة تتراءى له فى أحلامه ، حتى أبعدها ، واستنكر الأحلام . .

وجاء ألبانيا ، التى لايكاد يعرفها أحد . وذكرته جبالها الموحشة بجبال أسكتلندا ، صديقة طفولته . وطاب له كل ما رآه فى ألبانيا ، من على باشا والى يانينا ، الشيخ المعروف ببسالته وصرامته ، إلى الفلاحين فى سراويلهم الضافية وجلود الماعز ، إلى القمصان الموشاة ، والطرابيش الحمراء ، والعبيد الأرقاء ، والخيول ، والطبول ، وصوت المؤذن يدوّى فوق مئذنة الجامع : « لا إله إلا الله » . . وراقت بيرون الطباع الألبانية على فطرتها ، لم تهذبها المدنية ، ولم تفسدها المراءاة . . وكان الاستلطاف متبادلا بين على باشا والصديقين الإنجليزيين ، فوضع تحت إمرتهما : الأدلاّء ، وحملة مسلحة لحمايتهما فى الحل والترحال . أن يقطع بيرون بلاداً موحشة ، تحت حراسة جنود من البرابرة ، أليس فى هذا ما يهيج بلابله ؟ . . كان منذ طفولته لا يخاف شيئاً ، ويرى نفسه خلق للحياة العسكرية . أحب هؤلاء المحاربين الألبان ، ووجدهم بسطاء مخلصين ، وهو يحب المخلوقات الذين على فطرتهم الأولى ، يسلون الفكر ، دون أن يشغلوه . وبينهم ، فى يانينا ، بدأ نظم نشيده الأول الخالد : « شايلد بورون » ، الذى لم يلبث أن صار « شايلد هارولد » لوزن الشعر . .

وذهبوا من ألبانيا إلى اليونان بطريق البحر . وحالت بينهم وبين ذلك العاصفة ، وعدم مران البحارة : [كدت أضيع من جهل القبطان ورجاله ، فلتشر يئن وينادى زوجته ، واليونانيون يتوسلون بجميع القديسين ، والمسلمون يبتهلون إلى الله . . والقبطان ، يبكى ويهرع إلى السفينة وهو يهيب بنا أن نضرع إلى الله]

مزقت الأشرعة ، وحار البحارة فيما يفعلون ، وفلتشر يرثى لمصيرهم فى جوف القبر الرطب ، وبيرون عاجز عن عمل شيء بسبب عاهته ، فيذهب ليشجع فلتشر بلا جدوى ، ثم يتدثر بوشاحه الألبانى ، وينام على ظهر السفينة المتأرجحة كريشة فى مهب الريح ، ويستغرق ، رغم هذا كله ، فى النعاس ! . ويصحو ، فإذا بالعاصفة هدأت ، وبالمركب جنحت إلى شاطيء قبائل السوليوت ، الشرفاء ، المتوحشين ، الخطرين ، فرحبوا بالناجين من الغرق ، وجففوا ثيابهم ، وأطعموهم من جوع ، ورقصوا لهم حول النار ، يتصايحون بأغانيهم الساذجة .. فلما رجاهم بيرون أن يقبلوا بعض المال ، قال زعيمهم : « إنى لا أريد نقودك ، بل محبتك » . فأعجب بيرون بهؤلاء الرجال الصناديد ، الذين يستسهلون القتل ، ويعتزون بالود . أما وقد نبذ البحر بيرون وأصحابه ، فقد قرروا الذهاب إلى اليونان براً ، حتى وصلوا إلى بلدة ميسولونغى . فاشتد ببيرون التأثر . لقد كان منذ صباه يحب هذه البلاد من خلال أقوال الشعراء والمؤرخين . فلم تخيب اليونان أمله . . ورأى فى سمائها ، وجبالها ، ومائها ، وأهلها : لوحة ضياء وهناء . . إن البسالة ، وحب الحرية ، وتقدير الجمال ، وتمجيد الفصاحة ، وأعظم الفضائل الإنسانية طراً : قد نبتت على هذه الأرض الجافة النقية . .

وها هى ذى أثينا ! . . فينادى بيرون : « أيتها اليونان الجميلة ، أيها الذخر الحزين لعظمة غابرة ! . . أيتها الخالدة ولو لم يعد لها وجود . . العظيمة ولو أنها هوت من عل فى مهاوى الخنود . . من ذا الذى سيكون على رأس أبنائك المتفرقين أيدى سبا ؟ . . من ذا الذى سيخلصك من العبودية التى طال عليك عهدها ، واستمرأتها ؟ . . من ذا الذى سيجدد فيهم روح الحماسة والبطولة ، ويبعثك من أعماق القبور ؟ . . »

واستأجر هوبهاوس وبيرون غرفاً فى منزلين متجاورين . ونزل بيرون عند أرملة قنصل إنجليزى : « مدام تيودورا ماكرى » . وكانت شرفته تطل على حوش داخلى ، فيه شجرة ليمون ، تلعب تحتها ثلاث فتيات . فما كان لبيرون أن يدع هذه الفرصة دون عشق وصبابة : [كدت أنسى أن أقول لك إنى أموت هياما

بثلاث فتيات أثينيات ، ثلاث أخوات أعيش معهن فى بيت واحد : تريزا ، وماريانا ، وكاتينا . . هى أسماء هؤلاء المعبودات ، وكلهن دون الخامسة عشرة !] . . ونظم لكبراهن ، تريزا ، شعراً : « يا بنت أثينا ! . . ردى إلى قبل الفراق قلبى ! . . أما وقد غادر صدرى ، فاحتفظى به ، وخذى ما تبقى منه . . وإليك قبل الرحيل قسمى : حياتى أنت ! . . إنى أحبك ! . . »

والأحرى أن هارولد هو الذى هام بعذراء أثينا ، لا بيرون . ومع ذلك فقد طبق صاحبنا هذا عادة شرقية فى العشق ، علموه إياها ، هى أن يمزق صدره بطرف خنجره أمامها . . وفعل ، فتقبلت ذلك بهدوء تام ، كتحية منه واجبة لجمالها الفتّاك ! . .

وليس فى وسع قافلة الحج أن تقف ، إذا كان صاحبها شاعراً يقصد بقاع الفن والتاريخ والجمال : المقدسة . فسافروا إلى أزمير . وهناك ، فرغ بيرون من نشيده الثانى . وقصدوا إستانبول . . ورأوا مدخل الدردنيل ، المجرى الذى يفصل قارتين ، والبحر يجرى سريعاً ، كما لو كان نهراً متدفقاً ، بين الشاطئين الصخريين الشاهقين . . ها هنا « هلسبونت » ، التى سبح منها ، « لياندر » ، الشاب الإغريقى ، من « عبيدوس » ، ليلحق بعشيقته « هيرو » ، كاهنة فينوس إلٰهة الجمال . . وها هنا غرق . . .

وكانت تلك الأسطورة من أساطير الأولين زعيمة بأن تثير فى بيرون الرغبة فى تقليد العشيق المجازف الغريق . . ففعل : سبح من أوربا إلى آسيا فى ساعة ونصف ساعة ، فلم يشعر بالتعب ، وإن أحس البرد . وكتب إلى أمه ، وناشر كتبه ، والأرض والسماء جميعاً . يتيه بما فعل : [... إنى فخور بهذا أكثر من أى مجد آخر ، سياسياً كان أم شعرياً ! . .]

وأخيراً ، فى ٢٤ يوليه ١٨١٠ ، غادر بيرون وهوبهاوس البوسفور الجميل ، على أن يعود الأخير إلى انجلترا . ويقيم بيرون فى أثينا مدة أخرى . وكتب بيرون إلى أمه : [إنى جد مسرور بأن أكون وحدى ، لا لأن رفيق كان شراً من سواه ، بل لأن طبيعتى تنزع إلى الوحدة . .]

ونزل بيرون فى دير الرهبان الكبوشيين : الأكروبول وراءه ، ومعبد چوبيتير عن يمينه ، ومدينة أثينا عن يساره . فياله من مُقام محمود ! . .

وكانت الحياة فى هذا الدير يعوزها الطهر ، وتنقصها القداسة . وكانت فيه ، على ما فيه ، مدرسة قوامها ستة من المراهقين ، ثلاثة منهم من الكاثوليك ، وثلاثة من الأرثوذكس . . فنظم بيرون بين الفريقين أشواطاً للملاكمة ، وسر الأب كبير الكهنة أن يرى الأولين يفوزون . وكانت الحياة أشبه ما تكون بحياة الكلية : من مرح وضجيج وفجور . فامتزج بها بيرون فرحاً كالأطفال . واندفع فى إحدى عواطفه الجامحة ليبسط حمايته على الصبي نقولا چيرو ، « أدلستون » الجديد ، الذى جعل يعلم بيرون الإيطالية ، واشتد به تعلقه ، حتى لقد أفضى إلى الشاعر بأنه : « يريد أن يعيش معه ، ويموت معه ؟ »

وقام بيرون خلال ذلك بعدة رحلات فى المورة . وكان المكان موبوءاً . فما إن تهب الرياح من ميسولونغى ، فى موسم البعوض ، حتى تنتشر الملاريا . وكاد بيرون يقضى نحبه . فماذا يستطيع شاب مسكين ، مصاب بالحمى ، ضد طبيب جاهل قاتل ، الطبيعة ، والشباب ، وآلهة الشعر ، تناضل معه ؟ والدكتور رومانللى يحاربه ! . . وكاد فلتشر يجن . ولحسن الحظ قال الخدم الألبانيون للطبيب : إنهم سيقتلونه إذا مات سيدهم . فهل كان هذا التهديد ، أم آلهة الشعر ، أم الشباب ، هو الذى أنقذه ؟ . . ونجا بيرون . ولكنه استطاع ، خلال مرضه ، أن يقدر قلة تعلقه بالحياة . كان ملقى على فراشه ، وحده ، يرتجف من الحمى ، على مدى شهرين بالبحر من بلاده : [نظرت إلى الموت كدواء من الألم ، دون أية رغبة فى حياة مقبلة أخرى ، وعن يقين بأن الله ، الذى يعاقب البشر فى هذا الوجود ، قد ترك ذلك الملجأ الأخير للنفوس المضناة المعناة] . . ثم أضاف : [إن الذى تحبه الآلهة يموت فى ريعان شبابه] .

ولما عاد إلى دير الكبوشيين ، كان ذابلا متعباً . ولم يكن النظام الصحى

لذى يتبعه للمحافظة على نحافته وجماله ، مما يساعد على تقويته : حمام تركى ثلاث مرات فى الأسبوع ، وشرابه الخل الممزوج بالماء ، وطعامه الوحيد الأرز !..

وكتب خلال ذلك : « لمحات من هوراس » ثم « لعنات مينرفا »

وفى ذات يوم سأل أحد الآباء الكبوشيين أن يسمح له بالسكنى فى صومعته ، لعل حياة الدير تخرجه من ضجره وكدره . وقال إنه ليس ملحداً . وطلب صورة المسيح المصلوب ، فقبلها باكياً . كان ينبغى للدين عنده ، ككل الأشياء ، أن يكون إحساساً مثيراً .

بيد أن هانسون كان قد كف عن إرسال النقود ، وطفق يلح على موكله بالحضور ليدفع الأذى عن نيوستيد وروشديل ، وكلتا الضيعتين مهددة من الدائنين ورجال القانون .. أسفاً !.. لا بد إذن من الرجوع إلى الأوطان !.. فأرسل فلتشر رائداً ، مكلفاً بالحقائب ، ومعه خطاب لمسز بيرون : [رجائى العناية بكتبى وعلب أوراق المدبدة . ورجائى أن تدعى لى بضع زجاجات من الشمبانيا ، لأنى شديد الظمأ ... أخشى أن يكون البيت غاصاً عندك بالنساء الحقاوات ، مستعرضات الفضائح ، وناقلات الاشاعات .]

وقطع بيرون المسافة بالبحر من مالطة فى أربعة وثلاثين يوماً ، وحيداً ، متلذذاً بوحدته . ولم يكن خلال رحلته الطويلة قط شقياً . وإن كادت تغرق به سفينته .. لقد تعلق بامرأة متزوجة فى مالطة ، وتعرف بباشا ، وأحب ثلاث فتيات يونانيات فى أثينا ، وعبر الدردنيل سباحة ، وكتب بعض الشعر ، ودرس الإيطالية على غلام ، وشاهد مناظر خلوية بهيجة ، واستعرض ذكريات بطولة غابرة ، واسترد شباب ستة أشهر .. وتحدث إلى : فرنسيين ، وطليان ، ويونانيين ، وأتراك ، وأمريكان . وحكم على أفكار وعادات بلاد غريبة . ولو أنه قضى دهراً يدخن فى أندية لندن ، أو يتثاءب فى دار ريفية ، لما أتيحت له كل تلك المعارف النافعة الممتعة .

وإنه لمن الشائق دائماً أن نرى ، خلال حياة امرىء ، كيف تتكوّن عليها

طبقات متتابعة ، بعضها فوق بعض ، يجمّدها الزمن ، فتحدّد الخلق .
فمن الأسلاف جاءت : شراسة آل غوردون ، وشهوات آل بيرون ،
فكوّنت عنده شركة بدنية لها طابعها . ثم إن عاهة العرج هى التى حملته على
كراهية الدنيا ، والجمال هو الذى أتاح له أسباب الانتقام لنفسه . وإلى جانب
أصول الدين ، الضيقة المكربة ، التى تعلمها من أساتذته الأسكتلنديين الأولين ،
قامت آراء طلبة كمبردج الفولتيرية : « الاعتقاد بوجود الله مع انكار الوحى » . .
ثم حولته عواطفه الساذجة وجهة القسوة والصلابة ، فرأى أن الكون خلق
بلا غرض معروف لدينا ، ولا اكتراث لأوجاعنا . . والناس تدفعهم أهواؤهم
ومصائرهم ، فيتبعون المسرات والملذات ، وهو عين العقل ، أو يقتفون أثر
المجد ، وهو عين البله . والدول تعلو وتهبط كأمواج البحر . وكل شيء باطل
زائل ماخلا متعة الحياة ويقظتها : إن تحت التراب نوماً طويلا . .

أدت رحلة بيرون فى الشرق إلى تثبيت هذه المبادىء فى رأسه . فحيثما مر
وجد الحياة قاسية ، والرذائل عامة ، والموت حاضراً ، أقرب إلى المرء من حبل
الوريد . ودعم إيمان المسلمين بقضاء الله وقدره هذا اليقين عنده . وراقت له
معاملتهم للنساء . وبرهن له تعدد الأديان واختلافها على ضعفها . أحب تلك
البلاد الشرقية التى لم يشغل فيها بأحد ، ولم يشغل أحد به . أيمكن أن تتأثر من
مقال مقذع حقود كتبه متغطرس « هلفوت » ، عند ما يكون بينك وبينه البحر
الأبيض المتوسط ، بله المحيط ؟ ! . . . من الآن فصاعداً ، عند ما تتعقد أموره
فى انجلترا ، أو تشتبك وترتبك ، سيعرف : أنه على خمسة عشر يوماً فى البحر :
جزائر بيضاء ، تحت سماء صافية ، دائماً زرقاء .

إنه وحده على ظهر السفينة ، ينظر إلى عباب البحر وأمواهه ، تعلو وترتفع ،
ثم تهبط وتتكسر . . إلى أين يقوده هذا السفر الطويل ؟ نحو ماذا ؟ . . نحو
أمه ؟ . . إنه لا ينوى أن يعاشرها : « تفضلى باعداد حجراتى فى نيوستيد ، ولكن

لا تعدينى إلا زائراً . واعلمى أننى صرت نباتياً خالصاً ، فلا آكل السمك ولا اللحم . فأرجو إذن أن أجد كمية كافية من البطاطس والخضر والبسكويت . ولا أشرب النبيذ . ومعى خادمان يونانيان ليسا صغيرى السن . . . ولعل حياتى لا تسمح كثيراً بالزائرين . . فاذا جاءوا ، استقبلتهم أنت ، لأننى معتزم ألا أدع أحداً ينغص عزلتى : وأنت تعلمين أننى ما تعلقت بالمجتمع قط ، وتعلقى به الآن دون تعلقى به فى أى وقت مضى . . .]

وإذا تركنا أمه جانباً ، فمن ذا الذى يلقى ؟ هوبهاوس ؟ إنه ليس لديه أى خبر عنه . . هودجسون ، زميل كمبردج ؟ . . أجل . . ولكن هودجسون تدثر بمسوح التقاة المتبتلين ! . . أوجستا ؟ . . إنه يكاد يكون نسيها ، إنه لم يرها قبل سفره ، وهو ناقم عليها وقوفها فى صف لورد كارليل ، بعد ظهور هجوه فى ديوان بيرون . إذن فياللشيطان ! . . أى عمل لديه فى هذه البلاد ؟ أن يدفع أجور مزارعى نيوستيد ؟ . . أن يبيع فحم روشديل ؟ . . أن يسدد الديون فى لندن ؟ . .

يالها من مهام خسيسة . . بعد تلك الرحلة العظيمة فى الشرق العظيم ! . .

« لقد ولد وله قلب حنون ودود . لكن حساسيته الفياضة المرهفة حملت رفاقه على السخرية منه . كان : أبياً ، طموحاً ، يتقى رأى الناس ، ويخافه كما يخافه الأطفال . ومن ثمة عمل على أن يخفى مظاهر كل ما يعده ضعفاً مزرياً . وقد بلغ أربه ، لكن فوزه كلفه ثمناً فادحاً . واستطاع أن يخفى عن الآخرين : انفعالات نفسه ، وتأثراتها المتدفقة حناناً . غير أنه بحبسها فى ذاته ، وضغطها فى كيانه ، جعلها مئة مرة أشد قسوة وعنفاً » . . . مور

١٤ — « شهريار » نيوستيد

نزل فى فندق « رديش أوتيل » ، فى جمس ستريت . وحمل معه من الهدايا لأمه : شالا من الحرير ، وعطر الورد . ولهوبهاوس : قطعاً من المرمر . ولنفسه : قنينة من نبات سامّ ، وأربع جماجم أثينية ، وبعض السلاحف الحية !. وكان صاحبه « دلّاس » يترقب وصوله بفارغ الصبر ، فجاء فى الحال ليسأله عما نظم خلال رحلته . فأعطاه « لمحات من هوراس » . وكان دلاس يحب هذا الشاعر الشاب بمجامع قلبه ، ويتمنى لو يجد الديوان ممتعاً . لكن خاب فأله ! أيكون هذا كل نتاج عامين فى رحلات ومغامرات ؟ . . وعاد فى صباح اليوم التالى ، محرجاً ، يتمتم عبارات ثناء مبهمة ، سائلا : أليس هناك شىء آخر ؟ . . فقال بيرون إن عنده أوراقاً لا تستحق الذكر ، وإذا أرادها دلاس فهو يهديها إياه ! . .

وخرج دلاس وتحت إبطه « أسفار شايلد هارولد ***Childe Harold's Pilgrimage*** » .

بيرون ! . . ها هو ذا بيرون نفسه ، بعينه ! . . لقد وجده دلّاس فى تلك الأشعار التى يزدريها شاعرها ! . . كان فيها كل شىء : هو ، وأمه ، وأخته ، وديره . . وعذارى اليونان ، وبنات الحقول . . ثم كراهية بيرون للناس ، وضجره الشهوانى ، ولذته الكئيبة فى إعلان أنه وجد كل شىء فى الأرض باطلا ، وقَبْضَ الريح . . .

« إيه يا إتنا ، يا إلٰهة الحكمة ! . . أين عظماء الرجال الذين راحوا ؟ . . بَرْقٌ خُلَّب غامض ، خلال أحلام الماضى . . وهم الأوائل الذين قطعوا الشوط ، المؤدى إلى الهدف : إلى المجد . . لقد فازوا . . ثم مضوا لطيتهم . . بلا رجعة . . فهل هذا كل شىء ؟ . . يا لها من قصة لتلاميذ المدارس ، ودهشة ساعة أو بعض ساعة ؟ ! »

ولم يستطع دلاس أن يقاوم تحمسه ، فكتب ، فى المساء نفسه ، إلى بيرون ، الذى ذهب يحج إلى هارو مدرسته القديمة : [لقد كتبت شعراً من ألذ الأشعار التى قرأتها فى حياتى . . وقد بهرت بـ « شايلد هارولد » ولم أستطع أن أتركه لحظة]

ومع ذلك ظل بيرون يعتقد أن هذا الديوان لا يستحق النشر ! . .

* * *

وكان بيرون قد كتب إلى أمه أنه اضطر إلى البقاء فى لندن ، ليوقع أوراقاً لهانسون ، وأنه سيزورها عند ما يستطيع . خطاب يكاد يكون بارداً ، من ابن يعود بعد غياب عامين . ويبدأ هكذا : [سيدتى العزيزة] . . ولكن عبارته الأخيرة كانت ودية نوعاً ما : [اعتبرى نيوستيد كأنه بيتك ، لا بيتى ، ولست إلا زائراً] . .

وهى ؟ أكانت سعيدة بعودته ، هذه المستوحشة النفور ؟ . . لشد ما لقيت طوال هاتين السنتين ! . . لقد صدّرت كبرياءها أثناء مقامها فى نيوستيد ، حتى لا تكلف ولدها شيئاً : فقد كانت بمعاشها تستطيع أن تعول نفسها وخادمة ، أما البستانى فلا . . وقد عرضت على هانسون الاستغناء عنه : [إنه لا يزيد شيئاً فى ثروة لورد بيرون تعهد حديقته ، ما دامت هذه الحديقة لا تنتج شيئاً يمكن أن يباع ويشرى] . .

وقدمت لهانسون الميزانية السنوية :

يد عاملة فى الحديقة	... ...	١٥٦ جنيهاً
حارس صيد	... ...	٣٩ »
جو مورى	... ...	٥٠ »
خادمة	... ...	٣٠ »
كلب	... ...	٢٠ »
دب	... ...	٢٠ »
ضرائب	... ...	٧٠ »
المجموع	... ...	٣٨٥ جنيهاً

هذا ، وهى لا يبلغ دخلها ٣٨٥ جنيها ! . . فما العمل ؟ : [لقد خفضت نفقاتى غاية جهدى . وأخرجت الخادمة منذ عام تقريباً . وأرسلت الكلبين إلى المزارعين للاحتفاظ بهما عندهم دون مقابل . أما الدب المسكين فقد مات فجأة منذ خمسة عشر يوماً ! .] . . خطاب يدل حقاً على نفسية كاترين غوردون . . تطرد خادمة لتوفر مرتبها ، وتعنى بالدب إلى يومه الأخير ! . .

وكانت ، منذ سفر بيرون ، قد انتابتها فكرة أنها لن تعود فتراه . فلما تلقت خطابه من لندن قالت لخادمتها : « إذا مت قبل مجىء بيرون لزيارتى ، فياله إذن من شىء عجب ! » . . .

وفى ذلك الأسبوع نفسه مرضت مرضاً خفيفاً ، لكن بدانتها وظرفاً عارضاً قد جعلاه خطيراً ، فإن كشف الحساب الذى أرسله منجّد الفراش ، سبب لها نوبة غضب ، نشأ عنها احتقان فى المخ .. وماتت دون أن تسترد وعيها .

وكان بيرون يستعد للسفر إلى نيوستيد وروشديل ، عند ما جاءه نبأ مرضها . ففى غد أول أغسطس علم بموتها . . فحمد الله على أن أيامها الأخيرة مرت فى هدوء ، وتذكر كلمة قيلت له : « لايمكن أن يكون لنا إلا أم واحدة »

ولما وصل إلى القصر ، روى له الخدم كيف أصابتها السكتة . .

وفى الليل سمعت الوصيفة ، مسز باى ، زفرات حارة ، فدخلت ، فوجدته جالساً قرب الجثة ، فلما رآها أجهش بالبكاء ، وقال لها : « إنها لم تكن لى فى الدنيا إلا صديقة ، وها قد فقدتها » . . فهل كانت تلك منه عاطفة زائفة ؟ . . كلا ، بيقين . فقد كانت تربطهما دائماً ، رغم مشاحناتهما العنيفة ، علاقات وثيقة ، كوّنتها طبيعتهما المتجانسة . لقد ماتت ، والموت يحمل للمخلوقات البشرية تأملات حزينة شعرية . . فكتب بيرون فى هذا المساء إلى هوبهاوس : [لقد فقدت تلك التى منحتنى الحياة ، كما فقدت بعض أولئك الذين جعلوا من هذه الحياة هناء . . ولم يعد لى أمل ، ولا بى خوف مما وراء القبر] .

وأبى يوم الدفن أن يسير فى الجنازة ، ويتبع نعشها . فوقف على عتبة القصر ، ينظر إلى جثمان أمه ، يبتعد نحو الكنيسة الصغيرة ، ووراءه المزارعون . ثم نادى خادمه بوب ، الذى اعتاد أن يلاكمه ، وسأله أن يحضر القفازات . ولم يكن يكشف عن لواعج همه وغمه إلا صمته المطبق ، واللكمات التى كان يكيلها بعنف غير مألوف . .

وبعد يومين علم أن صديقه ماتيوز مات غرقاً ، إذ وقع فى مخالب أعشاب خائنة ، جاهد عبثاً للخلاص منها ، خلال احتضار مروع طويل . . يالها من عودة ! . . أمه ، وألمع صديق له ! . . إذن فهو الموت ، ذلك الخصم الخفى ، الذى يضرب ضرباته السريعة الصارمة ! . . ومع ذلك فإن فى ضرباته راحة الأبد ! . .

بيرون وحده فى ديره المهول ، تحيط به تعاويذه العجيبة ، وطلاسمه الغريبة : رأس الراهب الكأس . . والجماجم الأثينية . . وطوق الكلب « بوتسوين » الفارغ . . وقنافذه وسلاحفه ! . . « هأنذا وحدى فى الثالثة والعشرين ، فماذا يمكن أن يصيبنى أكثر من ذلك فى السبعين ؟ » . . وبدأ يحلم على أريكته ، وهو يمضغ التبغ ، عادة جديدة ، اتخذها ، ليخفف من جوعه . وكان فى وسعه أن يختلط بأصحاب القصور المجاورة ، لكن : [لست حيواناً اجتماعياً ، وأحس بنفسى

فى حرب وكرب بين : الكونتيسات ، ووصيفات الشرف ، ونساء الطبقة الراقية . . ولا سيما فى اللحظة التى أعود فيها من بلاد شرقية بعيدة ، حيث لم تجر العادة بالتطاحن من أجل النساء ، ولا بمطاردتهن للرقص معهن ، ولا بالسماح لهن بالاختلاط (علناً) مع الرجال ، فاصفحوا عن طيشى الحذرة ، وعن العامين اللذين قضيتهما فى الشرق !] . . كلا ، فهو لن يذهب حتماً ليداهن « ماريان شاورث » جديدة . فعمل على توفير «الملذات المريحة».. وجرّد القرى المجاورة من أجمل فتياتها ، وجدد عهد « الوصيفات الفاتنات » ، وملأ بهن ضيعته . وجعل لشَعرهن و لباسهن وزينتهن نظاماً .. « شهريار » نيوستيد يعيد تحت سماء انجلترا « ألف ليلة وليلة » . وجعل لهن رئيسة تتولى أمر أولئك اللواتى ينظمن وينكشن ما فى القصر من فراش . وكما نرى فى آثار القرون الوسطى تماثيل الراقصات فى الجنائز ، كانت الأجسام الفتية العارية ، فى موكب حياة نيوستيد ، تتبادل أدوارها ، وتتتابع مع جماجم الرهبان . . .

وتراخى . ولم يعمل إلا قليلا . لم ينظم شعراً جديداً . وتسلى بتسجيل حواش من النثر على « شايلد هارولد » ، الذى بدأ يصحح بروفاته . . وكانت بعض الحواشى كافرة فاجرة ، فاحتج عليها صاحبه « دلاس » الورع المؤمن . وبيرون ، فى تلك الأثناء ، يستعرض الذين أحبهم فماتوا جميعاً ، فيؤمن بأن القضاء معلق ، كالسيف المصلت ، على رأس كل مخلوق يحبه . . .

* * *

وتبادل مرة أخرى ، منذ عودته ، بعض الرسائل مع أخته أوجستا . ولم يكن رآها ، وإن علم بتعاستها . فقد ظهر أن « الكولونل لى » ، الذى طالما تمنت الاقتران به ، رجل فاسق ، مقامر ، يهجر بيته عشرة أشهر فى السنة ، ويعود ليحضر سباق الخيل فى نيوماركت ويحمّل زوجته ولداً ! . . وتغيرت لهجة مراسلات بيرون وأوجستا . لم يعد بيرون الأخ الفتى الذى يسأل الرعاية . ومع أن أوجستا كانت فى عامها السابع والعشرين ، فقد كان يحس أنه أكبر منها

سناً، يعطف عليها، ويحنو حنو الوالد. فيختم رسائله بقوله : [مساء الخير يا بنت !]..
وكانت هي يراودها الحياء من هذا الأخ، الذي تجهله الآن، وقد عظم نفوذه برحلته البعيدة : [لقد بدأت خطاباً لك، ثم مزقته، خشية أن أبدو مثقلة عليك] .
وكانت مع ذلك تكتب رسائل طويلة غامضة، رسائل امرأة تزعجها على الدوام صرخات طفل، أو شكاوى خادمة. . عبارات ملؤها علامات التوقف، والتعجب، والكلمات والجمل الموضوع تحتها خطوط . . وكانت تلح عليه في الزواج : [يسرني أن أعلم بأنك تغلبت على أحكامك المبتسرة ضد الجنس اللطيف، فقررت الزواج . ولكني شديدة الرغبة في أن تكون لزوجة أخي العتيدة : محاسن أخرى غير الثراء، ولو أن هذا أيضاً ضروري ما منه بد] .. ويجيبها : [أما عن الليدي بيرون، عند ما أكتشف واحدة من الغنى بحيث توافقني، ومن الجنون بحيث ترضى بي، فسوف أسمح لها بأن تشقيني، إذا استطاعت . . والجاذب الذي يجذبني هو المال، أما النساء، فلا تفضل عندي واحدة أخرى، وأكبرهن سناً هي الفضلى، إذ تسنح، عندئذ، الفرصة لأن نراها مسرعة إلى العالم الآخر . . . تسألينني عن صحتي . . لقد صرت نحيفاً نحافة مقبولة، أنالها بالمران والكفاف . ولا أظنني غنمت شيئاً عظيماً برحلاتي، اللهم إلا طرفاً من لغتين، وعادة مضغ التبغ . .]

وجاء الشتاء فغطى العشب الأخضر بالثلج الناصع. وخلا القصر من ضيوفه، وسادته الوحشة . . وألفى الشاعر نفسه وحيداً، حتى خليلاته (وصيفاته الفاتنات) قد هجرنه، إذ اكتشف أن إحداهن، وكان مغرماً بها شيئاً ما، تخونه مع فلاح جلف . . وهو حادث تافه، غير أنه نال منه أشد النيل . . كتب إلى هودجسون، الذي صار قسيساً : [لي رجاء عندك، وقد عرفت هذه المأساة : ألا تحدثني بعد اليوم أبداً عن امرأة في رسائلك، وألا تلمح بمجرد تلميح إلى وجود هذا الجنس بعد الآن !]

حقاً ما من أحد في هذه الدنيا يعتمد عليه ! . . إنه يأسف على صيحات الفتيان الطليان واليونان، تحت أشجار البرتقال : [أعصابي متلفة . . إن جوكم يقتلني . لا أستطيع قراءة، ولا كتابة، ولا تسلية لنفسي أو لسواي . . أيامي بلا عمل، وليالي بلا راحة . . ويندر أن أرى مجتمعاً، وإذا ما ولجته من بابه، هربت من باب آخر] . .

ماذا يسعه عمله فى قصر نيوستيد وجوه الشتوى الجنائزى ؟ أيمضى فى كتابة نشيد آخر من « شايلد هارولد » ؟ ولا مندوحة له عن الشمس الضاحية والسماء الصافية : [إننى لا أستطيع رسم مشاهد عزيزة على ، حبيبة إلى ، وأنا جالس فى ركن المصطلى الذى تتلظى فيه نار الفحم الحجرى] .

وفى خطاب خاص جداً ، وصادق جداً ، وجهه إلى أحد أصدقائه ، يقول : [إن سنى حياتى الأخيرة ، كانت نضالا متواصلا ، ضد العواطف التى أشبعت صباى مرأ وعلقماً . وعلى الرغم من أننى قد تغلبت عليها إلى حد كبير ، فهناك لحظات ، أرانى فيها ساذجاً ، كما كنت من قبل] . . وكان فعلا منذ عدة سنوات يناضل ليقتل فى نفسه « الرجل العاطفى » ، الذى جعله يتألم أشد الآلم . لقد شعر بأنه فقد كل إيمان بالنساء والرجال ، فحاول أن يعيش غواصاً فى بحر الشهوات ، وقرصان لذّات ، بلا حب ولا صداقة . وكانت آفته : أنه فى سكون المشاعر يروّعه الضجر . .

لقد بدأ بيرون حياته بحب عظيم . وكان هذا الحب خيبة لأمله ، وصدمة لقلبه . ولكنه حب هيأ لهذا الصبي الحاجة الماسة للهياج العاطفى ، كذلك السائح الذى يعيش فترة على الطعام الشرقى الممتلىء بالبهار ، حتى إذا ما عاد فأكل طعام بلاده الصحى ، ألفاه لا طعم له . كان يرى نفسه على استعداد لأن يتبع أية انفعالات عنيفة ، ولو أدت به إلى الإجرام ، على شريطة أن تحمل العاطفة على الهرب دائماً من ذات كيانه . . أليس هو شهريار الملك ، الذى كان يقتل كل ليلة امرأة ، ليخمد جمحات أهوائه ، قبلما يلتقى شهر زاد ؟ . .

وهكذا استقر العزم من « شهريار » نيوستيد على سكنى لندن ، حيث يجد ، على القليل ، البرلمان ومناقشاته ، وبروفات كتبه يصححها ، أو يجد : [أى شىء يمكن أن يشفينى من تصريف ذلك الفعل الملعون : « يتضجر » . . .]

وسيظل « يتضجر » مدى الحياة ، لأنه سيعيش ويموت دون أن يلقى « شهرزاد » . .

١٥ - نحو المجد.. والحب!..

« من ذا الذى لا يكتب ليرضى النساء؟ »

بيرون

لم تقتصر حياة بيرون فى لندن على عشرة هانسون ودلاس. فقد تعرف أيضاً بالناشر الذائع الصيت يومئذ چون مورى، يدخل عنده، يصيح، ويشكو من تأخير الطبع.. ثم يتخذ من الكتب المعروضة أهدافاً يصوب إليها طرف عصاه، ويقذف بها.. ومن ثم يذهب للعشاء مع صديقه الشاعر توم مور، ذاك الذى كان يعجب بشعره الفاجر تلاميذ هارو، وسخر منه بيرون فى ديوان الهجاء، فكتب مور إليه يومئذ يدعوه للمبارزة، لكن بيرون كان قد سافر إلى الشرق، وظل الخطاب مختوماً عند صديقهما هودجسون، حتى عاد بيرون، فعرف بالحكاية. وكان مور قد تزوج من فتاة فاتنة، ولم يعد يرغب فى قتال، فاقترح مأدبة، عوضاً عن المبارزة. وتوثق بينهما الود. وكان مور يحب العشاء عند صديقه روچرس، وهو أديب اشتهر بكمال مائدته وندرة شعره.. وكان نجل صاحب مصرف غنى كبير، فتحت له الأبواب كلها، لما اشتهر عنه من خفة الروح، والدهاء.. وقد بنى بيته بعناية فائقة، فى موقع بديع يطل على جرين پارك.. كما لو كان بيتاً من الشّعر كل ما فيه كمال مطلق: أثاث جميل، ولوحات بديعة، ومكتبة مختارة تجمع أجمل الطبعات لخيرة الكتّاب، تزين نضده زهريات من الألابستر.. ولم تكن تنقص هذا البيت الشعرىّ إلا المرأة. غير أن روچرس ظل أعزب، فالزواج قرار دقيق، لا يصل إليه عاشق الفن الجميل والذوق السليم، لأنه يعيش عادة باسترخاء وأناة..

قال مرة لصديقته الكبيرة ليدى چرسى: « لعلى لو كانت لى امرأة، لوجدت على الأقل أحداً أحرص عليه!...». فأجابته: « نعم، ولكن ربما

حرصت امرأتك على حد آخر ! . » . . وعلى ذلك كان يعيش وحده ، فى ذلك البيت الشائق ، يقيم مآدب فاخرة ، يضيف إلى ألوانهـا اللذيذة روحه الماكر الخلاب ، فقد كان يجمع الخبث إلى الأنانية ، وكان مع ذلك كريماً بماله ، وهو ما يمكّن الرجل الغنى أحياناً من توفير فؤاده ! . . كان النساء إذن عند روچرس من طُرف الفن : سواء بالطهى ، أو باختيار المدعوين ، وهو فى مأدبة الصلح هذه ، لم يدع ، خلا بيرون ومور ، إلا شاعراً آخر : توماس كامبل ، ورجا من صديقيه مور وكامبل أن يتنحيا فى ثوىّ جانبى ، حتى يصل الضيف المجهول (بيرون) ، لما يعرفه من حيائه وتحرجه لدخوله وهو يعرج . .

وقد بهتوا جميعاً لجمال بيرون ونبل مظهره . وكان فى سواد شامل ، حداداً على أمه ، فتجلت روحية شحوبه . قدم إليه روچرس الحساء ، فقال : « لا . . أنا لا أذوق الحساء أبداً » — « سمك ؟ » — « لا ! . . أبداً ! . . » . . فجاءوا بحمَل . . ووُجه إليه ذات السؤال ، فأجاب بنفس الجواب . . فقال روچرس : — « إذن ، كأس من النبيذ ؟ » — « كلا . . أنا لا أشرب النبيذ مطلقاً ! . . » . . فيئس روچرس ، وسأل بيرون عما يأكل ويشرب ، فكان الجواب : « لا شىء إلا البسكويت المجفف ، والمياه الغازية » . . ولم يكن بالبيت ، لسوء الحظ ، بسكويت ناشف ، ولا « كازوزة » ! . . فتعشى بيرون بالبطاطس ، بعد ما عجنه فى صحنه ، ورشّه بالخل ! .

ومن ذلك اليوم وبيرون ومور لا يفترقان . بيرون « الحيوان بلا خلّان » لم يكن ينشد إلا أن يرتبط بإنسان . وكان يعجب بمور الذى يحل أهلا وينزل سهلا فى كل مجتمع لا يعرف بيرون فيه أحداً . ومع ذلك ، فبيرون هو : لورد بيرون ، وبارون بيرون دى روشديل ، وسيد نيوستيد . . وليس مور إلا ابن بقال من دبلن ! . . بيد أن مور كان من أولئك الرجال الخفاف

الظراف ، الذين خلقوا ليعجبوا الناس ، ويملأوا كل جو وجدوا فيه مرحاً ولهواً . فتنازعته صالونات دبلن منذ نعومة أظفاره : شاعر ، وموسيقى ، وجرىء القول . . يحب الخلاعة ، والحديث العذب ، والفكاهة الحلوة . . ووجد فيه بيرون صاحباً يسعد بخروجه مع لورد شاب ، وهو دائما على استعداد ليغنى ، ويشرب ، ويأكل ، ويضحك . . وبدأ بيرون ، بفضل مور وروچرس ، فى معرفة مغانى لندن الليلية ، وملاهيها الخفية . . ومع ذلك كان ضيق الصدر ، ينشد الهناء ولا يجده . وكان يتكلم دائماً عن بيع نيوستيد ، والذهاب للعيش فى جزيرة نكسوس من جزر الأرخبيل اليونانية . . وهناك يقتبس عادات الشرقيين وطباعهم ، ويقضى حياته فى دراسة أشعارهم . فإن برد هذا الشتاء الإنجليزى يحزنه ، وكذلك جو البلاد الروحى . فالحرب لم تكد تمس الطبقات الحاكمة . فكانت حياة أهلها سهلة رخاء ، يوزعون أوقاتهم بين : الصيد والقنص ، والغرام ، والبرلمان . واتخذت أسباب الكفاح الخارجية حجة لوقف حرية الفكر. يناقشون فى مجلس اللوردات قانوناً جديداً صارماً ، لمعاقبة العمال الذين يكسرون الآلات ، إذ عدوها سبباً فى حرمانهم القوت . وكان رجال الصناعة قد أسسوا حول نوتنجهام صناعات جديدة لنسج الجوارب ، يحل فيها رجل واحد محل سبعة رجال . فتصادم العاطلون وفرسان البوليس . فاضطروا إلى إرسال فرقتين إضافيتين إلى نوتنجهام ، وأرادت الحكومة تطبيق عقوبة الإعدام على مخربى الآلات ! . . رأى بيرون هؤلاء العمال المساكين ، وأدرك حسن نيتهم ، فقرر الدفاع عنهم . وطاب له أن ينهض بين هؤلاء السادة الكبار ، يذكرهم بالحقائق المرة ، ويواجههم بقسوتهم . وهو لم ينس قط غلام أبردين الصغير ، الذى كان يتعلم فى مدرسة شعبية ، ويسأل التفاح « لأمه المسكينة » . . وفى نوتنجهام ، كان الكابتن الذى ضرب العمال ضرباً وحشياً بالكرباج هو چاك مسترز ، الرجل الذى خطف منه « ماريان شاورث » ! . . وهكذا اجتمعت

لبيرون : مبادئه الإنسانية ، وآراؤه الاجتماعية ، وعواطفه القلبية ، لتجعل منه البرلمانى المعارض الأول ! . . فاتصل باللورد هولاند الذى كان سيتكلم أيضاً فى نفس الموضوع . ولما ألقى بيرون خطابه اتجهت إليه الأنظار ، وتفتحت له القلوب . حتى إن قصر « هولاند هاوس » ، الذى جعلت منه ربته ، الليدى هولاند ، معقلاً من معاقل لندن الفكرية والاجتماعية ، فتح له أبوابه ، ومهد رحابه .

وبعد أيام نُشِرَ النشيدان الأولان من « شايلد هارولد » . فكان الديوان نصراً مبيناً . وتبادل الخاصة ملازمه قبل ظهوره ، ولا سيما روچرس ، الذى كان له الصدر فى بضعة صالونات أدبية ، كصالون كارولين لام *Caroline Lamb* فمدحه وارتفع به « إلى السماء » . وحمل إليها البروفات ، راجياً منها ألا تطلع عليها أحداً . فما كان منها إلا أن دارت بها فى اليوم نفسه على البلد ، قائلة إنها قرأت الشعر الجديد ، ووجدته مدهشاً . . وقالت لروچرس : « أريد أن أراه . . إنى أموت شوقاً إلى رؤيته » . . فقال روچرس : « إن له قدماً مشوهة ، وهو يقضم بين الناس أظفاره ! » . . فأجابته : « لا بد لى من أن أراه ، ولو كان دميماً كيعسوب *Esope* » ! . .

ولا تلبث كل النساء أن يرين رأيها . لقد تحولت حياة بيرون ، بصورة مباغتة ، بضربة من العصا السحرية ، كما لو كانت حياة بطل فى قصة شرقية ! . . كتب : « استيقظت ذات صباح ، فألفيتنى مشهوراً » . . أجل . لقد كانت لندن ، ذات مساء ، بالنسبة له ، صحراء لا يعمّرها إلا ثلاثة أصحاب أو أربعة ، فإذا بها ، فى اليوم التالى ، تصبح مدينة من مدن « ألف ليلة وليلة » ، مزدحمة بالقصور المنيرة ، المفتوحة الأبواب لأشهر شباب الإنجليز .

كان « شايلد هارولد » إذن فتحاً جديداً فى عالم الشعر ، ولم تعد البلد تتحدث إلا عن مؤلفه . وراحت جماعات من الناس البارزين تلتمس التعرف به ، أو تترك له بطاقات الزيارة . وفى سان چمس ستريت تقف المركبات أمام

باب الفندق ، تعطل حركة المرور . وعرضت إحدى المكتبات نسخة مجلدة من « شايلد هارولد » ، خاصة بالأميرة شارلوت ، كريمة الوصى على العرش . وطلب الوصى نفسه أن يُقدم إليه بيرون . . وتكلم معه طويلا فى الشعر والشعراء . ولم تكن تسمع فى صالونات الطبقة الراقية إلا الهمس باسمه مراراً وتكراراً . إن لكل موسم بطله السياسى ، أو الحربى ، أو الأدبى . وكان بيرون هو بطل سهرات سنة ١٨١٢ ، غير مزاحم .

صبر وظفر . . . عرف : « ذلك البحر الوضّاء ، من الأحجار الكريمة ، والريش الجميل ، واللآلىء الثمينة ، والحرير الغالى » . . وذهب الخيال بالنساء المتأثرات كل مذهب عن الدير الكبير فى نيوستيد ، الذى تحول قصراً ، والأهواء الأثيمة التى جرت بين جدرانه ، والوصيفات الفاتنات ، يخطرن ، فى غلالات رقيقة ، أمام « شهريار » ملك نيوستيد ، وقلب هذا الملك الشاب « شايلد هارولد » الذى قُدّ من رخام ، والذى يتمنّع ويأبى . . فهو إذن يتمنى ! . . ومن فورهن ، حاصرنه بحسنهن . كن يستشعرن الخوف منه ، ويستمتعن بهذا الخوف اللذيذ . . تحدثت إليه الليدى روزبرى على عتبة إحدى الغرف ، فأحست ، فجأة ، بقلبها يضرب بشدة ، إلى حد أنها لم تكد تحير معه جواباً . وهو ، عند ما حزر الأثر الذى أحدثه ، سلط عليها القوة الجذابة لنظرته الساهية . .

ولم يعد يحدث له مثل ما كان يحدث فى ساوثويل ، عندما كانت تقدمه جارته ، أليزابيث پيجوت ، إلى سيدة ، فيخجل ، ويظل يعد فى نفسه : « واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة . . . » ! . لكنه مع ذلك كان يخفى ، تحت كلمات جامدة ، قلقاً عظيما ، فى هذا العالم الجديد الممتلىء حياة وتنوعاً ، والذى يستقبله فجأة ، بضجة ، بعدما تجاهله دهراً ، لم يكن له قريب ولا حبيب . وهؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء ، يلوح أنهم متعارفون جميعاً منذ نعومة الأظفار ، فهم يتخاطبون بأسمائهم المجردة . وهو يجهل كل شىء عنهم . ويخشى أن يكون

هزءة باتخاذه نمط ساوثويل الريفى ، وبظهور عاهته . . هذه الخشية نفسها أضفت عليه جمالا ، من حيث لايقدر ولا يحتسب . وبينما كان الآخرون يرقصون فى الحفلات يقف هو جامداً ، بلا حراك ، بسبب ساقه العرجاء . . فيلوح ، بين الأبواب المذهبة ، أشبه ما يكون ببطله « شايلد هارولد » ، الواقف فى مقدمة السفينة ، أنفه الأشم يلتمس هواء البحر المشبع برائحة الزَّبَد والملح ، وعيناه الزرقاوان تحدقان إلى بعيد ، إلى أقصى الأفق ، فى العباب . . .

ظل أجنبياً فى مجتمع بلاده . لايكاد يصدق كل ذلك الفوز المبين . . ومع ذلك ظلت الحمى البيرونية تزداد ولا تنقص خلال الموسم كله . كتبت الدوقة دى ديفونشير تقول : [إن أحاديث الناس ، وتطلعهم ، وتحمسهم ، فى هذه الآونة ، لاتدور حول أسبانيا ، ولا البرتغال ، ولا الحرب ، ولا الوطنية ، بل حول لورد بيرون !.. ديوان شعره على كل منضدة ، وهو نفسه يُحابى ، ويتملق ، ويمدح ، ويثنى عليه الخير كله ، أيان ظهر . . . شاحب اللون ، كما لو كان مريضاً ، قبيح الجسم ، ولكنه جميل المحيا . . ثم هو وحده موضع كل المحادثات إطلاقاً . . الرجال غيورون منه ، والنساء غيورات عليه بعضهن من بعض . . .]

وحوصر أصدقاؤه ، روجرس ومور ولورد هولاند ، بطلبات التقدمة إليه . وفكرت صبية أرستقراطية ، تدعى : « اليزابيث باريت » ، تفكيراً جدياً فى أن تتنكر فى ثوب صبى ، وتهرب من أهلها ، لتكون للورد بيرون عبداً ! . . وفى المآدب ، كان النساء يتزاحمن على المقاعد التى بجانبه ، وكان روجرس يلهو بمناورات السيدات النبيلات ، اللواتى يكتبن إليه دعوات للعشاء ، ويضفن فى آخر دعواتهن حاشية : [أتوسل إليك إلا ما أتيت معك باللورد بيرون !] . . فياله من قدر عجاب ، ومصير يحير الألباب ، لهذا الفتى الأعرج ، الذى كان منذ بضع سنوات يحمل ، فى حذر واحتراس ، فى شوارع نوتنجهام ، كوب البيرة لرجل دجّال ! .

وعند الليدى وستمورلاند ، لقيته الليدى كارولين لام ، التى تمنت رؤيته « ولو كان دميما كيعسوب » . . وصلت بعده ، ونظرت إلى ذلك المحيا الرائع ،

وهذين الحاجبين كقوسين كاملين ، وهذا الشعر فى خصل تلمع وتعكس لون الذهب الأصفر والنحاس الأحمر معاً ، وهذا الفم ذى الشفتين اللتين كأنهما لتمثال إغريق . . وأصغت لحظة إلى ذلك الصوت الرخيم ، المنخفض ، الشجى ، حتى ليقول الأطفال عنه : « السيد الذى يتحدث كالموسيق » . . ولاحظت هذه الرقة المدروسة ، وهذا التواضع الأبى إلى حد التوقح . . ورأت النساء يحطن به إحاطة السوار بالمعصم ، فدارت على عقبيها ، ورجعت أدراجها ، وابتعدت . .

وفى المساء ، كتبت فى يومياتها : « مجنون !.. شرير !.. خطرة معرفته !.. » . .

وبعد يومين ، كانت فى « هولاند هاوس » ، عند ما أُعلن قدوم لورد بيرون . وقدم إليها ، فقال : « هذه التقدمة عرضت عليك منذ يومين ، فهل أستطيع أن أسألك : لماذا أبيتها ؟ » . .

كانت طويلة ، نحيفة القوام . عيناها النجلاوان اللوزيتان ، تتساءلان . . . ولكن أكانت جميلة ؟ . . لا ، بيد أنها رقيقة ، جذابة ، كالنسمة الشائقة . . . فاستأذنها بيرون فى زيارتها . وكان ، وهو يحادثها ، يلاحظ ، متطلعاً بشغف ، هذا الحيوان الجديد عليه : امرأة من الأشراف ! . . كانت تنطق بأشياء ممتعة . بعضها عاطفى ، وبعضها فكرى ، بصوت لا عهد له به : حرارةً وتنغماً . . .

وأضافت فى يومياتها ، تحت عبارتها الأولى عن لورد بيرون :

« . . لكن فى هذا الوجه الجميل الشاحب قسمتى ونصيبى . . . »

١٦ – الحب

« أنا لست « يوسف » : آية الجمال ، ولا « سبيون » :
فاتح قرطاجنة . . لكنى أؤكد : أننى ما غررت بامرأة
واحدة ، طول حياتى » بيرون

مجنون !؟ . . شرير !؟ . . لشد ما تتسرع فى حكمها ، هذه المرأة الشابة ! . . ما الذى لاحظته حتى تكون قاسية هكذا ؟ . . أهى مرارة الردود ؟ . . أهى شدة الازدراء ؟ . . أهو مط الشفتين باستخفاف ؟ . . أهما العينان اللتان ، تحت أهدابهما ، تغضان شيئاً من بصرهما ، فتبدوان وقد نفد صبرهما ؟ . .

مجنون !؟ . . شرير !؟ . . إنه لم يكن هذا ولا ذاك . . أما أن معرفته خطرة ، فهذا يقين . هو قبل كل شىء شديد الحذر ، روح جريح ، يقظ ، متربص للخطر . ان تدعه أية « ماريان شاورث » يعانى بعد ويتعذب . لقد ظن أنه عرف : ماهية النساء ، وكيف تنبغى معاملتهن . انتهى لديه زمن الحنان والاستسلام . . فهذا الجنس القوى ، الذى ما أقل ما فيه من رحمة الملائكة ، عليه قسوة الفؤاد . وسيعرف كيف ينتفع بالدرس . . فى زيارته الأولى لملبورن هاوس (إذ كانت ليدى كارولين تعيش فيه مع حماتها ليدى ملبورن) ، وجد هنالك روچرس ومور ، وكانت كارولين عائدة لساعتها من نزهة على حصانها ، فألقت بنفسها على الديوان دون أن تغير ثوبها . . فلما أعلنوا قدوم لورد بيرون ، جرت لا تلوى على شىء . فقال روچرس : « يا لورد بيرون ، أنت رجل سعيد . . هنيئاً لك !. . فها هى ذى ليدى كارولين كانت باقية معنا بكل « لحوستها » ، فما كاد يعلن اسمك ، حتى هربت منك ، لتتجمل لك ! . . »

وكان هو ، إذ رأى الرجلين ، قد قطب حاجبيه . أفلا يستطيع أن يجدها وحدها ؟ . . ثم سألته أن يعود للعشاء . . فعاد . .

ولم يلبث أن صار فى ملبورن هاوس الضيف العزيز المقيم ! . .

وكان ملبورن هاوس من ألمع بيوتات لندن ، وكان ، وهولاند هاوس ، المركز الفكرى لحزب الأحرار .

وكانت الليدى ملبورن (أليزابيث ميلبانك) من أجمل نساء عصرها ، عاشت ، بعد زواجها ، على هواها ، فى تلك **العلاقات الخطرة** ، وأعجب بها ولى العهد ، وغزت مدينة لندن .. وولد لها ولدان ، يحب الأب أولهما الذى يشبهه ، وتحب الأم الثانى « وليم لام » الذى يشبه لورد إجرمون ! .. دللته ، ونشّأته طليقاً من كل قيد فكرى أو خلقى ، بينا أبوه ، الذى يعيش فى البيت صامتاً كأنه طفيلى ، يهمله ويتجاهله ، حتى شب غلاماً كسولا ، ظريفاً ، فاسداً . .

وفى ١٨٠٥ تزوج وليم لام من كارولين ، بنت لورد وليدى بسبورو (وهى تلك التى قابلت أخيراً لورد بيرون) . . .

زواج حب ، وزواج جرىء . كانت كارولين آية الفتنة ، وغاية الخطر . مرضت أمها بعد مولدها بثلاث سنوات ، فعهدت بهـا إلى عمتها الدوقة دى ديفونشير ، فكانت عنايتها بها هى عنايتها بذات أولادها ، أى أنها تركتها للخدم . فتربت فى الترف والفوضى ، واعتقدت أنه ليس فى الدنيا إلا : دوق ، أو مركيز أو شحاذ : « لم نكن نتصور أن هناك مخلوقاً يصنع الخبز أو الزبد . وكنا نعتقد أن الخيول تتغذى بلحم البقر . . وعالجت نظم الشعر ، وعنيت باستحمام كلبى ، وكبح جماح جوادى »

وكانت نتيجة هذه التربية المهملة : أن أصبحت ليدى كارولين : نهباً مقسما لأهوائها ، ونوبات رضاها وغضبها ، بحيث خشى عليها الأطباء الخبل . وظلوا ، إلى الخامسة عشرة ، لا يعلمونها شيئاً ، ثم تفجرت مواهبها ، فعرفت : اليونانية ، واللاتينية . . وتعلمت : الموسيقى ، والفرنسية ، والإيطالية ، والرسم ، والتمثيل . . وصارت ، بعد بضع سنوات ، من أدهش فتيات لندن : غرابة طبع ، وشذوذ أطوار . وكانت تمج ما اصطلح عليه العرف تؤرخ خطاباتها : « الله يعلم أى يوم » ! واشتهرت بحساسيتها المرهفة ، فما أسرع ما تجهر بالضحك ، أو تنخرط فى البكاء .

وكان ذلك من أجمل ألوان فتنتها ، كأنها حورية من حوريات قصص شكسبير ، تنتقل فى غمضة عين من الترح إلى المرح ، ومن المزاح الودىّ إلى الوقار الشعرىّ ! . . وكان عبّادها يطلقون عليها : « آريبل » — روح الهواء — أو جنية الغاب ، أو الشابة المتوحشة . . فى حين يحكم عليها النساء بأنها : تتصنّع ، لتثير الدهشة والحيرة والإعجاب . . .

قابلت لأول مرة زوجها المستقبل ، وليم لام ، عند ما كانت فى الثالثة عشرة ، وهو فى التاسعة عشرة . وكانت طالعت أشعاره ، وبها « شوق جنونى » لمعرفته . . فرأته ، وأحبته ، ذلك الفتى الأنيق ، ذا العينين البراقتين . وراقت له ، فقرر الزواج منها . وظلت هى طويلا لا تريده ، قالت فيما بعد : «لقد كنت أعبده ، ولكننى أعرف أنى مخلوق فظيع ، ولم أكن أريد أن أجعله شقياً » . . ظل يطاردها بعناد ، حتى نالها فى عام ١٨٠٥ . وكانت فى يوم القران فتنة ، لكن ثائرة أعصابها . . غضبت من القس الذى يعقد العقد ، فمزقت ثوب عرسها اللؤلؤى ، وأغمى عليها ، فحملوها إلى مركبتها ، وهو استهلال للزواج غريب . .

وكأنى بزوجها الظريف كان يتلذذ بأن يزيد من إفساد طبعها اللعوب . لأنه هو نفسه كان يرتاع من شىء اسمه الأخلاق ، قال : « قد أكون مخطئاً ، لكننى ما ندمت قط ، أو أسفت ، على الساعات التى قضيتها فعلا فى اللهو واللعب ، ولو عن طريق الطيش والرذيلة » ! . . وكانت أمه ، ليدى ملبورن ، المرأة المجربة ، تشارك ولدها مشاعره فى مسائل الأخلاق ، ولكنها تؤثر الكتمان ، وتأخذ بالحكمة القائلة : « إذا بليتم فاستتروا » . ولم تكن راضية عن غندرة زوجة ابنها المكشوفة النزوات ، المفضوحة البَدوات . . وكان الزوج مع ذلك يضحك من غزل امرأته ، واحتفائها بإعجاب المعجبين بها . . بل لعله كان يشجعها ، بما علمها إياه من استهتار بالخلق ، واستخفاف بالعرف . . فتمعن فى هواها . .

والعجيب أن وليم بدأ يحس الشقاء ، تحت قناع الهناء . فتوسل إلى كارولين

أن ترعى حياتهما الزوجية . . ولكن بعد أن سبق السيف العذل ، وأفلت زمامها ، وانطلق عنانها . . هذه هي الزيجة الواهنة التي كادت تتحطم على يد زوج ضعيف ، وزوجة مفتونة ، عند ما جاء « لجأة » لورد بيرون ، فلم يلبث أن صار لها خلا ، ثم صار لها خليلا . . .

وأحب بيرون ، بادىء ذي بدء ، دوره الجديد : يجيء في نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً ، يعيش في خدر امرأة ، يفتح الرسائل ، ويدلل الأطفال ، ويختار لهم ثياب يومهم .

وظلت صداقتهما إفلاطونية ، في ملبورن هاوس ، في الأسابيع الأولى : « يتكلم بيرون طويلا ، بصوته الشجي ، بينا يهز على ركبتيه ولد كارولين الصغير » .

ويحدثها عن اللعنة المعلّقة على رأس أسرته ، من آل غوردون وبيرون ، والموت الذي يلامس كل من يحب ، ويحدثها عن أمه ، وأصحابه ، الذين سقطوا في شهر واحد ، ويحدثها عن قلبه الرخامي . . وعن فاتناته الشرقيات الجميلات . . بينا هي تصغى إليه بلهفة وإعجاب ، إذ تجده مختلفاً كل الاختلاف عن زوجها . . وتجده جميلا . . أي جمال ! . .

أتراه أحبها ؟. لقد نفى ذلك فيما بعد . إنها ليست « نوعه » في النساء . وهي ، على رشاقة جسمها ، تبدو نحيفة إلى حد يتنافى والجمال الحق ، وليست لها عينا الظبية ، ولا « حياء الوعلة » ، ولا ملاحة جنية من جنيات الشرق ! . . ومع ذلك ففيها حيوية لا نهاية لها . وكان كذلك قد قرّ عيناً بأن يرى نفسه الأليف الأثير في ملبورن هاوس ، هو ، الشاب الذي لم يكن له في لندن ، منذ خمسة عشر يوماً ، إلا أصدقاء نادرون . . وأغراه بالاستسلام عاطفة بدت فيها قوية عنيفة .

وجده صاحبه دلّاس ، يوماً ، وبين يديه غلام من قصر ليدى كارولين ، في حلة من الحرير والدنتلة ، وهو مستغرق في قراءة رسائلها إليه والرد عليها . . فرأى من واجبه أن يحذره من امرأة يقول عنها كل الناس إنها مجنونة .

أما بيرون فكان كلما نظر إلى كارولين ، ازداد إعجاباً بحماتها : « إن الليدى ملبورن ، التى كان يمكن أن تكون لى أماً ، تثير فى اهتماماً ، قل من النساء الشابات ، من تقدر على إثارته . إنها امرأة فتانة ، تجمع إلى عقل الرجل وإرادته : رقة المرأة وحنانها . وكثيراً ما فكرت فى أنها لو كانت أصبى من ذلك قليلا ، لكانت خليقة بأن تطيح برأسى ، وتنهب نفسى » . .

وكان يجىء عنده ، فى هذا البيت ، بعد الأم : الزوج : وليم لام . . هل يجوز له أن يخون هذا الرجل ، الذكى ، الكريم ، الأمين ، الذى يمد إليه يده ، واثقاً به ، مطمئناً إليه ؟ . . إنه لا يكاد يطيق قدرة النساء على الخيانة !.. لذلك كثيراً ما كان يبدى نحو ليدى كارولين جفاء مدهشاً .. ولم تكن عبارات ولعها وهيامها به ، إلا ضجيجاً متعباً مبتذلا ، فلوى كتفه عنها ملولا . .

وزعمت أنها ترضيه بتعريفه بالمجتمع . فأقامت عصريّات (ماتينيه) فى قصر ملبورن هاوس ، دعت إليها أجمل وأرقى نساء لندن . . غير أن ثرثرة الصالونات تتعب ذلك الحاج الشرقى ، الذى كان ، قبل ذلك بستة أشهر ، يدخن غليونه تحت سماء زرقاء ، ناظراً إلى الأكروبول . . ولما عاد فاضطجع على ديوانه فى نيوستيد ، كتب : « أى شىء يمكن أن يشفينى من تصريف ذلك الفعل الملعون : « يتضجر » ! . . . »

ها هو ذا الآن قد عاد يتضجر ، ويتحسّر على وحدته الضائعة . .

* * *

رأته فتاة ذكية الفؤاد ، ولاحظته جيداً . وهى ريفية ، بنت أخى ليدى ملبورن ، وتدعى : « آن - إيزابل ميلبانك ، وتدعى باختصار آنّا بلّا » ، فتاة مثقفة ، مؤمنة ، تنظر ، خلال إقامتها فى لندن ، بشىء من الاحتقار إلى عالم العاصمة ، وتزدرى زوجة ابن عمتها المجنونة كارولين . دونت فى ٢٤ مارس ، فى يومياتها :

« انتهيت من قراءة شايلد هارولد للورد بيرون ، وهو يحتوى على قصائد من أحسن الشعر » . .

وفى ٢٥ ، دعيت إلى عصرية راقصة فى ملبورن هاوس . وأرتها كارولين

لورد بيرون . . فوجدته متعاظما . ولم ترد أن تتعرف به فى ذلك اليوم :
« لأن النساء كن محدقات به ، يتحببن إليه ، ويتغزلن فيه ، بسخافة ! . . » . .

وبعد بضعة أيام رأته ، فوجدته حيياً ، فحاولت أن تجعله يتكلم . قال لها :
« إنه ليدهشنى ألا أراك متميزة من مجتمع يندر أن يجد فيه المرء مخلوقاً واحداً إذا ما عاد إلى بيته تكون له شجاعة النظر فى ذات نفسه » . فأعجبت بملاحظته التى عبرت عما يخالجها ، وكان مخلصاً فيما قال . ففى هذا الجو الهائج ، الذى ليست له شجاعة التمنع والبعد عنه ، كان يأسف على بيرون الآخر ، الحالم ، المتأمل ، المضطرب ، فى نيوستيد .

ولكن لماذا يا ترى يقول لهذه الشابة الجميلة المجهولة مالم يقله لأحد ؟ كان فيها شىء يخز ويستفز : بشرة ناضرة ، وخدود مستديرة ، وورود . . ليست طويلة ، ولكن جسمها بديع التكوين . . حين دخلت الصالون ، سأل بيرون صاحبه مور : « هل هى وصيفة سيدة من العظيات ؟ » . . فهمس مور : « كلا إنها وارثة عظيمة ، ينبغى لك أن تتزوجها ، وتصلح نيوستيد »

و تكلم بيرون مع كارولين عن مس أنا بلا ميلبانك ، مثنياً عليها جزيل الثناء . بل مفضلا إياها عليها ! . . وكان يكفى أن يصرح بيرون بأنه لا يوافق على هذا النمط من الحياة وهذه الاجتماعات الحاشدة ، وأنه يمقت الرقص ، خاصة (وهو حقد قديم !) ، كان حسبه أن يقول ذلك ، فتختفى فجأة من قاعات ملبورن هاوس الرقصات والنغمات . . وقد سألها ألا تعود فترقص « الفالس » أبداً ! . . فوعدت : عاشقة مستهامة ، مغلوبة على أمرها ، لا تعصى له أمراً . كتبت إليه رسائل متهورة ، عرضت عليه فيها : لا حبها فقط ، بل كل حليها وجواهرها ، إذا كان فى حاجة إلى مال .

ولم تصبح خليلته على الفور ، ولعله كان يجنبها ذلك لولا تذكار أول حب شقىّ ما زال يضنيه . ولكنه ، فى فلسفته ، حكم بأن المرأة التى لا تعطى نفسها ، لا تعطى من نفسها شيئاً ، وتحتقر عاشقاً من الجبن بحيث لا يقهرها .

وزعمت والدة كارولين ، ليدى بسبورو ، أنها أحسنت بقولها لهذا الزائر ، الداعى إلى الشبهات ، إنه رغم الظواهر ، غير محبوب من كارولين « التى تعبث به » . . فلم يجب ، واستقر منه العزم ، لا على ملاحقة ليدى كارولين ، فالملاحقة لا نفع منها ، بل على الاكتفاء بعدم الهرب منها . .

وبعد أسبوع ،كانت له . . .

أخذها ببرود تام . وكان لها عشيقاً فظاً ، غليظ القلب ، يحكم على خليلته بصرامة البصيرة ، التى لا رحمة فيها ،ولا إبهام . . والتى هى القالب الطبيعى لعقله ، عند ما لا يحب : « إننى ماعرفت قط امرأة لها مواهب أعظم ولا أنسب منك ، ولكنها مواهب مرتبطة ، لسوء الحظ ، بالحرمان المطلق من الفطنة . . . إن قلبك ،يامسكينتى كارو (وياله من بركان صغير !) يلقى حممه ونيرانه السائلة فى عروقك ... ولقد كنت دائماً أرى أنك المخلوق الصغير ، الأخف ، والأظرف ، والأعنف ، والأحب ، والأخطر ، والأدعى إلى القلق ، والأشد جاذبية فى زمننا هذا . . . لست أريد أن أكلمك عن الجمال ، لأنى لست بالقاضى الذى يؤخذ برأيه ، ولا بالحكم الذى ترضى حكومته ! بيد أن ألوان جمالنا تتوقف عن أن تكون جميلة ، عند ما تكون بقربك..

قالت : « إنه كان يستنكف من أن يحبنى ، لأنى لم أكن رائعة الجمال » . .

وكانت لا تروقه فيها الخلال التى تكون ، هى بذاتها ، عند آخرين ، من محاسن هذا الفكر : مخيلة ألهبتها المطالعة ، فأرادت لو أن غرامها كان كغرام القصص . . وظنت أنها تستبق هذا الشاعر برواية الشعر له . فكان يصغى ، مستكبراً إلى ما ترويه باليونانية ، واللاتينية . . ويسمع نكات خليلته ، و « قفشاتها » الاجتماعية . . ويفكر فى الاسترخاء الصامت ، الذى خص الله به تلك الشائقة ، نجمة الصباح « ماريان شاورث » ، أو فى الشرقيات الصامتات ، اللواتى يتكلمن بلغة العيون .

وإذا أهمل الحضور عندها يوماً كاملا ، بعثت إليه بواحد ، أو غير واحد ، من غلمانها الصغار ، المزركشين بالخز والدنتلة . . وكانت ، هى نفسها ، أحياناً ، تتنكر فى زى واحد منهم ، لتحمل إليه رسالة . . وكان بيرون يرتاع من هذا

الهوى . . ووثقت صلتها بخادمه فلتشر ، فكانت تكتب إليه متوسلة أن يفتح لها الشقة . وإذا لم تكن مدعوة إلى حفلة راقصة سيحضرها بيرون ، انتظرته فى الطريق العام إلى ساعة متأخرة من الليل ، بلا حياء .

إنها تعبد بيرون . وهذه العبادة الساذجة منها ، كانت خليقة بأن تؤثر فيه ، لكنها أمضّته وأزعجته ، فقد رأى أنها تجعله هزءة . . بل ، ويا للدهشة ! راح يلوم الحب الذى كان هو موضعه . وتراءت له ليدى كارولين ، على ضوء ماحفظه من الكتاب المقدس ، فى صورة « المرأة النيرانية » .. كتب : « لقد شعرت دائماً ، مثل نابليون ، باحتقار عظيم للنساء . وكونت هذا الرأى فيهن ، لا رأياً فطيراً عاجلا ، بل عن تجاربى المقدورة . وحقيقة أن كتاباتى ترمى إلى إثارة هذا الجنس . . فخيلتى كانت دائماً تعمل على وضع النساء موضع المثل الجميل الأعلى ، لكنى فى هذا كالمصور ، أو المثال ، ارسمهن ، لا كما هن ، وإنما كما ينبغى أن يكن . . والنساء يعشن ، فى بلادنا ، فى مركز غير طبيعى . . بينما الأتراك خاصة ، والشرقيون عامة ، يتصرفون فى هذه الشئون خيراً منا بكثير . . أعطوا المرأة مرآة وبعض الحلوى ، فانها ترضى خاطراً ، وتقر عيناً ! . . . . . ولكن لم يكن وليم لام زوجاً تركياً ولا شرقياً . انظر إلى يومياته التى اتخذت طابعاً قاتماً من الحزن : « شر ما فى الزواج يعود إلى أنه ما من شىء فيه مقرر ثابت أبداً . فآراء النساء تصعد أو تهبط تبعاً لما يسمعنه بين الناس عن أزواجهن . . ويكون الأزواج المساكين تحت رحمة أتفه الملاحظات ، أو أسخف الانتقادات . . فالزواج يقف بالرجل ، فى المجتمع ، موقف الدفاع ، فى حين أنه قبل ذلك ، فى عزوبته ، كانت له مزايا الهجوم » . . .

وكذلك أمها الليدى بسبورو ، وقد زادت بالأمور استنارة ، صارت أشد قلقاً من زوج بنتها ، وهى قد عرفت ، فى شبابها ، أياماً هائجة ، واشتهرت علاقتها باللورد جرانفيل . لكنها لم تذهب قط ، كما ذهبت بنتها كارولين ، إلى حد التنكر فى زى حوذى نقل ، لتتمكن من الدخول عند عشيقها على حين غفلة ، وتراقبه . . أو إلى حد انتظاره واقفة ، ليلا ، كالسائلة ، عند باب حفلة راقصة ، تحت المطر المنهمر . .

ونال اليأس من ليدى بسبورو ، التى كانت بالأمس تتندّر على بيرون ، وتزعم أن بنتها تعبث به ! . . فدعت إليها هوبهاوس ، لتخاطبه فى هذه الحكاية المنحوسة ، التى تجلب العار على أسرتين . . وكان هوبهاوس مستعداً « لإعطاء درس فى الأخلاق » لصديقه ، ولكن ماذنب بيرون؟ وهل تتوقف القطيعة عليه وحده ؟ . . إن بيرون كان أشد من ليدى بسبورو إعياء ومللا من حماقات كارولين . وهو لم يخف ذلك عن حماتها ليدى ملبورن ، التى كانت امرأة مجربة ، عالمة بالنفس ، وواسعة الصدر . فتناقشت ، عن طيبة خاطر ، فى موضوع هذه المغامرة ، مع عشيق زوجة ابنها . وقد عرفت أنه يؤثر ، مئة مرة ، صحبة صديقيه مور وهوبهاوس ، على صحبة تلك المرأة التى غاض من وجهها الحياء والخفر . . زد على هذا أنه لقى أنا بلا ميلبانك تدون المذكرات كالطلاب . وإن قطع بأن مثل هذا الحب للعلم عند امرأة هو أقرب إلى الهزل منه إلى الجد . وأطلق على مس ميلبانك فى محادثاته مع ليدى ملبورن : « أميرة الأشكال المتساوية الأضلاع » ! ومع ذلك ، وكما لو كان على الرغم منه ، أحس نحوها باحترام حنون . فقد كانت على الأقل عفّة طاهرة ، هذه الفتاة البديعة التكوين ، التى تتكلم عن « كثافة الأرض » ! . .

وقدمت كارولين لبيرون ، نزولا على رغبة مس ميلبانك ، بعض أشعار بنت خال زوجها هذه ، فوجدها ممتازة ممتعة : « إنها يقيناً فتاة غير عادية . . فمن ذا الذى يتصور ، تحت مظهرها الهادىء المتئد ، كل هذه القوة ، والتنوع فى الفكر ؟ » . . وأضاف : [إننى لارغبة لى مطلقاً فى زيادة التقرب من مس ميلبانك ، فهى أطيب من أن تتصل بملاك مطرود من السماء . . وكنت أوثرها حتما ، لو أنها كانت دون ذلك كمالا] . . . إذن فهى عنده فائقة الكمال . . وقد قرأت هذا الحكم ، لأن الخطاب كان مقصوداً به أن تطلع عليه . ولا ريب أنها سجلته بتواضع الرضا والارتياح . وعرفت أن نقصها الوحيد ، عنده ، أنها كاملة .

أنّا بلّا ، الفتاة الوحيدة لأبويها ، المعبودة منهما ، المطلوبة للزواج ، منذ ترعرعها ، من خمسة شبان ، أو ستة وجهاء ، ظنت نفسها معصومة . ومع ما أوتيت من خصال نفس كريمة ، بل عاطفية ، كانت تبدو أحياناً دقيقة الحساب ، باردة الجناب ، لأنهـا تريد أن تخضع للتعقل كل فعالها . أحكامها قاطعة قاسية . تتبرم بصبيانية زوجة ابن عمتها كارولين . وتراها لا ترضى « بالنزول من ذروة الجنون ، التى يراها العالم ، فيها إلى صراط العقل المتواضع المستقيم . » . . فى حين أنها هى ، أنا بلا ، كانت تتبع صراط العقل . . ولـكن ، هل كانت تتبعه بتواضع ؟ . .

وصفتها دوقة ديفونشير بأنها : « قطعة ثلج » ، ولم تـكن كذلك . فقد كانت لها ، كما كانت لبيرون ، صداقات طفولتها الروائية . وكانت (لميلها إلى الـكتابة) تدون يومياتها ، فرأت نفسها بطلة تاريخية لكل ضروب التفانى . ثم جاء الدين ، فجعلها تحاول أن تـكبت فورانها . . وظنت أنها تمـكنت من ذلك . . واستطردت دوقة ديفونشير : [. . ولورد بيرون يحوم حولها ببعض الغزل . ولـكن الظاهر أنها غير معجبة به ، اللهم إلا كشاعر . . كما أنه غير معجب بها ، اللهم إلا كزوجة . . .]

أوليست معجبة به إلا كشاعر ؟ . . لنا أن نشك فى ذلك . فهى برغم إصغائها ، على أسف ، إلى غراميات كارولين الفاضحة مع لورد بيرون ، مقتنعة بأنه : [نادم ندماً صادقاً على ما سببه من الشر ، وإن كان لا يجد (بلاعون) الحزم والعزم ليتخذ نمطاً جديداً للسير والسلوك والشعور] . . وهو يقول عن نفسه إنه : « ملاك مطرود من السماء » . . وهى توافق ، على ظن منها أنها ربما كانت هى ، المؤمنة القوية الإيمان ، التى ستمد له يد العون ، الذى هو فى حاجة إليه ، هذا الملاك الجميل ، لينجو . . ولاحظت ، برغم بساطته معها ، أن به ميلا إلى التيه والتدلل ، وأنه يختلف كل الاختلاف مع النساء عنه مع الرجال .

لقد شغلت أنا بلا ميلبانك بلورد بيرون .

* * *

أغسطس ١٨١٢ : أصبحت تصرفات كارولين لام لا تطاق . جاءت أمها ، ذات صباح ، لتزورها ، وترجوها الذهاب معها إلى إيرلندا ، حيث يلحق بهما زوجها وليم ، ويوضع حد لهذه الحكاية . وبينا كانت بالبيت ، وصل لورد ملبورن الكبير ، وخاطب كارولين بصرامة . فثار غضبها ، وأجابته بقحة ، إلى حد أن أمها ارتاعت ، وجرت إلى الطابق الأرضى تدعو ليدى ملبورن . . ولما وصلتا معاً : الأم والحماة ، فرت ليدى كارولين ، دون أن ترتدى ثيابها . فقال لورد ملبورن : إنها هددته بالذهاب للعيش مع عشيقها ، وإنه أجابها : « اذهبي إلى الشيطان ! » . . فهرعت الوالدتان إلى مسكن بيرون . فوجداه وحده ، لا تقل دهشته عن دهشتهما . وتلهّى بهذا السعى من جانب السيدتين الكبيرتين . فقد كان منذ عام واحد مجهولا منهما . وهما الآن تتنزلان إلى التوسل إليه ، ليتدخل ، لتعود كارولين (بنت إحداهما ، وزوجة ابن الأخرى) إلى بيت زوجها ! . . فياله من ثأر غريب ! . . ونفح حوذى الأسرة مالا ، وعرف منه العنوان الذى قصدته الليدى كارولين ، فوجدها فى بيت طبيب . . فقادها ، برغمها ، إلى أمها التى أصيبت بنوبة من شدة التأثر .

وعرفت لندن كلها هذه الحكاية . ودعا الأمير الوصى على العرش ليدى بسبورو ، وقال لها إنه يعدهن جميعاً شبه مخبولات : الأم ، والحماة ، والبنت . . وإن لورد بيرون قد سحر العائلة كلها !

والآن ، الأم ، والحماة ، والعشيق ، والزوج ، جميعاً : يتوسلون إلى كارولين لتغادر لندن . وقال لها بيرون إنها إذا رفضت دلت على ضعفها وأنانيتها . فبقيت ، لتلقاه على الأقل فى صالون ما ، أو تكتب إليه فى اليوم التالى بأنها وجدته جميلا : [. . . ما أشد شحوبك ! . . إنه جمال الموت ، أو جمال تمثال من المرمر الأبيض الباهت ، جعل لونُ حاجبيك وأهدابك وشعرك جماله يبدو ويسمو . . إنى لا أراك قط إلا وتخالجنى الرغبة فى البكاء . لو أن مصوراً رسم لى هذا المحيا كما هو ، لأعطيته كل ما أملك على ظهر الأرض]

وأخيراً رضخت ، وصحبت أمها ، وتنفس بيرون الصعداء . . لقد كانت تلك

مغامرته الأولى مع امرأة من الطبقة الراقية . وألفى التجربة شنيعة . فهذه الخليلة ، الطامعة فى وقته وأفكاره ، قد بلغت بروحه التراقى . . هى ، التى ألقت بنفسها فى هذا الحب ، بعنف لا فطنة فيه ، وخرجت منه مضناة ، مريضة ، محتضرة . حضرت إحدى قريباتها وصول الأم والبنت إلى إيرلندا ، فوصفته هكذا :

[عمتى تبدو بخير ، أما كارولين المسكينة ففى شر حال . وقد رقت حتى بان هزالها ، وبدت عظامها ، وخرجت عيناها من رأسها . . وظهرت لى فى حالة أقرب ما تكون إلى الجنون . . وعمتى تقول إنها تمر بها أوقات تكون فيها مجنونة تماماً] .

ومع ذلك كتب بيرون إلى ليدى ملبورن : [عزيزتى ليدى ملبورن : أظن أنك سمعت ، وأنك لا تأسفين لو سمعت ، مرة أخرى ، أن كلتيهما فى إيرلندا فى أمان ، وأن البحر يضرب مياهه بينك وبين أصهر شواغلك . أما الآخر ، فأنت ترين أنه لايزال غير بعيد عنك . وأنك لن تأسفى كذلك لو سمعت أننى أرغب فى وضع حد لهذا كله ، ولست أنا ، يقيناً ، الذى سيعيد الأمور إلى مجاريها . وليس ذلك لأنى أحب امرأة غيرها ، ولكنه هو الحب نفسه الذى ضقت به ، وزهدت فيه . لقد تعبت من بلاهتى . وحين أنظر إلى ما أضعت من زمن ، وما تهدم ، بسبب هذه القصة ، من خططى التى رسمتها الشتاء الماضى ، أرانى اليوم كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . . وحقيقة أن الهوى عادة ، تكاد تكون ميكانيكية ، كالسباحة . وقد هويت فى الماضى كلا من السباحة والهوى . . أما الآن فلم أعد أسبح ، ما لم أقع فى الماء . . ولم أعد أهوى ، ما لم أضطر إلى الهوى اضطراراً] .

* * *

أتراه قد خلص من خليلته ؟ هيهات ! . . إنها تكتب إليه من إيرلندا رسائل خطيرة ، تذكره فيها بأنها لاتحتاج إلى أكثر من : « ثمانية جنيهات ، وكرسى فى عربة السفر ، ومركب » ، لتعود فتظهر فى لندن ، فإذا ما عنّ لها أن تشعل البارود ، وتهجر زوجها ، فإن بيرون سيرى « ناموس الشرف » يقضى عليه بالهرب معها ، ولو بغير غرام ! . . فروّعه تهديدها . . كان مستعداً لأن يعترف بكل ما ينبغى من الحب ، على شريطة ألا يراها ثانية . أما حماتها ، ليدى ملبورن ، فقد عالجت هذه المغامرة بتجرد تام عن الغرض ، كما لو كانت استشارة بين طبيبين لاختيار

أصلح دواء ، وحذرت بيرون من إظهار الضعف والعطف لكارولين ، وإلا أدى ذلك بها من حزنها القليل الحالى إلى ضياعها التام : [. . ويخيل إلى أنك تميل إلى الاعتقاد بأنك وحدك المذنب . . ولكنها لم تكن حدثة . . فهى تعرف الغى من الرشد ، ولا يمكن اعتبارها ضحية إغراء أو إغواء] . . ثم تزجى إليه النصح ، هذه المرأة العليمة بسلامة نية الرجال وسرعة تصديقهم النساء : [. . . ويلوح لى أن خير ما تفعل ، هو : أن تتزوج ، وليس من سبيل آخر لخلاصك من هذا المأزق]

أن يتزوج ! . . هذا هو ما يصادف هوى من نفس بيرون . فهو يؤمن بالزواج . الزواج وهمه الأخير . فمن كان من مثل سبطه ، وفى مثل سنه ، (ولا سيما إذا كان من آل بيرون) عليه أن يشرب ، ويقامر ، ويغازل امرأة جاره . . ثم بعد ما ينال نصيبه الكافى من المغامرات ، يقترن بامرأة لا يحبها ، من أصل كريم ، ومن كفاية الغنى ، يورثها أولاداً ، يكفل عددهم مستقبل السبط . كذلك كان قانون نيوستيد !

ولكى يطمئن ليدى ملبورن إلى الغاية ، أدلى لها باعتراف مدهش : إنه أحر ما يكون رغبة فى الزواج من بنت أخيها نفسها : مس آنابلا ميلبانك ، التى رآها مرات عديدة عند كارولين ، وطالع أشعارها . أما ليدى ملبورن ، التى ما كان ليدهشها شىء قط ، فلم تتمالك هذه المرة من إظهار الدهشة البالغة : أيمكن تصور مخلوقين يختلف أحدهما عن الآخر أشد الاختلاف من تلك القديسة المحاسبة ، ومن « شايلد هارولد » ، ذلك « الحاج الشرقى » ، الضارب فى فيافى الغرام ؟ . . « عمرك الله كيف يلتقيان !؟ » . غير أن هذا التناقض نفسه يطيب لبيرون ، وكذلك إباء تلك الشابة المحافظة ، تلك المرأة الوحيدة التى وقفته مكانه ، وجعلت بينه وبينها سداً : [. . . إنى لا أعلم عنها إلا القليل ، وليس لدى أدنى سبب لافتراض أنى من المقبولين لديها . ولكنى ما رأيت قط امرأة قدرتها إلى هذا الحد . ولعل العقبة الوحيدة عندى هى أمى الجديدة (يقصد حماته المستقبلة) التى نشأ بينى وبينها ، بالغريزة ، « قبل الهناء بسنة » ، نفور وأى نفور ! . .] . . فطلبت الليدى ملبورن بعض الضمانات ، فهو سريع التقلب .

فكتبت إليه ، إلى عزيزها « ابن أخيها » المزعوم : [أتزعم أنك تستطيع الجمع بينها وبين كارولين ؟ محال . . وإنى ، كصديقة لك ، أقول : تقل فؤادك حيث شئت من الهوى ، ولكن لا تلق بنفسك فى مغامرة جدية ، ما لم تتخلص من سابقتها] . . وعلى ذلك يجيبها بيرون : [تسألينى عما إذا كنت واثقاً من ذات نفسى . وإنى أجيبك : « كلا » . . بيد أنك أنت واثقة . . وهذا خير وأولى . وإنى أعجب بالآنسة ميلبانك لأنها امرأة ذكية ، لطيفة ، عريقة الأصل ، وهذا الأصل مما أحرص عليه فى حالة الزواج .. أما الحب ، فيمكن صنعه فى أسبوع . فضلا عن أن الزواج يفلح بالتقدير والثقة المتبادلين ، خيراً منه بالخيال والأوهام .. وهى من كفاية الحسن بحيث تحب من زوجها ، دون أن تكون رائعة الفتنة بحيث تجلب الكثيرين من المنافسين والمزاحمين . . .]

كان حظ الحب فى هذا المشروع ضئيلا ، إلى حد أن بيرون ، فى خطابه إلى ليدى ملبورن ، الذى يتمنى فيه عليها أن تطلب له يد آنا بلا من والديها ، أسهب لها وأطنب فى وصف عاطفته الجديدة نحو مغنية إيطالية ، [ليست جميلة جداً ، ولكنها على النحو الذى أحبه تماماً . . . وهى تحب زوجها حباً جما ، وهذا أفضل وأمتع ، لأنه إذا كانت المرأة تستطيع أن تحب زوجها ، فما بالك بمبلغ حبها طبعاً لمن هو ليس زوجها] ! . .

وكان خادمه فلتشر يريد سيده على الاقتران بأرملة هولندية عظيمة الثراء . . ذلك أن فلتشر ، الرجل المتزوج ، قد قرصه بعوض الشرق ، فتحرر من التقاليد المرعية ، وتدله بحب وصيفة تلك الأرملة التى يريد سيده على الزواج منها ، لتتوثق بالوصيفة صلاته ! والآن : أيهن ؟ . . فهن كثر : الأرملة الهولندية ، آنا بلا ميلبانك كارولين ، المغنية الإيطالية ! . . . . إن بيرون ينتظر ، ويتسلى بانتظار ما يختاره له القدر ، أو تختاره له ليدى ملبورن .

* * *

يالها من مسئولية خطيرة : تقديم مثل هذا الخاطب الطائش إلى فتاة من أندر فتيات عصرها ، الزواج عندها عقد مقدس ، وعروة وثقى لا انفصام لها . وبيرون نفسه ، فى ساعات تعقله ، يقول : « إنها تستحق قلباً خيراً من قلبى » . . بيد

أن ليدى ملبورن تحب هذا الشاب بيرون . وقد مس شغاف قلبها سماعها إياه يقول عنهـا ، وهى فى الستين من عمرها : إنها ما زالت يمكن إيثارها على غيرها من النساء جميعاً !.. ولعلها كانت ترى مما يرفه عنها وقوع دون چوان المتردد هذا فى يد بنت أخيها الرزينة . . [مسكينة آنا بلا ! إن عينيها البريئتين سيتضاعف جمالها لو أنها أخذت تحبك . . إن العينين بحاجة إلى هذا النوع من الالهام !..] هل ترى آنا بلا ستتألم قليلا ؟.. هذا أفضل لها وأنفع ، فى رأى ليدى ملبورن ، التى لم تكن تحب منها رصانتها الظاهرة . وعلى ذلك بدأت سعيها لإبلاغ بنت أخيها : أن عزيزها بيرون يطلب يدها !..

وكانت الفتاة بعيدة عن أن تنسى بيرون . وقامت عندها الدلائل ، أثناء مقامها بلندن ، على اهتمامه بها ، وكادت تؤمل إنقاذه ، لولا فضيحة علاقته بكارولين ، التى جعلتها تيأس من إنقاذ تلك النفس الأمارة بالسوء . وعادت إلى بيت أبويهـا ، لتعيش مرة أخرى بين الماء والسماء . وهى تحب التنزه بين هاتين اللانهائيتين : تحمد الله مبدع هذه الكائنات . وتحاول فى يومياتها أن تخط صورة للورد بيرون : [لقد كانت الأهواء رائده منذ طفولته . . . ومع ذلك فنها ما لا يتعارض ومبادىء الدين . وهو فى السر صديق متحمس لجميع العواطف الانسانية ، لكنه يحاول إخفاء خيرة ما فى خلقه تحت قناع من الكبرياء . وإذا ما تأفف أو نفر انقلب شريراً ، يحقد أشد الحقد ، ويحتقر أمر الاحتقار . وهو غاية فى الدماثة والتواضع مع الذين يقدر خلقهم . وقد يعترف لهم بأخطائه ، نادماً] . وكانت تظن أنها من أولئك الذين يقدر بيرون خلقهم . وقد أعجبت به ، وكادت تغوى ، وتهوى ، لكنها أدركت الخطر ، وتراجعت أدراجها .

ولم يكن بيرون فطناً باختياره ليدى ملبورن رسولا له ووسيطاً ، وهى التى ليس لحكمها اعتبار عند آنا بلا . فأجابت عمتها برفض مهذب : [إننى لا أكون جديرة مطلقاً بتقدير لورد بيرون ، إذا لم أقل الحق الصراح . أعتقد أنه لن يكون أبداً موضع تلك المحبة القوية التى تجعلنى سعيدة فى الحياة الزوجية .. لذلك أضلله إذا أنا دعمت ، ولو بطريق

غير مباشر ، مشاعره الحاضرة . وكنت على استعداد لتصديق شهادتك الطيبة فيه ، لولا عجزى عن مقابلة ميله بمثله ، متهمة فى هذا عواطفى ، لا أخلاقه . وبعد هذا الاعتراف الذى أُدلى به بأسًى حقيق ، خشية ما قد أسببه من بعض الألم ، أترك لحكمه تقرير ما تكون عليه صلاتنا فى المستقبل ..]

وصفوة القول أنها ترفض الاقتران به ، إذا نحن صدقناها ، لأنها لا تحبه . فيالها من تجربة طريفة ، ومغامرة جديدة لا عهد له بها من قبل : دون جوان !

١٧ — ويل من الحب !..

طلق بيرون من زمن طويل فكرة : [ستبقى نيوستيد ، ونصمد معاً ، أو نسقط معاً] . فقد بلغت ديونه خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات . وطرح القصر فى سبتمبر ١٨١٢ للبيع . وأرسل هوبهاوس المخلص للمزاد .. وراح ، طبقاً لتوجيهات المحامى هانسون ، يزايد حتى بلغ السعر ستة عشر ومئة ألف جنيه (١١٦,٠٠٠) ، مما بدا له مسلياً فكهاً ، لأن كل ما كان يملكه عندئذ ، على وجه الدقة ، جنيه واحد وشلن واحد وستة بنسات ! . ثم تم البيع الحقيقى ودياً ، واشترى الضيعة شاب يدعى مستر كلاوتون ، بمبلغ مئة وأربعين ألف جنيه (١٤٠,٠٠٠) . قال بيرون : « لقد بنيت لنفسى حوضاً للسباحة ، وحفرت قبراً .. وهأنذا سأحرم الدفن فى هذا القبر .. واعجبا ! . إننا لانستطيع حتى مجرد الاطمئنان إلى أن لنا قبراً ! »

كان بيرون سيصير غنياً من تلك الساعة ، لو أن الشارى قد دفع . غير أن الشارى لم يلبث أن اعترف بتورطه فوق طاقته . وكان هانسون ، المحامى الحصيف الحذر ، قد احتاط بشرط جزائى خمسة وعشرين ألف جنيه فى حالة عدم دفع الثمن كاملا . وهكذا ، خرب الشارى كلاوتون . وبينا رجال القانون يتجادلون ، ظل البائع ، بيرون ، يعوزه مرة أخرى المال نقداً وعداً .

وكان قد دعى لقضاء شهر أكتوبر عند أصدقاء مجده الجدد : آل جرسى ، وآل أكسفورد . أماليدى جرسى فكانت من أولئك النساء الشائقات ، اللواتى يملأن عادة الصالونات ، وتحمى فضيلتَهن قلةُ فراغهن ! . وكانت تتفجر

حيوية ، وتتكلم بالعينين ، واللسان ، والذراعين ، وكل ما فيها جميعاً ، فى وقت واحد ! . . قضى عندها بيرون فى قصرها أسبوعاً ، سماه : « أسبوع العفة » ! .
ثم قصد آل أكسفورد فى « آيوود » . وكان قد التقى شتاء بالليدى أكسفورد فى لندن ، ثم تقابلا على شاطىء البحر بعد سفر كارولين مباشرة إلى إيرلندا ، فتوثق فى الحال بينه وبينها ذلك التفاهم الأخرس ، الذى يربط شاباً ، على بعض الحياء ، وعلى الكثير من تأجج العاطفة ، بامرأة ما زالت جميلة ، تحب الحب ، وتهوى « الهوى الأعظم » ، تعرف كيف تيسر أسباب التقرّب الأولى . إنها فى سن الأربعين : الشمس فى أوجها ، قبل الغروب . . تزوجت منذ ثمانية عشر عاماً إدوارد هارلى : كونت أكسفورد ، رجلا حرم جمال الجسم وجمال الفكر على السواء ، وإن كان سليل أسرة عرفت بالظرف ، وأنجبت ليدى أكسفورد أطفالا ، كلهم كالزهور اليانعة ، يشبهون كثيراً أجمل أصدقاء أبيهم ! .

واتخذت ليدى أكسفورد لنفسها فلسفة الحنان ، وسهولة الانكسار . . ضحاها أبواها فى زواج معيب برجل لايسعها أن تحبه ، فأخذت ثأرها غير مرة . ولا يمكن أن يحلم المرء بصاحبة ألطف منها . ففى عينيها النجلاوين يتجلى دائماً ذلك الشعاع ، الحالم ، الحلو ، الهانىء ، الذى هو دائماً وعد بالمسرات ، وبشرى تتسابق بين أيدى اللذات . . لها خفة الروح ، ولمعة الذكاء . قرأت « لوكريس » ، وقدست الحب الجسدى ، ناظرة إلى الحب العاطفى كما لو كان مرضاً معروفة عوارضه ، مقدراً مداه . . امرأة متغيرة متقلبة بقدر ما هى ظريفة فاتنة . إذا ما اشتكى أحد عشاقها من أنها كسرت فؤاده ، أجابته بأن الفؤاد الكسير ليس إلا من علامات سوء الهضم ! . .

دعت بيرون لزيارتها فى قصرها بآيوود . فقضى فيه شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٨١٢ ، شهرين كانا من أسعد أيامه فى عشرة هذه المرأة الحنون ، الصريحة مثله وأكثر منه .

أما صاحبته فتحب المطالعة ، وتعزف الموسيقى ، ولا تشكو أبداً إذا ما تركها عشيقها وحدها ، ليسرح فى أحلامه . أما لورد أكسفورد فيتجول طوال يومه فى الغابات والأحراج ، يدل بذلك على أنه زوج حصيف . وعاش بيرون وخليلته كالآلهة فى الزمن الخالى ! . « يستمتعان بإخلادهما إلى سلام عميق ، بعيدين عن شواغل البشر ، معفيين من متاعبهم وآلامهم ، خالصين من كل المهالك ، غنيين بذات مواردهما ، بحيث لا يحتاجان إلى شىء من سواهما . . . » . . وهكذا طابت لبيرون الحياة ، وتذكر أيامه فوق تل هارو ، ولياليه الغنّاء فى الشرق . وتزوّد من نعيم الانفصال عن شؤون الدنيا وشجونها . .

* * *

أما كارولين فلم تقبل هزيمتها ، علمت أن بيرون نزيل قصر آيوود . فلدغتها عقارب الغيرة ، لأنها تعرف ليدى أكسفورد حق المعرفة . وكان يجىء منها كل يوم خطاب ، سواء إلى بيرون أو إلى ليدى أكسفورد : [يا عزيزتى جداً إسبازيا : بيرون غاضب منى ! . . هل لك أن تقولى له إنى لم أفعل ما يسوءه ، وإننى شقية . . قولى له إننى أعترف بكتابة خطاب شديد إليه . فاسأليه عنى ألف معذرة . وأرى من رسالته أنه زهد فى . فلن أكتب إليه بعد ، ولن أزعجه .. ولكن أريد أن تنالى منه لى صفحاً وغفراناً] .. فلم ترد ليدى أكسفورد . . فهددت ليدى كارولين بالمجىء ، وبالكتابة إلى لورد أكسفورد ، وبقتل نفسها . . وكان العاشقان يقرآن معاً هذه الرسائل المؤثرة باحتقار شديد . الآلهة المستوية على عرش الهوى تشفق من سماع نغمة الذلة والمسكنة ! . .

وأحاط بيرون حليفته الليدى ملبورن ، بحركات العدو (زوجة ابنها) : [كارولين تهدد بالانتقام فى ذات نفسها . وهذا يعنيها . . فلا أستطيع أن أعيش من دون شىء أحبه . وقد وجدت شيئاً أرضانى كل الرضا ، ولعله لا يقل رضا عنى . . وأمنيتنا المشتركة هى الراحة . . و (بعد كل حكايات ومخافات الموسم الماضى) وجدت فى الهدوء لذة مضاعفة . . وعندى عمل طويل ، ووقت قليل . وليس لدى بالتأكيد لحظة واحدة أضيعها مع تلك المخلوقة ، التى سممت حياتى . ولست أعرف من سأحب فى مستقبل الأيام ، لكننى سأظل إلى آخر لحظة من حياتى أمقت تلك المرأة . وأنت الآن تعرفين مشاعرى ، وستظل كذلك حتى فراش موتى .

ولست أفسر لها الأمر على هذه الصورة ، لأنني لا أحرص على تعاستها . وأرجو ألا أراها حتى نصفد معاً في الأغلال ، في جحيم دانتي . .]

أما ليدي ملبورن فتوافق على هذا الحزم ، وتستنكر من زوجة ابنها مراءاتها ، فقد رأتها في يوم واحد تحرر خطابين : أحدهما يفيض بالهناء والمرح والحفلات ، والآخر تشكو فيه شقاءها . . وليس مثلَ النساء هدامٌ قاسٍ لأكاذيب النساء . إن ما قد يكون باقياً في بيرون من السذاجة والشفقة ، لن يطول إزاء حكمة ليدي ملبورن اليقظة المستنيرة .

وكان يتلطف في رده على ليدي كارولين ، فظلت ، القصيرة النظر ، تمطره برسائل الشكوى والتعنيف ، حتى عيل صبره ، فكتب إليها رسالة قاطعة (ربما كانت بإملاء ليدي أكسفورد) : [ليدي كارولين . . إنني لم أعد عشيقك . وما دمت ترغمينني على الاعتراف ، بهذا الاضطهاد الذي يعز عادة في النساء . . فاعلمي أنني متعلق بأخرى ، ليس من اللائق ذكر اسمها . وسأظل صديقاً لك ، إذا سمحت سيادتك باعتباري هكذا . . وإني ، كدليل على مودتي ، أقدم إليك هذه النصيحة : عالجي نفسك من غرورك المضحك . وابسطي على سواي نزواتك السخيفة . . ودعيني في سلام .

خادمك المطيع كل الطاعة : **بيرون**]

ربما كان يعاملها معاملة دون ذلك قسوة لو أنه رآها ، فقد كانت حالتها تدعو حقاً إلى الشفقة . كان سلوكها سلوك المجانين : حفرت على أزرار خدمها : « **لا ثقة ببيرون** » ، وقلدت خط عشيقها ، وألفت رسائل مزورة ، لتسلب من الناشر موري صورة لبيرون لم يرد أن يعطيها إياها . وأقامت في « بروكيت هول » حفلة غريبة ، أحرقت خلالها تمثالا لبيرون ، بينا فتيات القرية في ثياب بيضاء ، يرقصن حول اللهب . . وكانت هي في ثياب « مملوك » ، تلقي في النار : خصلا من الشعر ، وكتباً ، وخواتم ، وصوراً من رسائل بيرون . . وتنشد أشعاراً نظمتها لهذه المناسبة !. .

وفي فبراير ١٨١٣ عادت ليدي بسبورو ، والدة كارولين ، إلى لندن ،

وطلبت مقابلة بيرون ، ودهشت من زهده فى ابنتها و نفوره منها ! . . فما أكثر الأمهات اللواتى يشاركن بناتهن بعض جنونهن ! وأرادت أن تحمله على لقاء كارولين . . فعارضت ليدى أكسفورد ، البعيدة النظر . أما وليم لام ، فإنه لما رأى امرأته مبللة بعبراتها ، حكم بأن بيرون يهينه هو ، برفضه مقابلتها ! . . قال بيرون : [إن هذا حقيقة لأمر عجب ، موجب للضحك : إذا أنا خاطبت امرأته ، فهو مهان . وإذا أنا لم أخاطبها ، فهى مهانة ! . .] . . فنصحت ليدى ملبورن بقبول اللقاء بحضور شخص ثالث شاهداً . . فقبل بيرون ، على شريطة أن يكون الشاهد : ليدى أكسفورد ! . . ولم يتم بالطبع لقاء . .

وجاء اللقاء أخيراً ، صدفة ، فى حفلة راقصة ، عند ليدى هيثكوت . وكانت ليدى ملبورن حاضرة ، متوجة بشعرها اللؤلؤى ، فى الحادية والستين ، وما زالت من أفتن نساء السهرة . وكانت أضواء الشموع تلق اللهب المرتجف ، حبيس البلور ، فتزداد النساء حسناً على حسن . وفجأة ، تحول اهتمام المدعوين ، وحملقوا بالعيون ، ليملأوا بها بيرون ، إذ وصل ، يظلع ، شاحباً ، بجماله الفاجر . .

رأى بيرون نفسه ، وجهاً لوجه ، أمام كارولين ، تنظر إليه بعينين زائغتين .

وعزف الأوركستر فى هذه اللحظة نغمات « الفالس » الأولى ، وأحست ربة البيت ببعض القلق من حرج الموقف ، فأهابت بليدى كارولين قائلة : « هيا يا ليدى كارولين ، وافتتحى الرقص ! . . » . . فقالت هذه : « آه ! . . نعم ، لشد ما أنا شاعرة بالمرح هذا المساء ! » . . ثم انعطفت نحو بيرون ، وهمست : « أظن أننى الآن أستطيع أن أرقص الفالس ؟ » . . فأجابها ، ساخراً : « مع كل رجل من هؤلاء ، واحداً بعد واحد . . وأنت تحسنين الفالس أكثر من أى سواك . . ويسرنى أن أنظر إليك راقصة » . فرقصت . ثم أحست أنها مريضة ، فلجأت إلى غرفة صغيرة أعد فيها عشاء . ودخل لورد بيرون ، وعلى ذراعه امرأة ، فما إن رآها حتى قال : « لقد أعجبت برشاقتك » . . فأمسكت بمدية ! . فقال : « افعلى ، يا عزيزتى ، افعلى . . ولكن إذا كنت تريدين تمثيل

مأساة رومانية ، فاطعنى قلبك أنت . أما قلبى ، فقد سبق أن طعنته » . فصاحت : « بيرون !.. » ثم فرت ، والمدية فى يدها . . .

ولم يعرف أحد ماذا حدث بعد . . فقد خضبتها الدماء . . ولما جاءوا يخبرون بيرون بما كان ، قال بازدراء : « حيلة أخرى من حيلها » . . وكان لهذا الحادث دويه . ونشر خبره بعض الصحف . . وبلغ من جرأتها ، بعد بضعة أسابيع ، أن ذهبت لزيارة بيرون فى بيته ، فلم تجده ، ووجدت على المنضدة كتاباً ، فخطت على صفحته الأولى : « اذكرنى » ! . . ولما عاد بيرون ، عرف خطها ، وكتب بيتين من الشعر ، يطمئنها على أنه سيذكرها بلا شك ، وكذلك زوجها سيذكرها ! . . فلن ينساها أحدهما أو كلاهما ، فقد كانت إزاء الزوج امرأة زائفة ، وإزاء العشيق شيطاناً ! . . ولم يكن ثمة ما هو أوفق لمزاج بيرون من جمعه الحليل والخليل فى الدعوى ضد امرأة أعظم جرم لها ، وهو جرم عنده لا يغتفر ، أنها أحبته . . والحق أنه كان قد ضاق ذرعاً . وكانت ساحرته الجديدة ، ليدى أكسفورد ، متغيرة ، متحررة ، تشتاق أحياناً إلى سواه ، وإن ظلت على هواه . فيزداد تغلغل زوجها لورد أكسفورد فى الغابات والأدغال ، ويرى بيرون نفسه فى عزلة ، بعض الوقت . . وهى لا تخفى عنه ما فعلت . . فيرضى ، ويخشى فقدها ، وينظم : « إنك لست زائفة ، ولكنك غير مستقرة . . تحبين خيراً من كل إنسان . . وتهجرين قبل الأوان » . .

وكانوا يعدون مشروعاً : يسافر ثلاثتهم إلى صقلية ، عند ما أظهر لورد أكسفورد ، غيرة فجائية من لورد بيرون ، فى الوقت الذى كان فيه لدى بيرون ألف سبب وسبب للغيرة على خليلته اللعوب . . فلم تلبث المرأة أن هدّأت العاصفة بالأكاذيب الملطفة . واعتزمت السفر فى ٢٨ يونيه ١٨١٣ مع زوجها ، منفردين ، فى نزهة بالبحر الأبيض المتوسط ، وحدهما . فقال بيرون : [. . بالرفاء والبنين] . . وكتب إلى نجيته : [أبحرت أمس ليدى أكفورد . . والآن ، يا عزيزتى ليدى ملبورن ، تفضلى على بألا تذكريها لى بعد . . .]

١٨ — أوجستا

كان المتفق عليه أن يصحب بيرون لورد أكسفورد وعقيلته حتى الباخرة . ولكنه عدل فى اللحظة الأخيرة ، لأن أخته أوجستا كتبت إليه أنها اضطرت إلى هجر بيتها ، هرباً من مشاكل ديون زوجها ، وأنها آتية للإقامة معه فى لندن . فرد عليها : [يا عزيزتى جداً أوجستا : لو عرفت موم تخليت عنه ، لحكمت بأننى قد صرت أخوياً بشكل غريب . . .] . .

ولم يكن رآها منذ عودته إلى انجلترا . وكانت تسكن فى « سكس مايل بوتوم » بيتاً خلوياً يجاور حلبة « نيوماركت » لسباق الخيل . بين ثلاثة أطفال وشواغل المال . أما زوجها الكولونل لى ، فهو أنانى ، ميت الضمير ، يقضى حياته فى سباق الخيل ، ويغرق لأذنيه فى الدين ، ويتصيد النساء ، ولا يكاد يرى زوجته إلا خلال موسم سباق نيوماركت . وعرف منها الإخلاص له . فقد نشأتها جدتها على التقوى . فضلا عن أن هموم البيت والأمومة لم تدع لها وقتاً للتفكير فى عواطفها . .

استقبلها بيرون فى بيته بشارع بنيت ، بعد ظهر يوم الأحد ٢٧ يونيه ١٨١٣ ، وفتن بها : راقت له ، على الفور ، جسدياً . كانت لها سمة آل بيرون ، وعادتهم الغريبة فى عدم النطق بحرف الراء (ر) ، ومط الشفتين ، إلى حد أن بيرون دهش ، وتأثر ، وارتاح إلى لقاء هذه الصورة الأخرى منه فى شخص امرأة جميلة . وكانت بينهما أيضاً بعض وجوه الشبه المعنوية . لها حياء بيرون ، واستيحاشه . ولكليهما عادة ملازمة الصمت بين الناس ، فما لبثا أن وجدا نفسيهما فجأة طليقين نحو بعضهما . أكان ذلك لأنها أخته ؟ لأن بينهما ذكريات عديدة مشتركة ؟

ومن اليوم الأول دار بينهما الحديث الحار الشجون . أسفاً على أنها متزوجة ،

فلولا ذلك لجاءت فعاشت معه، وتولت بيته. فذلك أولى من زواجه بامرأة يجهلها، هو، الذى يرتاع من المجهولين، تلك المخلوقات التى لا تعرف شيئا عن حياته، عن جوانبه الحساسة، عن ضعف ساقيه المسكينتين، عن تلك الطفولة القاسية. أما مع أوجستا فكل شيء سهل، رخى، يسير.. يمكن الاستسلام والإفضاء. وكانت تحمل لـ « بيبى بيرونه » حناناً سمحاً. فما كادت تغادره، بعد هذا الأحد الأول، حتى كتب إليها يدعوها لسهرة معه عند ليدى ديڤى: [... وأعتقد أن ظهورنا معاً سيكون له وقعه الطريف فينا، كلينا].. ووضع خطاً تحت كلمة وقعه.. وهو بلا ريب قد فسّر لها مبدأه الأثير: « إن الاحساس الشديد، أو التأثير القوى، هو وحده الذى ينبهنا إلى كياننا، ويعرفنا بذاتنا».. وكانت هى من السذاجة، ومن قلة المعرفة، بحيث تطفو على سطح الأفكار، ولا تتعمق فيها. وبدأت، تأدباً منها، تسأله عن أشعاره الجديدة، فلما أجابها بأنها لن تفهمها، ضحكت، وسرّىَ عنها!..

وكانت تمتاز مثل كل البيرونيين بموهبة التقليد الهزلى، فتبهج أخاها. ولا تكاد تتكلم خمس دقائق حتى يختلط عليها القول، فتستنجد بعبارتها: « أوه ياعزيز! . أوه ياعزيز! . Oh ! dear, oh ! dear ».. ثم تصف مرض أطفالها، لتنتقل فجأة إلى نكتة عن الملكة شارلوت، التى كانت وصيفتها.. ثم تنفجر ضاحكة.. وكان بيرون يعبد منها هذا التشتت وعدم الاتساق.. وسرعان ما جعل يخاطبها بدعابة عاطفة، أقرب إلى العشق منها إلى الأخوة.

وقضت فى لندن أيام يوليه الأولى، لم تنزل عند بيرون، لكن تجيء كل يوم إلى شقته، التى تتعهدها عجوز كالساحرة، تنفّر الزائرين، وإن كانت تعبد بيرون لأنه يحسن معاملتها، ويحنو عليها.. وتجمّع كل شيء على إغراء بيرون: هذه المرأة الشابة التى تروقه، تستطيع أن تجيء عنده بحرية. هذه النصف أخت لم تتربّ معه صغيراً، ولم تعاشره صبياً، ولا فتياً، كما هو شأن الإخوة

والأخوات . . لم يظللهما سقف واحد ، ولم يجمعهما عقل الأب ولا قلب الأم فى تلك الطفولة الطاهرة البريئة . . إنهما نادراً ما التقيا . . لم يكونا من ذات الأم ، ولا من ذات الأسرة . فاحتفظت أوجستا فى عينى بيرون بسطوة اكتشافها كبيرة . وكان اكتشافها كفيلا بأن يجعله يعجب بأوجستا هذه ، أخت الدوق ليدز ، ووصيفة شرف للملكة ، التى عرفت لندن بأسرها ، وسكنت قصر سان جمس . . فوجد فيها ، أكثر من عامل الإعجاب بها ، عامل التعلق والاستهواء . كان يبحث فى الحب عن مزيج من الصداقة المرحة ، ومن الاشتهاء ، والحنان الذى يكاد يكون أموياً . .

فما كاد يرى هذه « الأخت » ، المندفعة إليه لا تلوى على شيء ، حتى أُخذ بفكرة فاسقة . أو لم يكن يكفيه أن يتخيل عاطفة خطرة ، جامحة ، حتى يراها قدراً عليه محتوماً ؟ ! . . أليس هو من سلالة بيرون وسلالة غوردون ، المخضبتين بالاشتهاء والدماء ، كسلالة بورچيا سواء بسواء ؟ . . أو لم يكن يحس ، منذ طفولته الباكرة ، أنه مقدّر عليه جرم وحشى يجعله دون البشر جميعاً ، ويجعله خارقاً لقوانين البشرية ، فاسقاً على الشرائع الأرضية والسماوية ؟ . .

إنه فى هذه المغامرة سيحس نفسه مذنباً آثماً . وحاول أن يتلذذ بالوزر الزنيم . بل حاول أن يمسخ جريمته ، ويزيد بشاعتها ، بفضحها والإعلان عنها ، بدلا من أن ينكرها ويخفيها ويعزوها إلى نغزة الشيطان . .

أما أوجستا فلعلها كانت آخر من يستطيع مقاومته وصده . لم تكن ذات إرادة ، ولا ذات أنفة وكبرياء ، فلم يلبث أن تسيطر عليها وتسلط ، دعاها : « أوزته الصغيرة » . . وقال لها إنها مجنونة حمقاء . . فضحكت واستبشرت . . ولم يكن تدينها أو تقواها إلا شيئاً سطحياً ، فلا أثر لها فى فعالها . وكانت أشد ما تكون تأثراً بطيبة قلبها ، التى لا حد لها ، طيبة لا تقف القواعد الخلقية أو الاجتماعية أمامها سداً ، وإلا لرجعت أدراجها سريعاً ، وتولت مذعورة هاربة ، أمام

جرم هو أشنع الجرائم ، ولو كانت فيه متعة لمخلوق تحبه ... ولكنها استسلمت بجهالتها ، وحماقتها ، وضعفها ، دون أن تدرك ما ترتكب ، ودون أن تذكر بعد لحظة ما ارتكبت . .

وبعد ذلك بوقت غير طويل ، تحدث بيرون فى هذا إلى كاتمة سره ليدى ملبورن ، وحرص على التدليل على أن أوجستا استسلمت حناناً لا اشتهاء :

[أقسم بالله الذى خلقنى لشقوتى ، ولم يخلقنى يقيناً لخير الآخرين ، أنها لا لوم عليها ولا تثريب .. ولا يقاس ذنبها بذرة واحدة من ذنبى . ولم تدرك مهالك ما اقترفت إلا بعد ما فات الأوان ، ولا أكاد أجد تفسيراً لاستسلامها ، إلا أن النساء أشد تعلقاً وهياماً بالحنان ، من كل الرجال] .

وجد بيرون فى هذا الهوى الدنىء لذة حرّيفة ، بقدر ما كان يطيب له الإثم الصريح . وبدت له مغامراته السابقة تافهة ، إلى جانب هذا « الهناء » ، الممزوج بالفزع وتأنيب الضمير . هذا الزنا بمحرم ، ينتهك به حرمة أقدم قوانين البشر ، بدا له مثيراً للحم والدم والغرائز ، إثارة التمرد ، والتحدى للدنيا والآخرة معاً . . . أما أوجستا ، فراحت ، فى سذاجتها المشينة ، تستسلم : « أوه ياعزيزا .. أوه ياعزيزا .. *Oh ! dear !.. Oh ! dear !* » .

يالها من مجازفة شنيعة من أم أطفال ثلاثة ، لم تخلق لمثل هذه المأساة الفاجعة . . ومن عجب أنها ما زالت تحب زوجها ، على طريقتها . . ولكن أتستطيع أن ترفض شيئاً لهذا البيبى بيرون *her baby Byron* ! . . عند ما يتوسل إليها كالطفل ؟ . . كانت لاتعرف كيف تفكر ، فكانت لا تعرف كيف تأثم ! . أو هذا ما اعتقدته . . كانت تنتقل كالذبابة ، بلا عقل ، من شأنها إلى شؤون الناس ، ضاحكة ، مسترخية ، فاترة . . وكان بيرون ، الذى يتذوق الآن مرارة الندم ، يريد أحياناً أن يرغمها على الإشراف معه على هوة جريمتهما وهولها . . فتتملص ، وتهرب ، محاولة أن تجعله يضحك ، ويلهو عن التأمل والتفكير مثلها . . وراح وإياها يفكران فى الرحيل عن وطنهما . . لماذا لا يأخذ أوجستا بعيداً نحو صقلية ، أو اليونان ؟ . .

وكان عاجزاً عن ملازمة الصمت . فبدأ يلوّح لأصحابه ، تحت قناع شفاف ، بغرامياته الجديدة الآثيمة . . كتب إلى مور : [الواقع أنى ، فى هذه الآونة ، أعالج شيئاً جديداً تماماً ، وأشد خطراً من كل ما مر بى . . بالشقاتنا ، إذ لا نستطيع ، إزاء هؤلاء النساء ، أن نعيش معهن ، ولا من دونهن] . . وكتب إلى نجيّته ليدى ملبورن ، يفضى إليها . . فانزعجت رغم إباحيتها : [إنك على شفا جرف هار ، شفا هاوية . . فاذا لم تتراجع فقد ضعت إلى الأبد . . إنها جريمة لاخلاص منها فى هذا العالم . . وهيهات أن تجد لك منها فى العالم الآخر خلاصاً] . . ومع أن بيرون كان يرى رأيها ، فقد شعر بالزهو الشديد ، لأنه استطاع أن يصدمها بحدثه ويحرك ثائرتها ، وقال ساخراً منها : « إنها امرأة طيبة على أى حال ، لأن هناك أشياء تتراجع أمامها النساء » . . وقضى أغسطس منفرداً بأوجستا ، فى لندن المقفرة . . عالماً أن هذا الجنون لا يمكن أن يمتد ويطول ، فإن ليدى ملبورن ، فى هذه المرة ، قلقت عليه فعلا أشد القلق ، ثقة منها بأن بيرون مشرف على كارثة ، تصيبه وأخته معاً ، فتوسلت إليه أن يكف عن غيه . فلم تكن له الشجاعة ليفعل . . ولما غادرته أوجستا ، فى أوائل سبتمبر ، لتعود إلى بيتها وأولادها ، كانت حبلى . .

١٩ — دون جوان يتعفّف ! . .

لم تكد ترحل عنه أوجستا ، حتى تلقى دعوة للإقامة فى الريف ، عند زميله القديم فى كمبردج : جمس وبستر ، وهو فتى تافه ، مهذار ، فشّار ، نمّام . وكان بيرون يتسامح ، ويتسلى بالحيوانات التى من نوع وبستر : جسم ضخم ، وحلم عصفور .. وكان قد تزوج منذ سنة بالشابة ليدى فرانسس آنسلى . ورجا بيرون أن يكون عرّاب أول ولد له . وكانت ليدى فرانسس من الآيات الساحرات ، على نحافتها . . كانت وأختها ليدى كاترين نحيفتين . كلتاهما أشد نحافة من الأخرى ، وكلتاهما ذات محيا باهت كالعاج ، وشعر أشقر كالذهب ، وعينين

حزينتين ، تزينهما أهداب طويلة ، وتحيط بهما هالة عميقة . . وما كان أعظم الفرق بين هذين الشبحين الرقيقين ، وبين وبستر الغليظ اللحم ، الذى يتفزز حيوية ، ويلقى على المائدة دعاباته السوقية الوقحة ، التى ينفد لها صبر زوجته وأختها . وبيرون ساكت ، يسمع ، وينظر ، ويلهو ، لا تفوته التنهدات . . .
وكان وبستر فخوراً بزوجته ، غيوراً جداً عليها . ولكن بيرون يعرف كيف يعالج هذا النوع من الأزواج ، وكيف يروّض هذا الجنس من الحيوان . .
ظل طوال العشاء يتجنب الالتفات إلى زوجة مضيفه ، مدفوعاً بعدم الاكتراث إلى حد غير لائق . ورأى وبستر فى ذلك منتهى اللباقة من دون چوان هذا ، الذى يتقوّل عنه الناس بشرّ كثير . . ولم يكن فعلا راغباً فى أن ينال من عِرض هذا الزوج مأرب سوء . . ومع ذلك أسرف الزوج فى المودة ، وأرخى الحبال ، وسأل بيرون أن يدعوه وأهله إلى قصره فى نيوستيد . . فكتب بيرون فى المساء نفسه إلى نجيته ليدى ملبورن : [لو أننى كنت سىء القصد ، لما عزَّ علىَّ استخدام هذه الفرص كلها . . ولكننى أصبحت عفيفاً جداً ، أو كسولا جداً ، إلى حد لا أنتهز معه فرصة راضية كهذه . . وكأنه أحس تحرجى من دعوته إلى نيوستيد ، خشية الظنون ، فراح يهدىء من خاطرى ، بالافاضة فى إطراء فضائل زوجته . . وانتهى ، بعد سرد كل الصفات المعنوية والمادية ، إلى تشبيها بالسيد المسيح ! . . وأظن أن مقارنتها بمريم العذراء كانت أليق وأليق . . .] . ولما غادر بيرون قصر وبستر فى اليوم التالى ، وجه إليه الزوج دعوة حارة للعودة . ولم تقل المرأة شيئاً ، ونظرت إليه ملياً . .
فهل يعود ؟ . . قال بيرون : [. . إنى لا أدرى تماماً ما يلزم تلك السيدة . . فهى تتوقع أن تُهاجم ، حتى تنبرى لتدافع عن نفسها دفاعاً مُعَدّاً جيداً . . وقد سبقتنى شهرتى إليها ، فأدهشها منى هدوئى ، وانصرافى عنها ، وعدم اهتمامى بها ، أثناء مقامى الأخير لديها ، بحيث بدأت تظن نفسها دميمة ، أو أننى أعمى ، أو شر من ذلك . . .] . . ولكن دون چوان إذا كفّ عن التطلع إلى امرأة ، فإنه يُتهم بِشَرِّ التدابير . لقد أراد بيرون التعس

أن يحترم مرة سلام أسرة صديقة ، وصحة امرأة سقيمة . فأصبح الزوج عصبياً ، مهتاجاً ، متشككا ، يرى هذا الإهمال والتراخي من بيرون يخفيان أشنع الخطط والمآرب .

من بيرون إلى ليدى ملبورن : [أصبح وبستر لا يُحتمل . فهو يغتاظ من كتبي الايطالية (دانتى وألفييرى) ، ويسألنى ألا أظهر عليها زوجته . . لأنها لغة تسبب أضراراً لا نهاية لها ! ! . . وسألته عن صديقنا ستانهوب ورفاقنا فى الجامعة ، فأجابنى : « هل تسأل الآخرين عن أنباء زوجتى بهذه الصورة ؟ » ! . . فها أنت ذى ترين أن عفتى لابد من أن تحمل فى ذاتها مكافأتها . . لأننى ، لم أعن قط بزوجته ، لا بالقول ولا بالفعل . وهى حسناء ، غير أنها ليست فائقة الحسن ، ونحيفة جداً ، وليست فياضة بالحياة .. لكن خلقها كريم ، مع رقة فى الطبع ، ورشاقة فى الحركة . . ويقيناً ما كنت لأفكر فيها مطلقاً لو تركونى فى حالى ، فليس لى الصبر ولا العزم على التقدم ، إذا لم أقابل فى منتصف الطريق . . .]

وفى الحق ، لم يكن بيرون رجلا مغروراً ، أو ذا خيلاء ، وكان لا يتقدم أبداً ما لم يعرف أنه سيقابل . . قال صادقاً : « أؤكد أنى ما غررت بامرأة قط » . كان يقف متفرجاً ، مندهشاً من نجاحه الغرامى ، اندهاشه من نجاحه الأدبى . وظلت سهولة النساء عنده موضع دهشة ، وفى صميم قلبه ، موضع ازدراء . . ومنذ وصل إلى ذلك القصر ، اقتنع بأنه لن يهتم بهذه المرأة الشابة ، الشقراء ، الهادئة ، التى تنظر إليه من تحت أهدابها الطويلة ببرود . . ولكنها كانت ، مثل لداتها ، مستعدة لتقطع أكثر من نصف الطريق . فرتبت الأمر ، بحيث تبقى وحدها مع بيرون فى قاعة البلياردو .

من بيرون إلى ليدى ملبورن : [. . . كنا من قبل على صلات ودية ، وأذكر أنها وجهت إلى سؤالا غريباً : **كيف يتاح لامرأة يعجبها رجل : أن تخبره بذلك ، اذا لم يكن يلوح عليه : ملاحظة ميلها اليه ؟** وكذلك لاحظت أننا نلعب البلياردو دون أن نعد النقط .. فلم يكن إذن هنا ، كلينا ، اللعب . فرضيت عن نجاحى المبدئى .. ولكننى تمنيت المزيد .. فاتخذت خطوة بلا فطنة ، بالقلم والورق . . وعبرت بالنثر الحنون عن الشعور . . وكانت تلك مجازفة

حقاً . كيف أعطيها الخطاب ؟ . . وكيف تتلقاه ؟ . . لقد تلقته بقبول حسن جداً ، ووضعته غير بعيد من القلب الموجه إليه الخطاب . . وفى تلك اللحظة رأيت داخلا إلى القاعة الشخص الذى كان ينبغى أن يكون فى تلك الدقيقة فى البحر الأحمر ، لو أن إبليس كان على شىء من المجاملة ورقة الحاشية ! . . فحفظت محتواه ، واحتفظت بالورقة . . وتلقيت رداً مبهماً قليلا ، وإن كان فياضاً بحكايات عن الفضيلة وعن الحب الأثيرى ، الذى يعنى خاصة بالنفوس والأرواح ، مما لا أفهمه حق الفهم ، لقلة إحاطتى بعلم ما وراء الطبيعة . . ولكنه ، على وجه العموم ، يبدأ وينتهى بالأفلاطونية ، والغراميات الخيالية . . ولما كانت الهادية فى سن العشرين ، فان أمامنا الوقت الكافى للانتقال من التحليق فى عنان السماء إلى النزول على ظهر الأرض ! . . وخلاصة الموقف : الكثير من الاعترافات المتبادلة ، والكثير من الحسرات والتوجعات ، وكل ما يمكن إظهاره من أدلة الحب فى هذا الوقت ، وفى هذا المكان ، وفى هذه الظروف ... مساء الخير ، سأعود إلى البليارد ...]

وهكذا نرى بيرون ، الذى جاء وقلبه عامر بامرأة أخرى ، قد أُخذ أخذ عزيز مقتدر ، فى هذه المغامرة غير المنتظرة ، بل (ما هو أخطر من ذلك) مغامرة أفلاطونية خيالية . فقد قالت له ليدى فرانسس . إنه مهما يكن من ضعف قلبها ، فلن ينال منها برهاناً إلا هذا الاعتراف . فأجابها بأنه كله لها ، وأنه يقبل شروطها ، وأنه لن يحاول ، دون رضاها ، أن يسوقها إلى ما وراء وعودها . . .

كله لها ؟ . . أيمكن أن يكون مخلصاً ؟ أتراه سرعان ما نسى أوجستا ؟ . . إنه هو نفسه قد دهش من نفسه . ولكن كان الأمر كذلك ، وكان هو ، من بين جميع الرجال ، أقلهم قدرة على خداع صفاته وذكائه . . إن هذه المرأة الشابة النحيلة ، التى تكاد تكون فتاة ، قد أثرت فيه . عذراء القلب ، لأنها لم تعرف غير « عطيل » ، هذا المغربى ، الغيور ، الفظ . . وقد راقت لبيرون ، لأنها ذكرته بماريان شاورث ، فكانت : « حلوة كذكرى غرام مدفون » . . وكان يمقت العفة المرائية ، التى لا تهرب إلا لتطارد ، ولكنه يحترم الانفعالات الحنون إذا ما اعتقد صدقها . . كانت مظاهر الحياء ، والصمت ، والشحوب ،

لها عليه سلطان أقوى بكثير من عبارات كارولين لام الملتهبة جوًى وصبابة . .

ها هو ذا أمام أمر واقع ، وهو يتقبله . . هذه أول مرة منذ بضعة شهور عنى فيها بامرأة غير أوجستا . فكتب إلى نجيّته : [إن يوم أمس قد غير أفكارى ، ورغباتى ، وآمالى . . غير كيانى كله . . وهو يقدم إليك دليلا آخر على ضعفى . فلعلك لا يسوءك ، لسبب معين ، أن تسمعى بأنى قد صرت مختلفاً تماماً عما كنت . . وأن تعترفى بأن أى شىء هو خير من الحكاية الأخيرة . . ولست أستطيع العيش بغير هدف أتعلق به . . وستضحكين من تغيراتى الدائمة . . ولكنك إذا تذكرت الظروف التى قطعت اتصالاتى الأخيرة ، لم تعزى نهايتها إلى نزواتى] .

* * *

استدان وبستر ألف جنيه من بيرون ، ليتمكن من فؤاد كونتيسة سهلة المنال . فأظهر بيرون كرماً مضاعفاً ، لأنه أقرض الألف جنيه ، ولم يستغل هذا السلاح ليغزو الليدى فرانسس . ولم يسبق له قط أن عاش مثل هذا العيش . .

تجىء المرأة الشابة الشاحبة ، ذات الأهداب الطويلة ، فتجلس إلى جانبه ، وتنظر إليه بهيام ، دون كلام . وليس بينهما أكثر من ضغط اليد ، أو قبلات نادرة . . ويسهر كل منهما ، من جانبه ، سواد الليل ، ليكتب للآخر رسائل لا نهاية لها . فإذا جاء الصباح كانا كشبحين . فتقدم لبيرون قصائدها الطويلة ، فى كتاب أو نوتة موسيقى ، وهى ترمق بعينيها أثناء ذلك زوجها ، وتخصه بنظرات من تحلم به ، وتتنعّم له ! . .

أما مشاعر بيرون فكانت متضاربة . فقد ظل ، يوماً بعد يوم ، يزداد رضوخاً لهذه العاطفة العذرية . . سألته خصلة من شعره ، فقصها لها ، وأعطاها إياها . . وكانت كارولين لام قد سبقتها فى ذلك الطلب ، فتردد أمام هذه التضحية ، وأعطاها ، ضاحكا منها ، خصلة من شعر خادم ! . . فإلى أين يقوده كل هذا ؟ إلى مبارزة مع زوجها ؟ إلى خطفها ؟ . . إنه كان مستعداً لهذا وذاك .

اسمع ماذا يقول لنجيّته ليدى ملبورن : [منذ عشرة أيام . . عشرة أيام فقط ، جئت إلى هنا لأول مرة ، ومع ذلك لشد ما تغيرت حياتى . . . فلماذا ؟ . . إنها جميلة ، جميلة جداً ، ووجيهة . . . خيالية (رومانتيكية) إلى حد مروع ، حارة العاطفة إلى حد متأجج . . وهى ذكية . تكتب رسائل بديعة . . ولها صوت شجى . ولا تقول سخفاً . . فاذا ما خلت بى ، وصارت معى رأساً لرأس ، حنت ، وذابت حناناً . . أيمكن أن يكون الحال على غير هذا المنوال بين شابين أفلاطونيين !]

والأفلاطونية ، مذهب الحب العذرى ، لها محاسنها . إذ ترفع من قيمة الأشياء الصغيرة ، والزهور المتبادلة ، والأشعار المتهامسة . . وتفتح أبواب مسرات لا نهاية لها : فى ضغطة اليد ، وفى تنهيدة ، وفى لمس ثوب مرفوع قليلا ، أكثر مما ينبغى . . أما سهولة الحب فتخفض من قيمته . .

وبيرون ، الذى ضاق دوماً بكل ما لقى من شهوات الهوى ، لا يحس الضجر فى هذا المرعى . . وكانت أخطار نشوب حرب زوجية صغيرة ، ولذة أن يجد له حليفة فى شخص الزوجة الرقيقة الحساسة . كل هذا كان يشغله ، ويمتعه ، ويستبقيه .

بيد أن دون جوان ليس بالرجل الذى يعيش أفلاطونياً ، يتغذى بالخيال ، مدى الأجيال ! . . وإذا سلمنا جدلا بأن طبعه كان يتحمل ذلك ، فإن كبرياءه لا تتسامح فيه . كان خاتم الامتلاك ينقص هذه المغامرة والمعاهدة . ولو لم يكن إلا من أجل الليدى ملبورن ، لكان عليه أن ينتصر . لكن قصر ليدى فرانسس لم يكن يصلح لهذا الختام . . لا يكاد يصلح إلا لمقابلات قصيرة ، وقبلات مقطوعة سريعة . . وهو قصر لا تمكن فيه الزيارات الليلية ، والليل أكتم للسر . . فلا بد من استئناف الكلام فى شأن دعوة ليدى فرانسس وزوجها وأختها إلى قصر نيوستيد . . وتجددت الدعوة . . وقبلت . . .

فى نيوستيد ، بيرون فى عرينه ، سيد المكان والزمان . أطلعهم على روائع هذا الدير القوطى ، وبحيرته ، وممشى الرهبان ، والفسقية ، والغدران . . وملأ الجمجمة الكأس خمراً ، وأفرغها أمام ليدى فرانسس المعجبة . ونزهها فى الحديقة ، تتبعهما الوعول والغزلان ، تحت أشجار البلوط الضخمة . . فأحس بتوقيرها له ،

وطاعتها . . وكان الموعد الليلي ، فى دار يعرف مخارجها ومداخلها ، أمراً ميسوراً . . فنى منتصف الليل ، تلاقى العاشقان البريئان وحدهما ، بعيدين عن أعين الرقباء . .

وراح بيرون يفضى إلى كاتمة السر ليدى ملبورن : [. . فى يوم من الأيام ، خلصنا تماماً إلى أنفسنا ، وكاد ينقضى الأمر . . . إذن فهو انتصار آخر . وقد ضعنا ! . . غير أن الختام كان شيئاً آخر غير ما عهدت من « الانسجام » . . . قالت : « إننى بكليتى تحت رحمتك . وأعترف بذلك . وأستسلم إليك . ولست باردة ، وإن خيل ذلك للآخرين . لكننى أعرف أننى لن أستطيع احتمال التأملات التى ستتبع ذلك ، والخواطر التى ستلاحقنى . ولا يخيلن إليك أن هذه مجرد كلمات . . إنى أقول لك الحقيقة . . والآن افعل ما بدا لك » . لقد رحمتها . . وجنبتها هواى . . فهل أخطأت ؟ . . كان فى موقفها شيء خاص . . ضرب من القرار العزيم الرقيق . . بلا مظاهرة . . بلا كفاح . . على أن شيئاً مع ذلك — فثمة شيء ، لا أدرى ما هو — أقنعنى بأنها جادة . . لم يكن منها كلمة « لا » المجردة ، التى سمعها المرء مئة مرة ومرة ، بذات اللهجة . . كانت نغمتها ، وكانت هيئتها ، لاتترك مجالا للشك فى صراحتها ، ولكننى ضحيت كثيراً بالبقاء حتى الساعة الثانية صباحاً ! . . بعيداً عن كل شيء . . والشيطان يهمس فى أذنى بأن هذا الكلام ليس إلا لغواً ! . . ومع ذلك لاأدرى هل على أن آسف ، فقد بدا عليها عرفان الجميل لحلى عليها ، وتراخى فى الحظوة بها . . وأنت تسأليننى هل أنا مستعد للذهاب : « حتى النهاية » . فأجيبك : نعم إنى أحبها] .

ظل بضعة أيام صريع عراك داخلى عنيف يمزق نفسه . وهى تفضى إليه : « أولى من أن أراك غاضباً ، أولى من أن أدعك تحب امرأة سواى . . سأفعل ما تريد » . فأحس أنه من السلاح أعزل . ورآها من الشحوب والضمور : « بالبنان تنجذب » ، ورآها تكاد تهم بالبكاء . . فماذا يصنع ؟ . . أشفق عليها ، وترفق بها . وجنّبها « الهوى الأعظم » : [إنها كانت شديدة الجزع من الشيطان . . ولست على استعداد كاف لارضاء أهوائى على حساب شقاء امرأة .]

أكانت منه غلطة ؟ . . أكان مخدوعاً ؟ . . هذا محتمل ، وستقول نجيّته الليدى ملبورن ، بلا شك : إنه ما زال بالنساء غير خبير . فماذا يضيره ؟ . . إنه لايدعى معرفتهن . إنه ، لأول مرة ، من زمن طويل ، رضى عن نفسه . إنه

فى ساعة ضعف ، قد خضع لحكم الفضيلة ، فى الوقت الذى كان فيه برهان مجده يقضى عليه بأن يرد الحكم ويأباه . . هذا التعفف ، كان يحمل فى ذاته مكافأته . وهو يهنىء النفس : بأنه فلتة ليست لها سابقة ، ولن تكون لها لاحقة ! .

وفى ذات صباح افترق الحبيبان : بيرون شديد التأثر ، وليدى فرانسس لغز شديد الخفاء . .

أما الزوج ، وبستر ، فقد أعطى بيرون ، تذكاراً لهذه الأيام الخمسة عشر ، علبة للتبغ ، مرصعة بعبارة ملتهبة بالحمد والثناء ! . . .

٢٠ ـ القرصان

الحق أن الشيطان يلقى فخاخاً كثيرة فى طريق نفس ربما كانت ملكاً له قبل مولدها !.. لقد زعم بيرون أنه هرب وتملص من الجرم المحرم مع أوجستا ، وأحل محل الوزر الشنيع مشاعر كريمة . فإذا به يلفى نفسه من الخائبين الخاسرين . قوارع الأسف تعذبه ليل نهار : الأسف على ضياع أوجستا ، والأسف على إعفاء الليدى فرانسس وبستر من هواه ، والأحلام الباطلة فيما كان يمكن أن يكون . . وهو ، إذ يحس هذه الزلازل تهز الأرض تحت قدميه ، يقرض الشعر بلا عناء . فالقريض والفكر والخيال تتزاحم عليه كلما ادلهمت من حوله الأمور ، وتولى عنه هاربة إذا ما طابت له الحياة ، وعاش فى الدعة والنعيم . .

وكان يفكر فى قصة شرقية : عروس أبيدوس : تحب فيها البطلة « زليخة » أخاها « سليماً » . . قصة حب محرم أثيم ، فيها ما فيها من قصر النظر وقلة الحيطة والاستهتار بشرائع الله والناس . . ولكن أنّى له أن يكبت عبقريته ، فلا تحوم حول أمثال هذا الموضوع ! ؟ . .

ولما عاد إلى لندن ، وأراد أن يهدىء من ثورة نفسه وهيجة خاطره ، كتب ، فى أربع ليال ، هذه القصيدة ، فى ألف ومئتى بيت ! . . ومزج فيها بين الصورتين

اللتين تكبتان عواطفه وتعذبانه : « أوجستا » و « ليدى فرانسس » : [لو أننى لم أكن صنعت شيئاً فى تلك الآونة ، لانقلبت معتوهاً ، لكثرة ما نهشت من ذات قلبى .. ويا له من غذاء مرير ! ..]

ويا للأخطار المحيقة به من نشره شعراً فى حب محرم ! .. وأخطر من هذه الأخطار الاعتراف بأن لهذا الشعر علاقة وثيقة بذات حياته .. إليك ما يقوله لنجيّته ليدى ملبورن : [ستظهر حكايتى التركية الجديدة .. وهى ، لأسباب معينة ، تهمك أكثر من أى أحد آخر ... وأريد أن أرى : هل كتابالى هى أنا نفسى أم لا ؟ .]

لم هذه الاعترافات ؟ .. لم لا يلزم الصمت والسكون ؟ .. لماذا ؟ .. أيسعه غير ذلك ؟ .. إنه لم يكن ، على غرار أخته أوجستا ، يستطيع أن ينسى فعاله . إنه يعيد فى ذهنه ، ويقلب فى خاطره ، بلا انقطاع ، أخطاءه وأفكاره ، كما يجتر البعير طعامه .. وبدأ لذلك يسجل مشاعره فى يوميات ، يكشف فيها عن خبيئة نفسه المجردة ، بلا غطاء ولا رياء .. ولم تعد حياته إلا حواراً طويلا بين بيرون وبيرون . وفى المساء ، عند ما يطوى بيرون يومياته ، يكتب إلى بيرون : « الآن ، أتثاءب .. إذن مساء الخير ، يا بيرون ! » ...

ويجل الحوادث التى شهدها ، كما لو كان مراقباً يشرف عليها من قمة صخرة عالية ، وكان قد شهد رواية كليوباترة لشكسپير ، وتأثر بها باعتبار بطلتها : « خلاصة جنسها كله : محبة ، حية ، حزينة ، حنون ، مناكفة ، متواضعة ، مترفعة ، جميلة . هذه الشيطانة كليوباترة » ! . وهو يتألم . لم يعد الفكر يكفيه . يريد الفعل ، لا القول . يرى نفسه خلق ليعمل عملا عظيما .. أيظل يتمطى ويتثاءب كالحيوان الضارى وراء قضبان هذا العالم ، فيذهب من مأدبة إلى مرقص ، ويفكر فى الشرق الصامت : « فيم البقاء ؟ .. إنى لم أخلق شعبياً ، ولم أكن ، ولن أكون كذلك يوماً ما .. إننى لم أكسب قط قلوب الناس .. وحياتى هنا ليست إلا ضياعاً .. فى حين كنت هناك أعمل ، أو على الأقل أتحرك .. لقد ضقت ذرعاً ، واختنقت أنفاسى بهذه الحياة الفارغة التى أحياها .. إننى أمقت هذه الحضارة »

* * *

واستبعد ، أول ما استبعد ، شبح ليدى فرانسس . كتبت إليه رسائل عن امتزاج الأرواح . أسلوب يتعبه . وهو يعلق عليه : « إذا كان ثمة أناس يريدون الوقوف عند أول تصريف لفعل يحب ، فليس عليهم أن يدهشوا ، إذا ما أتممنا التصريف مع امرأة أخرى »..

قالت له ليدى مليورن : [لقد ما أنت سريع النسيان !] . . وهو يرد عليها : [بربك ، بحياة القديس فرنسوا وامرأته التى من ثلج ، وحياة بيجاليون وتمثاله . . ماذا لدى هنا أنساه ؟ . . بضع قبلات ، لم تضرها كثيراً ، لا ولم تنفعنى كثيراً ! .]

مقامرة صغيرة ، زادته ثباتاً على رأيه فى النساء . إن هذه الليدى فرانسس ستنتهى حتماً باتخاذ عاشق لها أشد منه حزماً وعزماً . . « يستحيل عليها أن تحب رجلا عاملها بمثل الضعف الذى عاملتها به » . .

وإذ لم تبق ثمة عاطفة أخرى تقيه وتحميه ، فقد اندفع من جديد نحو أوجستا . . وفوجىء يوماً برسالة غير منتظرة من نجمة الصباح ماريان شاورث : غرامه القديم ، (فى وريقة صغيرة) : [عزيزى اللورد ، إذا جئت نوتنجهام ، فتعال لرؤيتى ، حيث تجد صديقة : قديمة جداً و مخلصة جداً : ترغب كل الرغبة فى رؤيتك .

المخلصة لك : مارى]

أثارت هذه السطور الأربعة كل شجون الماضى . وكان يعرف أنها تعسة . فزوجها ، چاك مسترز ، زوج متعب . يقول عنه مزارعوه إنه خير السادة لو أنه دون ما هو ولعاً ببناتهم ونسائهم . فإن فارسات الصيد العريقات يتقاسمن قلبه مع الفلاحات . . أما زوجته ، الحزينة ، الذليلة ، فهى مبعدة فى آنسلى ، تسكن الآن مع صديقة لها بيتاً خلوياً صغيراً ، قرب نيوستيد . يرثى بيرون لهذه التى قست عليها الحياة ، وكانت من قبل وارثة مدللة ، تعبدها أمها ، ويعبدها أهلها ، ويعبدها هو . . فهل ينبغى له أن يرد ؟ . . إنه يعلم أنها الآن ليست كما كانت أيام صباه ، مخلوقة من معين ربانى . ولكن ذكريات عدة تربطه بها . . فأنذرته سليقة حكيمة بأن ماريان الحقيقية هى من الآن فصاعداً امرأة خياله . فما تريد الأخرى ؟ أهى مستعدة لأن تحبه . هذا قليل الاحتمال . فقد عُرفت بأنها امرأة نقية جداً .

فضلا عن أنها فى رسالتها التالية تكلمت عن [. . اعتباره كأخ محبوب . .] . .
وذكرت له أنه لن يعرف فيها المخلوقة السعيدة السابقة ، فقد نحفت ، وشحبت ، وا كتأبت . . فماذا يسعه لها ؟ . . أيذهب ليجر أذياله فى الريف مع « صداقة مريضة » ؟ . . ما نفع ذلك وغناه ؟ . . لكنه كان يغريه ، كما هى الحال معه كلما لوّحت له امرأة ، ولو من بعيد . . قلب محلق ، معلق ، يريد النزول ، والاطمئنان إلى أقرب جوار . . أتراها تستسلم ؟ . . هذا قليل الاحتمال . فلا شك أن تلك « الصديقة العزيزة » التى تعيش معها هى وحش ضار من وحوش الفضيلة .
وتتحدث مارى فى رسائلها إلى بيرون عن سمعته المروعة . بيد أنها رغم هذه السمعة المروعة كتبت إليه . . أليس هذا إقراراً ؟ . . أو ليست مثل ليدى فرانسس ، والأخريات جميعاً : تنسلّ ، وتهرب ، ليلحق بها ، ويتقرّب ؟ .. أفلا تراه يغامر ، إذا تعرض لهذا العبث ، بصدمة أخرى تحرك داءه القديم ؟ . .
استشار ليدى ملبورن ، فأعلنت له أنها لم تعد تفهم ، ولا تفرّق ، فقد اختلط عليها كل ذلك القطيع من النسوة !.. وهو أيضاً لم يكن يتبين أين هو من القطيع .
كان ضعيفاً . فمنذ تضاءل تذكار ليدى فرانسس ، حلت محله أوجستا من جديد . بعد أن كاد ينساها . وكان قليلا ما كتب إليها فى تلك الأثناء . فظنته غاضباً . ومع ذلك أرسل إليها فى نوفمبر صورته . وهى ، هى التى كانت تخشى أن تحب ، وتخشى أن تكون أصبحت غير محبوبة ، قد بعثت إليه بخصلة من شعرها ، مع عبارة بالفرنسية : [... أن أشاركك عواطفك ، وألا أرى إلا بعينيك ، وألا أتحرك إلا بشعورك ، وألا أعيش إلا لك : تلك هى أمانى ، ورغباتى ، والمصير الوحيد الذى يجعلنى سعيدة] . .
وكتبت تحت خصلة الشعر : « أوجستا » فأضاف بيرون : « هذا شعر التى هى احب من أحببت » . . .

ولم يعد يحاول المقاومة . لقد استغرقته هذه العاطفة ، ومحت كل ما سواها ..
كان أشبه بذاك الذى تعود تناول السم الزعاف تدريجاً ، بحيث لم يعد يجد

فى السموم الأخرى علاجاً أو خلاصاً من أوجاع الحياة . . وطفق يكتب قصيدة « القرصانه » . وكان الشبه بين البطل « كونراد » وبين « بيرون » بديهياً وثيقاً : منبت كريم ، ونفس رقيقة ، وعاطفة جامحة . ويأس ، وهيجة ، وقنوط . . غير أن البطل رجل عمل ، وزعيم قرصان ، وبيرون رجل شعر وخيال . كونراد قوى ، وبيرون أعرج . ولكن تجمعهما مراهقة ساذجة . فقد أدخله الرجال ، والنساء خاصة ، مدرسة الإخفاق . فتكسرت فى قلبه نصال الخيبة على النصال . . والنساء لا يحببن فى الحب الخيال !. .

ولم يكد بيرون يسلم مخطوط القرصانه لناشره مورى ، فى ١٧ يناير ، حتى سافر مع أخته إلى نيوستيد . وكان كل ما فى القصر الدير مغطى بالثلج الناصع . فتألق تحت سماء الشتاء . . إنه معها ، يلعب ، ويمرح ، ويضحك . وليس بحاجة إلى اقتحام الطرق المغطاة بالجليد ، ليزور ماريان شاورث !. . وأخذ يعطى أوجستا دروساً فى الإيطالية ، بينا ضحكاتهما ترن فى القاعات ذات القباب . وليس إلا ليدى ملبورن ، مستشارته ، التى تبعث ، من بعيد ، بالتحذيرات والإنذارات : أفلا تراه وأخته يثوبان إلى رشدهما ؟.. وهو يقول ، رداً عليها : « إن الرجل العاشق رجل أعمى ، كالعشق » . . ورأت أخته كيف يأرق ليلا ، ويضع إلى جانب سريره الغدارات المحشوة ، ويتكلم فى كابوس أحلامه المزعجة ، ينادى أحياناً خادمه فلتشر ليطمئنه ويهدئه . . . وحكمت أوجستا بأنه إذا تزوج لا تكاد زوجته تطيقه . . .

ثم غادرته فى آخر يناير ، وقد تقدم حملها ، وعادت إلى بيتها ...

* * *

قلما يكون المرء شقياً ، إذا عاش وحده بصحبة مخلوق يحبه . كان مقام نيوستيد خلياً سعيداً . فما إن عاد بيرون إلى لندن ، حتى هبت عليه الزوابع من كل جانب . فإن غرامياته مع أوجستا قد ذاعت وشاعت . وراحت كارولين

لام تفشيها، وتنعاها.. وقرأ طلاب «إيتون»: «عروس أبيدوس»، وسألوا أحد أقارب أوجستا عما إذا كانت هي زليخة!..

وفي صالون ليدي هولاند لا يملك بيرون لسانه من البوح، فيعالج أجرأ النظريات عن علاقات الإخوة بالأخوات. ويقول: «توجد امرأة أحبها حباً مبرحاً، تنتظر طفلا، فاذا كان بنتاً، سميتها «ميدورا»...» (يقصد بطلة قصة «القرصان»).

فإذا ما خرج هز الصفوة من النـاس المجتمعين في الصالون رؤوسهم. فقد كان التشبيه لا يحتاج إلى تدليل.. كان سعيداً إذ يجد نفسه مرتكباً جريمة لا منجاة منها، جريمة تجعل الدنيا تمقته وتزدريه. ولم يكن في السياسة أشد حذراً وفطنة. كان يعلن للناس أن بطله الأوحد هو نابليون، عدو انجلترا الألد، الذي تحاربه البلاد. فراكم أعداء على أعداء. وحملت لندن الضغينة والحقد على هذا الشاعر، الذي يتباهى بجماله، ويدل بعبقريته، ويتكلم بلا حيطة.. فهبت الصحف تطعن بيرون: في رأيه السياسي، وفي خلقه، وفي شعره، بل وفي عاهته.. وكانت هذه الحملات الشعواء، كالعادة، سبباً في رواج «القرصان» رواجاً لم يسبق له مثيل. ففي يوم نشره بيع منه ألف وثلاثمئة نسخة، وهو رقم قياسي بالنسبة لديوان شعر.. وتداوله أناس، من كل الطبقات، ما كانوا ليقرأوا قبل ذلك شعراً... وكذلك أصبح بيرون بعد «القرصان» شاعر كل المتمردين، وكل اليائسين من الحرية السياسية أو العاطفية في أوربا..

* * *

لندن. وحيد بين قومه. بلغ السادسة والعشرين. قال: «عمري بالقلب، ستمئة عام، وعمري، بالفطنة، ستة أعوام!». فماذا بلغ من دهره؟! من ذا الذي يحبه؟ إنه، ولو لم يعد بطل الموسم، ما زالت الدعوات تترى عليه. ولكنه استوحش، لا يكاد يطيق أحداً: «لا شيء مثل وجود المرأة يخفف ما بي.. إن تأثيرها غريب، حتى ولو لم نكن نحبها.. ولست أستطيع تفسير ذلك، لأنني لست حسن الظن كثيرا بهذا الجنس.

ولكن هذا هو الواقع . فانى أكون أطيب معشراً بحضرة المرأة . . حتى خادمتى العجوز الحيزبون ، تضحكنى وتسليني . . . »

ووضعت أوجستا طفلة ، بلغ من تهوره وحماقتها : أن أطلقا عليها اسم بطلة القرصان : « ميدورا » . . وما زال بيرون هائماً بأوجستا هياماً يائساً لا يقاوم . . يكتب لها شعراً لعله أجمل ما نظمه حتى الآن : « إننى لا أنطق . ولا أكتب ، ولا أتنفس باسمك . إن فى هذا الحب جرماً ، وإن فى هذا الاسم ألماً . . غير أن الدمعة التى تحرق الآن خدى تشف عن الخواطر العميقة المستكنة ، فى صمت هذا القلب . .

هذه الساعات ، القصيرة جداً بالنسبة لعاطفتنا ، الطويلة جداً بالنسبة لسلامنا ، أتراها تقف أفراحها ومرارتها عند حد ؟ . . إننا سنندم ، إننا سنرعوى ، إننا نريد أن نحطم أغلالنا . . إننا سنفترق ، وسوف نهرب . . وإنما لنعود فنجتمع ونتحد من جديد !. . آه ! . . ليكن الهناء وقفاً عليك ، وليكن الجرم وقفاً على . . فاغفرى لى ، يا معبودتى ، وتخلى عنى إذا شئت . . بيد أن هذا القلب ، الذى هو لك ، سيفنى دون أن يذل . . إن الرجل لن يكسر ما تستطيعين أنت أن تحطميه . . . »

فماذا ترى خطر لأوجستا ، المبلبلة فى خجلها ، عند قراءة هذا النداء الشغوف ؟ . . إنها لا ريب قد فخرت وانتفخت . هى أيضاً تحبه ، على طريقتها . وكانت تريد أن تزوجه ، لتضع حداً لعلاقتهما ، ولكنها كانت إزاءه مسلوبة الإرادة . كان أخاها ، وكان أعزب ، وكان غنياً . . وفى حياة شاقة عسيرة كحياتها ، لاح لها كالمنقذ المنجد . . فأطاعته .

* * *

سقط نابليون بونابرت ، بطله الأثير . . وانجلترا فى أفراحها ، ترقص فرحاً بالسلم ، كما رقصت تمجيداً للحرب . وأقيمت الحفلات الراقصة لإمبراطور روسيا وملك بروسيا . ونظم نادى بيرون حفلة متنكرة للدوق دى ولنجتون ، تزيّ فيها هوبهاوس بزى ألبانى ، وارتدى بيرون مسوح راهب . والنساء من حوله ينظرن مفتونات بجماله . . . ولما عاد عند الفجر إلى مسكنه ، راح ينظم

قصيدة كبرى اسمها : « ورا » . . لم يكن للارا وطن ، ولم يكن له عصر . كان هو البطل البيرونى ، بطبعه الكريم ، وقلبه الذى خلق للحب ، وذوقه الميال للخيال والأوهام . . كان « ورا » يشبه « كونراد » الذى يشبه « شايلد هارولد » الذى يشبه « بيرون » . . يحب كثيراً ويبغض كثيراً . يكره الناس ويسرح ويمرح بينهم . له ابتسامة ، ولكن عليها طابع السخرية والاحتقار . لايضحك ، ولكن فى عينيه نظرات حلوة . . نفسه نزاعة إلى الكراهية من كثرة ما أحب . . كان يزدرى كل شيء . . كان غريباً فى عالم الأحياء . كان الروح الحائر ، المخلوق الذى ولد لحياة فوق البشرية ، وقاده قدره ومصيره إلى الإجرام .

وجاء الصيف . فأخذ بيرون أوجستا إلى شاطىء البحر ، حيث قضيا معاً فى « هستنجز » شهرى يوليه وأغسطس . وكان الجنود ينشدون للامبراطور فى باريس : « إنه سيعود . . . » . . وينادون به . .

وراحت أوجستا وأخوها يتبادلان رسائل ، كرسائل الأطفال ، ملؤها الصلبان ، علامة الحب والحنان : † † † † † † † † † † † † †

٢١ ـ خطبــة

نيوستيد . ظل المحامون عن الشاب كلاوتون ، الذى اشترى نيوستيد ، يتناقشون مع هانسون ، محامى البائع ، بضعة أشهر . لكن العقد كان متيناً . فلا سبيل إلى خلاص كلاوتون من الصفقة إلا بخمسة وعشرين ألف جنيه تعويضاً . . وهكذا استرد بيرون قصره ، وسدد بعض ديونه . وجعل فى وحدته يفكر فى الزواج . ولم لا ؟ هذا الدير الحزين فى حاجة إلى رفيقة ، تبتسم فيه ، وتسلى « الأسقف » الشاعر ! . . « لا أحب الوحدة بقدر حبى تفسير الوحدة لامرأة أحبها . . »

وكان الزواج . من بين ألوان الحب جميعاً وأشكاله ، هو الذى لم يجربه بعد . . وهو يحب كل ما يحمل على الدهشة ، وكل ما ينطوى على الخطر . رجل له ما له من سمعة ، أليس الزواج بالنسبة له أمراً مدهشاً ؟ . . ودفعه خلصاؤه إلى ذلك . وكتبت إليه ليدى ملبورن تقول : إن خلاصه لن يكون إلا على يد زوجة شرعية ، واقترحت أوجستا للزواج منه إحدى صديقاتها .

من بيرون الى ليدى ملبورن : [أعتقد أن زواجى هو القرار الحكيم . . ولكن ممن ؟ . ليس عندى قلب أقدمه ، ولا أنتظر لقاء ذلك قلباً . . . وما أعوزنى إلى رفيقة ، أو بالأحرى صديقة ، أكثر منها امرأة تذوب عواطف . . فقد رأيت الكفاية من زيجات الحب ... وأخشى ما أخشاه أن أهيم حباً بزوجتى ، لأن للعادة تأثيراً غريباً على مشاعرى . وفى هذه الحالة أنقلب غيوراً ، وأنت لا تعلمين عندئذ : أى شيطان تصنع منى الغيرة الشريرة !]

من يختار ؟ . . أمامه خمس عرائس أو ست . وفى مقدمتهن « آنّا بلاّ » . . ومن عجب أن هذين المخلوقين ، هو وهى ، المختلفين أشد الاختلاف عن بعضهما ، ظلا ، عامين ، لا يستطيع أحدهما أن ينفصل عن الآخر تماماً . كان بيرون يريد أن يسترد اعتباره بعد رفضها إياه : [لا بد لى من الاعتراف بأنى لن أستطيع أبدا نسيان : لا ، التى صدرت منها فى الصيف الماضى . . حتى لو أصبحت غداً : نعم]

أيمكن أن تحب هذه الفتاة الهائمة بالنظريات والمعادلات واللوغاريتمات ؟! ما ألذ إذلال مثل هذا الضمير النفور ! . .

ومن غضب الله عليها أنها كانت ، من جانبها ، توّاقة إلى هذا الغزو الخطر . أليست حقيقة بأن تدل وتزهى ، إذ اجتذبت « عاشقاً » تتنازعه النساء ، وتبتهل إليه عبثاً قريبتها كارولين لام . . فضلا عن اقتناعها بأنها الوحيدة التى تستطيع إنقاذ هذا الآثم الجميل . . يستطيع الحب أن ينسلّ إلى القلوب المحروسة جيداً ، ويتخفّ بصور غريبة . فهى ، مثال الهدوء ، منذ ما رفضت بيرون مثال الهياج ، تتحرى أعماله . وكانت الإشاعات السخيفة ، السيئة القصد ، تدور دائماً فى لندن

حول لورد بيرون : يقولون إنه سيحمل معه إلى جزيرة ما ، بنت ليدى أكسفورد الكبرى ، ويربيها ، ويبنى بها . . ويقولون إنه أساء معاملة الشاب كلاوتون ، الذى اشترى نيوستيد ، إذ تورط هذا فى المزاد ، فلم يقله بيرون من عثرته بل خربه . وكانت هذه الإشاعات تحزن آنابلا . فكلفت عمتها ليدى ملبورن أن تحمل إليه تقديرها ، وأنها تسعد إذا كان سعيداً ، وأنها لا تصدق فيه قول السوء . وأنها تتمنى رؤيته ، ولو خاطرت بسمعتها فوصفت بأنها غزل له *Flirt* ! . .

وأخيراً ، حدث ، لأول مرة ، فى أغسطس ١٨١٣ ، ما يعد تهوراً مدهشاً من فتاة متحفظة مثلها ، إذ كتبت إليه ، ففسرت موقفها السابق منه ، بأنها كانت متعلقة بحب سواه (وكان هذا كذباً منها . . ولكن المسكينة ظنت أنه لباقة !) ، وعرضت عليه صداقتها ، ومنحته نصائحها : [ألاّ يكون عبد ساعته ، وألا يعصف فى مهاب الحياة بنزعاته النبيلة . . وأن يعمل الخير . . وعمل الخير يقتضى أن يحب الناس ، وأن يحتمل ضعفهم ، وعجزهم وبجرمهم . . .] . . مرحى ! . إن القرصان لاشك قد ابتسم . . ولكنه رد عليها بخطاب رنان : إنها أول امرأة أراد أن يقودها نحو الهيكل ، ولعلها الأخيرة . وصدقت ليدى بيرون ، إذ قالت إنه آثرها على أية امرأة سواها . وهذا حق . وما زال قائماً : [. . وإنى لأشك ، بعد رفضك ، فيما إذا كنت كففت ، أو سأكف يوماً ، عن حبك . . ولكن أيا كانت عواطفى ، فهى لن تعرضك من جانبى لأى اضطهاد] . . يا له من طيّع ، جاد ! . ولشد ما يعز على ليدى ملبورن أن ترى فى هذا الأسلوب صاحبها دون چوان ! . . وفى الحق ، أتراه هو نفسه يعرف أنه كان فى هذا عابثاً ، أم كان مخلصاً ؟ . . إن مثله مثل كل المخلوقات ذوى المخيلة العظيمة ، يتلون بطبيعته ، كالحرباء ، يخلق أمام نفسه تلك الفتاة فى اللحظة التى يكتب فيها إليها . . إنه يذكر وجهاً منسجم التقاطيع ، ويذكر جسداً فريد التكوين . . .

وكان يريد أن يقع من نفسها ، فعمل على إرضائها . . واستمرت رسائلهما . .

وشغلت آنّابلاّ ، وآخذت نفسها على ماكان من رفضها إياه ، دون تبصر ، وحاولت أن يقدم إليها نفسه من جديد .. آه ! .. لشد ما تلوم نفسها الآن على أنها ادعت عنده تعلقها برجل سواه ! ..

مسكينة آنّابلاّ ! .. لقد كانت تحس بخشوع الدنو من شخص عزيز مريض ، لتمرضه وتشفيه .. وكلما شعرت بابتعاده عنها ، تهافتت على الكتابة إليه .. لم تعد تستطيع انتزاع تلك الصورة المدهشة من فؤادها . تراه لا يبذه فى وصف العواطف إنسان : [إن وصفه الحب يكاد يجعلنى أنا نفسى عاشقة] .. وحدّثت فى هذا كل أصحابها ، وكتبت إلى عمتها ليدى ملبورن .. إذن فهو قد لبس روحها ، وسرى فى جسمها ، من حيث تدرى ولا تدرى .. هى التى ظنت نفسها واثقة تمام الثقة من نفسها ، لا نظير لجدها ، ووقارها ، ومعرفتها ! ... هو عندها مخلوق ضال شقى ، تريد أن تبصّره بالفضيلة ، وتضع يده على الهناءة ، وتهديه سواء السبيل ..

واندفعت فحملت والديها على توجيه دعوة إليه ، ليجىء إلى قصرهم فى « سيهام » ! ...

ولعل آنّابلاّ كانت تشتد دهشتها لو علمت بأنه ، فى خلال هذه المراسلات الحارة ، كان شديد التطلع لمعرفة ما إذا كانت ليدى فرانسس وبستر قد قررت ، أو لم تقرر ، بعد ، خيانة زوجها ! ..

* * *

وفى أوائل أغسطس ١٨١٤ ، كتب إليها بيرون ، من نيوستيد : [لقد أحببت دائماً .. وإنى أحبك .. وسأحبك على الدوام .. ولما كانت هذه العاطفة ليست وليدة الارادة وحدها ، فانى لا أرى لدائى دواء .. ولما بدأت صلاتنا ، خيل إلى أنك المرأة المثلى التى تجعل أى رجل سعيداً ، ما لم يكن مجنوناً أو خبيثاً ... ولكن قيل لى فى تلك الآونة إنك متعلقة بغيرى ، وتكادين تكونين مخطوبة .. وإنه لمن العسير جداً الالحاح على امرأة بأن تفسر نفورها .

ولعلك كنت تحبينني لو استطعت . . أما وأنت لا تستطيعين ، فلا أرى فى هذا عليك تثريبا] .

يا له من خطاب متواضع ، أشد خطاب حرره توسلا !! ومع ذلك ، فعلى هذه المفاتحة التى كانت تنتظرها منذ بضعة أشهر ، ردّت برسالة عقلية ، كرسائل الحواريين !.. تساءلت فيها عما إذا كانت فعلا هى الرائد الذى يسدد خطاه على هذه الأرض ، ويهيء له من أمره رشدا . . فتضايق بيرون وسخط . . وخول لأخته أوجستا أن تطلب للزواج منه صاحبتها « ليدى شارلوت لفسون جوهر » مع أسفه على آنا بلا . . فما كاد الرد يجىء من والدى شارلوت بالرفض ، حتى جرب حظه مرة أخرى ، وكتب ثانية ، فى ٩ سبتمبر ، يسأل آنا بلا ، صراحة ، هل زالت « الموانع » التى كانت عندها قائمة ؟ وهلا يمكن التغلب عليها ؟.. وأى مسلك وسير من جانبه ، أو تغيير ، يكفل إزاحتها وإزالتها ؟ ولم يكرر لها فيض عواطفه ، حتى لا يزيد استياءها !. وظل ينتظر الرد بفارغ الصبر . وكانت أوجستا يومئذ معه فى نيوستيد . فلاحظته ، فى ساعة وصول البريد ، يجلس على درجات القصر ليرقب وصول الساعى . وبينما كانا ، ذات صباح ، يتناولان الفطور ، دخل البستانى ، وقدم لبيرون خاتم أمه ، (وكان فقد منها قبل وفاتها ، وعثر عليه البستانى وهو يفلح الأرض تحت نافذة غرفتها) . . فرأى بيرون فيه فألا حسناً . وفى تلك اللحظة نفسها جاءوه بخطاب ، فقال : « إذا كان يتضمن القبول ، فان هذا الخاتم سيكون خاتم الزواج » . . وكان الخطاب من آنا بلا : [إننى ، من زمن طويل ، أقسمت لنفسى أن أجعل من هنائك أول غرض لحياتى ، فاذا استطعت أن أجعلك سعيدا ، فليس بعد ما يشغل فكرى . وإنى أضع ثقتى فيك . . عن كل ما أرغب ، وعن كل ما يمكن أن أحب . .] . . وأتبعت ذلك برسالة أخرى على عنوانه الثانى : [. . . أكتب إليك أيضاً ، لأحول دون لحظة قلق قد يساورك ، لأقول لك : إننى أؤمل أن تجد فى خطابى الآخر كل ما تشتهى] . ظفر بيرون . وأعطى أخته الخطاب ، فقرأته ، وأعلنت إعجابها به . واعتزمت لساعتها أن تكون أخت زوج كاملة . واندفع بيرون يكتب إلى قصر سيهام ،

ثلاث رسائل فى ثلاثة أيام : [. . . أعطتنى رسالتك وجوداً جديدا . . . إن فى مقدورك أن تجعلينى سعيدا ، بل لقد جعلتنى كذلك فعلا . .] . . ثم عبر لها عن موته شوقاً إليها ، وأنه يرغب فى رؤيتها فى أقرب وقت : [. . عند ما جاءت رسالتك ، كانت أختى إلى جانبى ، فراعها الأثر الذى أحدثته . . والذى كاد يكون ، لحظة ، مؤلماً] . . [. . ستكونين رائدى الحكيم ، وتكونين صديقتى . . قلبى بمجامعه لك . . هذا هو خطابى الثالث ، فى أيام ثلاثة . .] . . ويختمه بقوله : [تقبلى مشاعر الاحترام . . وهل أستطيع أن أضيف الكلمة : الحب ؟]

دون چوان خاطب !.. طرافة المغامرة تسحره وتبهره . كان حقاً يؤمل فى الهناء . أو لم يتمنّ دائماً الزواج منذ أيام ماريان شاورث ؟ . أو لم يكن بحاجة إلى الهدوء ؟ . . أفى وسعه أن يجد قرينة خيراً من هذه الفتاة الفضلى ؟ . . أتراه لا يحبها ؟ . . ولكن الحب يجىء فى يومين : ما أسهل الحب لديه ، وأسرعه إليه !.. ولم يلبث أن أعلن النبأ السعيد إلى نجيته العزيزة وكاتمة سره ليدى ملبورن ، مخاطباً إياها : [عمتى العزيزة ...] (ذلك أنه لا يلبث أن يكون زوج بنت أخيها !..) .. ويختم خطابه : [... أفترض أن الرجل المتزوج لا يستطيع أن يتخذ له نساء أخريات ؟ إنى أسألك هذا مجرد سؤال ، من قبيل العلم بالشىء !...] .. وكذلك أعلن الخبر لأصحابه . كما أعلنته آنابلا من جانبها . منوهة بـ : [خلقه الحميد ، والتعساء الذين عزاهم وأقالهم من عثارهم ، والفقراء الذين أنقذهم من ذلهم ، والخدم الذين كان لهم خير سيد كريم . .] . . لقد كان جهلها بخلق خطيبها وطبيعة حياته يدعو إلى التأثر : [... لقد اتخذت منه خير كائن يعيننى فى الرحلة نحو الخلود] ! . .

ومن الطبيعى ، وا أسفاه ، أن الفتيات ، اللواتى ما زلن جاهلات بالمشاعر والعواطف ، يحوّلن رغباتهن إلى أحكام !...

واستمرت المراسلات بين لندن وسيهام . وهو يطمئنها على مشاعره الدينية ، ويمنيها بأنه ، ولو لم يكن مؤمناً ، سيستمع عن طيبة خاطر إلى آرائها وحججها . وهى تطمئنه إلى أنها غير متعجلة هذا التحول منه ، والارتداد إلى حظيرة

الإيمان . كانت تخشى أن يتأثر ، وينفر مما عرف عنها من « الحنبلية » وشدة التمسك بالدين . . وكانت تعرف أنها امرأة ، كاملة الأنوثة ، وأنها تعشق هذا المحيا الجميل . . فلماذا يقول الناس عنها إنها باردة ؟ . . وأعادت تلاوة الرسائل التى حدثها فيها بيرون عن أول عهدهما بالحب :

من بيرون الى مس آنابلا ميلبانك :

[... ربما كنت لا تذكرين أول مرة التقينا فيها ... ولم أكن أعرف اسمك ، وكان الصالون غاصاً بالزائرين . وكنت أكاد ، أنا نفسى ، أكون أجنبياً . أحسست بالوحشة والخجل . وأدركت أنك إنسانة أرق من كل الموجودات . . . لست أريد أن أقول إنى أسألك حمايتى ورعايتى ، فهذا دور الرجل . . وإنما أريد أن أقول إنى لا أريدك لى حباً فقط ، وإنما الناصحة المرشدة ، والرقيبة الموجهة . . عند ما ينبغى] .

من مس ميلبانك الى بيرون :

[... إنى أذكر ، بطريقة لا تحتمل شكاً ولا إبهاماً ، كل لقاء كان بيننا . ولا سيما صبيحة ذلك اللقاء الأول الذى تشاكلت فيه تأثراتنا ، وانسجمت فيه أفكارنا . إنى أحس معك ، ومعك وحدك ، أننى فى الحى at home . . ولا أجد غير هذا تعبيراً . حين قدم إلينا العشاء ، كنت جالساً بين عمتى ليدى ملبورن وبينى ، ولكنك لم تتكلم إلا معها . وسمعتك تقول : « الحمد لله ، ليس لى فى هذا العالم صديق » . . ولم تعرف مدى الألم الذى سببته فى تلك اللحظة لصديقة كانت جالسة إلى جانبك ، هذه الكلمات المرة قد أثلجتنى . فلما عدت إلى البيت ، ودخلت فى وحشة غرفتى ، بكيت ، إذ تذكرتها ، وصليت ، سائلة لك عزاء صديق على هذه الأرض ، ورحمة الله التى فى السماء] .

تأثر بيرون ، حتما ، من هذه الرسالة الجميلة المخلصة ، ولو لحظة . . بيد أنه قبلما يغادر نيوستيد إلى لندن ، حفر على شجرة فى الحديقة : الأحرف الأولى من اسمه هو واسم أوجستا . . .

٢٢ – زواج !

هو إذن فخور بغزوته وانتصاره ، وإن لم يستقر عزمه ، بعد ، على السفر إلى سيهام ، محتجاً بوكيل أعماله هانسون ، المحامى الحذر ، الذى كان يعد للزواج عقداً محبوكاً . وكان بيرون ، رغم رزوحه تحت عبء الديون ، لا يريد الآن زواج مال . وبالطبع سره أن يضيف دخلا إلى دخل غير كاف . لكن السير رالف ميلبانك كان غنياً جداً فيما مضى ، قبلما ينفق كثيراً على الانتخابات . فأعطى دوطة لابنته : ألف جنيه سنوياً ، منها ثلاثمئة كمصروف ليدها ، وسبعمئة للورد بيرون مدى الحياة . وستكون آنابلا ، يوماً ما ، وريثة لورد ونتوورث ، خالها الذى سيترك لها سبعة أو ثمانية آلاف جنيه سنوياً ، تقسّم ، طبقاً للقانون ، بينها وبين بيرون . ولكن بيرون ، من جانبه ، يعترف لزوجته ، بموجب عقد ، برأس مال ستين ألف جنيه ، تأخذها من ثمن ضيعة نيوستيد ، التى يقدر دخلها بألفى جنيه . وطالت المفاوضات ، والأخذ والرد . ولم تتدخل مس ميلبانك فى شىء من هذه المناقشات . أما هو فلا يمكن أن يقال إنه تزوجها لمالها ، لأن كل ما يعود عليه من هذا الزواج هو زيادة فى الدخل ، أقل بكثير من زيادة الخرج ، التى تُكبّدها نفقات الحياة الزوجية وتربية الأولاد .

لا . إنه لم يتزوجها إلا لأن للزواج وقعه المدوّى فى نفسه ، وتأثيره الذى لا عهد له به ، وانفعاله الذى لا يعرف مداه ، ولأنه أحس الحاجة إلى « مستشارة » ، ولأنه زعم فى بعض الأيام أنه يحبها ، على طريقته فى الحب . . ولكن ما من شىء يضجره أكثر من هذه الرحلة المفروضة إلى سيهام ، ليرى « أباه الكبير » و « أمه الكبيرة » : (حماه وحماته) ! . . وليلعب دور « طالب القرْب » ، على الطريقة التقليدية العتيقة : « ليتنى أستيقظ ، ذات صباح ، فألفى نفسى متزوجاً » . . ربما هو الحياء . وربما هو الخوف الغامض أيضاً من مستقبل يختلف أشد الاختلاف

عن الماضى . ثم نفوره الذى لا يُدفع من ترك ما عنده ، والتخلى عما هو عليه .
على أنه الخجل قبل هذا كله وبعده كله : من بيرون الى ليدى ملبورن :

[... سأذهب إلى سيهام عند ما أستطيع الذهاب ، ولكنى أشعر « بالاشمئناط » الشديد ، لا فيما يتعلق بها ، بل بالرحلة . . ولا شيء فى هذا غير الحياء ، وحقد على الغرباء لم أستطع قط له دفعاً] . .

وراح ، فى الانتظار ، يحتفل ، فى ذلك الخريف الجميل ، فى لندن ، بأسابيع عزوبته الأخيرة ، بمسرّة الأطفال . . وكان وصحبه يشربون البراندى المعتق ، يغنون من حوله ، وهو يفكر فى أوجستا وماريان شاورث ! . . كانت الموسيقى ، كالعطور ، لها عليه سلطان يرده لمشاهد الماضى ، ويعيد تمثيلها أمامه ، بقوة تمحو الحاضر محواً . .

مسكينة ماريان ! . لديه عنها أنباء حزينة . فقد أصيبت بنوبة جنون ، وأودعت مستشفى بلندن . . مأساة أخرى بين الذين أحبهم . . . حقاً ، إنه لا يجلب السعد على من يحب . .

وأخيراً فى أوائل نوفمبر ، قرر السفر إلى سيهام . . . وهو ثغر صغير جداً على البحر ، فيه بضعة أكواخ صيادين ، وساحل صخرى . . ولم يكن قصر ميلبانك بعيداً عن البحر . فلما وقفت مركبة بيرون بالباب . كانت آنابلا فى غرفتها تطالع ، فنزلت ، فوجدته فى الصالون وحده ، قرب المدفأة . فمدت إليه يداً قبّلها . وظل كلاهما صامتا . وأخيراً قال بيرون بصوت شديد الخفوت : « إننا لم نر بعضنا منذ وقت طويل » . . فتمتمت بأنها ستدعو والديها ، وخرجت .

أيقظ جوهم العائلى ، فى بيرون ، منذ أول لقاء ، الشعور بسخافة ما هو متورط فيه . كان الأب والأم والبنت بالنسبة لبعضهم مخلوقات طبيعية ، مرحة ، عاطفة . . دون أن يتصل به من هذا كثير أو قليل . . وأشد من هذا نكراً أن آنابلا نفسها خيبت أمله فيها . فما كاد يعود فيراها ، حتى عرف أنه وقع وخُدع . .

حين يكون بعيداً عن النساء ، يبنى حولهن قصة . . حين لا يتاح له

لقاؤهن ، يشغلن ما شئن من مكان فسيح فى متحف بنات أفكاره ! .. أما إذا جئن بأشخاصهن ، يلعبن دورهن ، الذى وزعه عليهن ، وعزاه إليهن ، فإنهن ، حينئذ ، يضحن عنده ! . . والويل لهن ! . . يا للشيطان ! . . ترى لماذا توقع بيرون أن تعود آنابلا فتكون عنده امرأة شائقة ، جذابة ، قوية ، قديرة على أن تجعله يحبها ، وأن تقوده فى طريق الحياة الوعر . . ولكن المرأة عند ما تكون عاشقة تتكبد كل تكاليف العشق من ضعة وضعف . وهو ما لم يستطع بيرون أن يفهمه ، وخاصة فيما يتعلق بآنابلا ، فهى صامتة ، صمتاً مروعاً ، هذه الفتاة النضرة ، التى ليست جميلة جداً . وهى تنظر إليه نظرة الاستفهام التى يضيق بها صدره . . إنها تحاول أن تقارنه ، فى مخيلتها ، بصورة الرجل العبقرى ، والرجل النقى . . وهذا ما أحسه ، وحزّ فى نفسه ، لا سيما وهى موفورة الذكاء ، تحلل كل ما يقول . وكان يلقى الكلام على عواهنه ، ويرسله كيفما اتفق ، ولو « ليحول دون التثاؤب » !.. .. إنها امرأة محاسبة ، إحصائية : جعلت من الحب معادلة ! .. كانا أحياناً يتشابهان ، وأحياناً يختلفان .

ورأت آنابلا نفسها مغمورة بالتحرج . فأرادت أن تفصم الخِطبة . . فضلا عن أنها تمرض يوماً كل ثلاثة أيام . . ومع ذلك طفق بيرون يقيسها ، بغير عين الحب ، ويحكم عليها بأنها : « مخلوقة طيبة تماما » . . . ولكنها مخلوقة قلقة ، قدّر عليها أن تعذب نفسها ، فضلا عن أنها خيالية ، (وهذا أشد ما يكرهه فى المرأة) . وكان رأيه دائماً : « إنى أبحث ، بالأحرى ، فى الزواج ، عن رفيقة ، عن صديقة ، لا عن امرأة عاطفية » . . .

وهم ، فى هذا البيت ، من الصباح إلى المساء ، لا يتكلمون إلا عن العواطف . فظن نفسه قد عاد أدراجه إلى عهد كارولين لام . . وراود فكره ، خلال بضعة أيام ، أن هذا القران لن يتم أبداً . . ولم يكن من هدوئه عنها إلا زيادة هيامها به . . وقد أخطأ الناس ، وأخطأت عمتها ليدى ملبورن ، خطأ

فاحشاً ، إذ زعموا أنها باردة ، لأنها كانت نقية طاهرة . إن النساء الباردات هن اللواتى يجعلن من الحب لعباً ولهواً . . أما آنابلا ، التى ظلت طوال مراهقتها محتفظة بنفسها لعاطفة واحدة لا ثانى لها ، فقد تهافتت على العاطفة الآن ، واستسلمت لها ، عند ما زعمت أنها لقيتها : روحاً وجسما . وهى ، فى رسالتها الأولى إليه بعد هذه الزيارة ، قد تفانت خضوعاً وهياماً . . هذه العذراء العاشقة ، توقع له : *زوجتك* . . فى حين أنه ، هو ، فى رده ، من بيت أوجستا ، فى « سكس مايل بوتوم » ، يوقع رسالته : *المخلص لك بيرون* . وسألها ، وما زال فى الوقت فسحة ، عما إذا كانت واثقة تمام الثقة من أنها لن تندم على شىء . فأجابت : [. . . سأكون سعيدة جداً ، ولن يكون ثمة عتاب ولا نكوص على الأعقاب . . إنى أتمناك ، وإنى أريدك ، يا حبيبى بيرون ، فى كل ساعة أكثر من الأخرى . . إن كل ثقتى قد عادت ، لكى لا تغيب بعد أبداً » .

ليكن ! . . فقد تقرر المصير . إنها تريد ضياعها . وقد وعد . . .

« *نو ببيرون* »

وظل يؤجل عقد القران ، متعللا بأن محاميه هانسون لم يجد شارياً لنيوستيد . ولا يمكن الزواج دون دخل كاف . فاحتجت آنابلا بأن الأمرين يستويان عندها ، وأن العيش البسيط لا يتطلب ثروة ضخمة . فليعد إليها بيرون . . وقد بدأ والدها يرى أن الخطيب غير متعجل . . وقبل أن يُحدد اليوم المحتوم ، سألها بيرون أن تفكر جيداً أيضاً . وأخيراً ، فى ٢٣ ديسمبر : [يا عزيزتى جداً آنابلا : إذا نحن التقينا ، فليكن ذلك للزواج . . وإذا كان لا بد من التأجيل ، فالأولى أن يقرر ونحن بعيدان]

وربما كان يدخل فى أسباب تردده هذه جانب كبير من الأسف على هجر أوجستا ، التى ظلت تكتب إليه رسائل الانعطاف ، مملوءة بعلامات التعجب والاستفهام ، مزدحمة بالصلبان : رمز الحنان : † † † † † † † †

ورجا بيرون صديقه هوبهاوس أن يكون شاهد زواجه ، وأن يسافر

معه فى عربة البريد . ولما ذهبا ، قبيل السفر ، لأخذ شهادة الزواج ، سأل بيرون الموظف : « قل لى ياسيدى ، ما هى نسبة الناس الذين يجيئون إليك ، أولا لعقد الزواج ، وثانيا لحل العقد ؟! »

وكان المتفق عليه أن تتم الرحلة فى يومين ، ولكن الخطيب انتهز كل الفرص لتضييع الوقت . قضى يوم عيد الميلاد وحده ، عند أوجستا ، وأرسل هوبهاوس إلى نيوماركت ، وكتب من هناك إلى آنابلا : [... معى صورة العقد .. غريب المواد !.. ولكنها تخول لنا حق الزواج فى البيت ، فأرجوك أن يكون الأمر كذلك ، فانى واثق من أننا سنصاب بالزكام ، إذا ركعنا فى بهو كنيسة ! . .]

ثم سافر بيرون وهوبهاوس فى ٢٦ ديسبر ، وقضيا أربعة أيام لبلوغ سيهام ، والثلج يتساقط ، والمطر ينهمر . . وكان البيت كله مضطرباً لتأخيرهما . ولزمت ليدى ميلبانك فراشها من شدة ما أصابها من الغم وساورها من القلق . وانفجرت آنابلا باكية عند ما دخلا . وحاول هوبهاوس ، وهو فى أشد الحرج ، أن يلتمس عذراً ، ولم يكن ثمة عذر إلا قلة استعجال الخطيب . . ولكى يخفف من وطأة ذلك الجو المكهرب ، فض غلاف هديته ، وهى « مجموعة كاملة من مؤلفات بيرون » ، مجلدة بجلد أصفر فاخر . . ونظر متطلعاً إلى الخطيبة . وراعه منها صمتها المطبق ، على ما بدا من تواضعها وتعقلها . وكان هيامها ببيرون لايخفى ، تقضى وقتها فى النظر إليه بإعجاب أخرس . .

وفى الصباح التالى ، ٣١ ديسمبر ، كان هوبهاوس أول من نزل وذهب للتنزه على شاطىء البحر . وكان يوماً شتوياً صافياً جميلا . فنظر إلى العباب فى حزن . ولم يعد ينتظر من هذا القران خيراً . . وعطف على آنابلا ، التى لم تكن فى عينيه جميلة ، وإن كانت ، بعدطول التملى منها خلال السهرة ، يمكن أن تُحب . .

ولما جاء المساء ، مثّل الرجال ، فيما بينهم ، « بروفا » لحفلة الغد . . كان بيرون فيها بالطبع العريس ، وقام هوبهاوس بدور العروس مس ميلبانك ! . .

ولما تنصف الليل ، ذهبوا وهم أشد ما يكونون مرحاً ، لرؤية البحر ، وتمنّي عام سعيد . .

وفى أول يناير ١٨١٥ ، تنزه بيرون وهوبهاوس على الشاطىء ، وبدا اليوم طويلا كئيباً . وفى المساء ، بعد العشاء ، قال بيرون : « هوبهاوس ! . . هذه آخر ليالى ، وغداً سأكون ملكاً لآنابلا » . . وفى اليوم التالى ، المحدد للزواج ، استيقظ بيرون ، فلاحظ أن خادمه فلتشر قد أعدّ له حلة العرس السوداء ، فاغتم لمرآها . . ووضع الخدم فى مقدمة الصالون وسادتين ، ليجثو عليهما العروسان ، ونزلت آنابلا فى ثوب بسيط جداً من الموسلين الأبيض ، حاسرة الرأس ، مصحوبة بمربيتها . وجاء بيرون ، وركع إلى جانب خطيبته . وكانت الوسادة جامدة ، فقطب وجهه ، مما جعل له مظهر التقوى والخشوع . . وكان لا يسمع شيئاً ، قام أمام ناظريه شبه ضباب . . وراح يفكر (ويعلم الله السبب !) فى مشهد فراقه لماريان شاورث ، حبيبة الصبا . . ولم ينزعه من أحلامه إلا القسيس يملى عليه ليردد عبارة إشراكه زوجه فى كل ماله على الأرض . . ودقت نواقيس كنيسة سيهام الصغيرة . . وأطلقت بعض طلقات من بندقية فى الحديقة . . وكانت الأصوات التى تهنىء ، والأكف التى تصافح ، هى التى أنبأت بيرون بأنه قد صار زوجاً ! . .

واختفت « ليدى بيرون » لحظة ، تغير فيها ثوبها ، وعادت مرتدية پلرين سوداء ، موشاة بالفراء الأبيض . وظهر التأثر على وجه أبيها السير رالف . . واغرورقت عينا ليدى ميلبانك بالعبرات . . وأخذ هوبهاوس العروس إلى المركبة ، متمنياً لها الكثير من سنى السعادة . . فأجابت : « إذا لم أسعد فالذنب يكون ذنبى » . . ثم صعد بيرون إلى جانبها ، وأخذ بيد هوبهاوس ، يضغط عليها بشدة . ولما أغلق السائس الباب ، عاد بيرون فأمسك بيد صديقه الوفى من نافذة العربة ، وظل كذلك متعلقاً بها ، رغم سير الخيل ، حتى حين . .

وألفى هو بهاوس نفسه وحده ، حزيناً ، مع والدى آنّابلّا . . فهز رأسه ، وقال لنفسه : « يخيل إلى أنى اليوم قد دفنت صديقاً » . .

٢٣ ـ شهر «العسل الأسود» !.

حملت المركبة ، إلى بيت خلوى ، استأجره لهما السير رالف ، فى « هالنبى » ، لشهر العسل : زوجة قلقة ، مشوقة ، هائمة ، ورجلا عصبياً ، محنقاً ، مغيظاً . .

أو اه ! . لماذا تزوج ؟. لينقذ أوجستا ؟ ليقطع مابينه وبينها ؟ ليرضى كبرياءه ؟ الآن ، سيظل ، إلى يوم مماته ، يعيش وإلى جانبه تلك المخلوقة الرزينة ، الوقور ، المجهولة ، « الغشيمة » ، التى سرعان ما جعلت تراقبه ، وتحكم عليه ! . . فتصاعد فيه حقد جنونى . فطفق يغنى غناء وحشياً ، كما هى عادته عند ما يشعر بالشقاء . .

وكانت الحقول والغابات من حولها مغطاة بالجليد . فتكلم . قال إن هذا الزواج لم يكن إلا ثأراً منها . . لسبق رفضها إياه أول مرة ! . . أيربطه الزواج بامرأة واحدة ؟ ليكن ! . . ستجرى المأساة إذن مجراها بينها وبينه ! .

ولم تكن فكرة الانتقام إلا موضوعاً خلقه ، ليغذى هياجه وسخطه . وكان يذكر حكاية صاحبه على باشا حاكم ألبانيا ، إذ اعتقل ، بعد اثنين وأربعين عاماً ، الرجل الذى غرّر بإحدى أخواته ، وقضى عليه بالموت . . *ثم بيبرونه* . بيرون لاينسى أبداً ! قال لها : « آه ! لشد ما كنت مفتونة بخيالك ! . . كيف يمكن لامرأة فى مثل عقلك أن تكوّن لذاتها ، وتسول لها نفسها ، ذلك الأمل السخيف فى إصلاحى . . أنا ؟ . يكفى أن تكونى **الآن** زوجتى لأمقتك . . لقد جاء حين من الدهر ، أول مرة ، عند ما تقدمت إليك ، كنت فيه تستطيعين كل شىء . . أما **الآن** ، فسوف ترين أنك تزوجت شيطاناً » .

ولما وصلت العربة مساء ، والثلج يتساقط ، والليل يدلهمّ ، بدا البيت الخالى مشئوماً . قال لها ، على العشاء : « الآن أنت فى قبضتى ، وسأجعلك تحسين وطأتها » .

وسمى هذه الفترة : « شهر العسل الأسود » . . كان أشد الأزواج هولا ، وأشدهم كذلك جاذبيـة . كان يروق فى بعض اللحظات القصيرة ، فيصبح الحديث شائقاً ، كينبوع المـاء الذلال ، تعثر عليه قافلة أضناها العطش ، فى صحراء . . ولـكنه لايكاد يتبين أنها ستحنو ، وتلين ، وتذوب عاطفة ، حتى يتحول قاسياً فظاً . . وكانت آنابلا فى الثانية والعشرين ، لاتـكاد تعرف من الحياة شيئاً . فكان ما اكتشفته منها على خلاف ما تخيلته فيها . . وحاول بيرون أن يبرهن لهـا على أنه لاحقيقة فى الدين أو الخلق . ويتحداها ، سائلا إياها أن ترده إليهما ، إذا وسعها . كان مسلّماً بالقضاء والقدر . وكانت هى « تؤمن بـ « وجود الله الحى الموجود مع كل الذين لايريدون فرض إرادتهم ، وإنما التسليم بإرادته »

وكان الدين عنده خوفاً مطلقاً ، فتمرد عليه . . آمن بأن الناس سيذهب بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار . واعتقد أنه من هذا الفريق الأخير . فنبت غضبه على الـكون ، وسخطه ، وعصيانه ، وفسقه .

يالها من زوجين جمعتهما الحياة إذ جمعتهما ! لأن صفات كل منهما ، بامتزاجها بعيوب الآخر ، لايمكن أن تـكوّن إلا الألم . آنابلا ، بخطبها الرنانة ومواضيع أفكارها المعتادة ، تحمل بيرون نحو الجانب الجدى من طبيعته ، وترغمه على التفـكير فى نظام الـكون والمصير ، فتدفعـه بذلك نحو الثورة والعنف . . ولم يكن عبثاً حبه النساء الجميلات المجنونات . . لم تدرك آنابلا ، على ذكائها التحليلى الدقيق ، أن جانب الطيش والنزق هو الذى يخفف ويلطف من شدّته وحدّته . كتبت عنه تقول : « إن مصيبته هى عاطفة نزاعة إلى التهيج ، مما يوجد عادة فى الطبائع الحارة . . وهو الضجر من وجود متشابه ، يؤدى بالمخلوقات التى من هذا الطراز ، حتى ولو كانوا طيبى القلوب ، إلى أخطر الطرق . . وحب التعذيب عنده يصدر عن هذا كحب الخمر والميسر » . . وليس فى الإمكان أدق من هذا التحليل ، ولـكنها لم تعرف كيف تستخرج منه النتائج اللازمة .

وكان أحياناً يفسر لها بطلان كل شيء على هذه الأرض ، وأن الأخلاق مسألة جو وعصر . فعلقت على ذلك فيما بعد بقولها : « أذكر أنني تمنيت لو فهمت واجبي نحوه ، على وجه يقضي بالتخلي له عن كل شيء ، والتسليم بلا قيد ولا شرط ، وأن أصبح جارية له وضحية . . . فلا تستطيع امرأة أن تحب رجلا ، ما لم تحبه حتى في جرائمه وآثامه . وما من حب ، غير هذا ، جدير بأن يسمى حباً » . . لكن عقلها المتنزّه (عن الفساد) أبى عليها حتى الضعف . . وكان منطقها من الجلاء والقوة بحيث لم يستطع قلبها أن يحوله إلى مصلحة زوجها .

إنها تعيش إلى جانب رجل ممتاز ، وساذج ، وذي حساسية مرهفة إلى حد الإيلام ، وذي أنانية بدنية وخلقية تكاد لا تصدق . لا يكاد يطيق أن يراه أحد وهو يمشي مشيته العرجاء . إذا ما سمع ، وهو يتنزه ، صوت أقدام ، وقف حتى يمر الغريب ، ولا يراه يعرج . . أو جرى لا يلوى على شيء ! . . وكان كذلك شديد التشاؤم ، يتطير من ثوب أسود ، من وطواط يدخل فيحمل السوء ، من سحابة تغطي وجه القمر وهو ناظر إليه ! . .

ولما كان خاتم الزواج الذي أعطاه لزوجته (وكان لأمه كما قلنا) واسعاً على أصبعها ، فقد لفّت عليه خيطاً أسود ، فلما رآه صرخ فيها متشائماً منزعجاً . فرفعت الخيط . . وبعد ذلك بلحظات كانت واقفة مستدبرة المدفأة ، ويداها وراء ظهرها ، فسقط الخاتم في النار . فسخط وثار . وكان يعتقد أن قوة خفية تدفعه إلى الشر ، بحيث لو ولد له ولد لخنقه . . وكثيراً ما كان يقول : « إن مصيري يقضي بعودتي إلى الشرق . أجل لا بد لي من الرجوع إلى الشرق ، لأموت فيه » . . وكان يؤمن بالنبوءات ، ويعتقد في الرجم بالغيب ، ويصدق العرّافة التي قالت إنه سيموت في السابعة والثلاثين . . أما آنابلا ، طالبة العلم ، فكانت تصغى مندهشة قلقة ، وتتساءل : أتراه مجنوناً ؟ أم هو يتصنع الجنون ؟ . . ولم تحر جواباً .

* * *

لم يكن ذلك كل ما فى الأمر ، فهناك ما هو أدهى وأنكى . فمن أول صباح تلق بيرون رسالة من أوجستا ، فقرأ استهلالها على آنابلا ، وهو يرتجف نشوة وسروراً : [يا أعز عزيز !. يا أول بنى البشر وخيرهم ! . .] . . ثم سألها : « ما رأيك فى هذا ؟ » . . وبعد بضعة أيام من قرانهما ، جعلها ترى أمام مرآة بعض الشبه بينها وبينه . . فقالت ضاحكة : « كما لو كنا أخاً وأختاً » . . . فأمسك برسغها صارخاً : « أين سمعت هذا ؟ . » . . . وفى مرة أخرى ، وربما كان يخالج عقلها الباطن قلق لا تجد له تفسيراً ، عرضت لمأساة دريدن : « **دون سباستيان** » ، التى تدور حول الزنا بمحْرم . فهاج فى هذه المرة هائجه ، وتفجر غضبه . لاح عليه أنه يرعب رعباً من ذكر هذا الموضوع ، لكنه مع ذلك يعود إليه بلا انقطاع . فحاولت امرأته الشابة أن تطبق المنهاج المدرسى ، لتفهم ، وتكشف عن مكنون هذه المشكلة التى حيرت عقلها . كانت تتوجس من أنه تزوجها ، لا انتقاماً منها كما يدّعى ، بل ليخفى جريمة مروعة لا تتصورها . . وتساءلت : « أفلا يمكن أن يكون قد اتخذ خليلة ، ظهر له بعد ذلك أنها ابنة طبيعية لأبيه ؟ » . . .

وكانت تراه فى الليل مضطرباً من الكابوس ، يتكلم فى نومه ، وينهض ، ويتمشى ، ويهز بيديه الغدارات والخناجر . سألته مرة ، برقة : « هل أغويت أحداً ؟ . . . قل لى . . وهل تعرف ذلك أوجستا ؟ » . . فاعترف لها بأن فى حياته سراً رهيباً : « سأقوله لك عند ما تخلفين ولداً » . وكثيراً ما فكرت فى الهرب منه ، وتركه . . لكنها كانت تحبه ، وترثى له : « وعلى ذلك عرفت ، لأول مرة فى حياتى ، معنى البقاء وحدى مع الله . . . »

وهو ؟ .. أى فكر يراوده عن هذه المرأة ، المختلفة كل الاختلاف عن كل النساء اللواتى عرفهن ؟ . . كانت أحياناً تهزه ، وتؤثر فيه . ولو أنها استطاعت أن تخلع بعض جدها وجلالها ووقارها ، لحولته إليها ، وبدلته تبديلا . قال لها : « إننى لا أسأل المرأة إلا الضحك . وإنى لأسخر من كل ما عدا ذلك فيها . إنى أستطيع إضحاك أوجستا من أى شىء . . وليس غير أوجستا يجعلنى سعيداً . . » . .

كيف انقلب هكذا فظاً غليظاً ، هو ، الذى كان يزعم نفسه أرق الرجال ، وأن حضرة امرأة ، ولو كانت شمطاء أو دميمة ، تلطف ما به ؟ إنه لم يجد تعليلا إلا أنه بيرون . أحس أنه سجين هذه المرأة . وقد سألها أن تفسخ الخطبة . فأصرّت على الزواج . وقالت إنها لن تندم على شيء . . والآن ها هى ذى ، فى حياته ، امرأة أجنبية ! . . ربما كان يشفق عليها لو كان لها ما لليدى فرانسس من ضعف نافر ، أو ما لأوجستا من حياء قلق . . بيد أنها كانت ، على العكس : قوية البنية ، وردية الخدين . وكانت عزيمة الرأى : تواجهه ، وتدرسه ، وتحكم عليه . . كانت تسرف فى الحديث عن العواطف ، وهو يجزع . . كان بحاجة إلى الهدوء ، إلى الوحدة . كان يروعه أن يكون دائماً اثنين . فكان يرسلها إلى حجرتها قائلا : « لست بحاجة إليك » ، أو : « أرجو ألا نكون دائماً معاً ؟ » ، أو : « إن الجانب الطيب الوحيد للزواج هو أنه يخلصنا من أصحابنا » . . . وسرعان ما أصبح يشك فى بقائه للزواج وفياً . .

وكان مع ذلك لاينكر مزاياها ، التى تجلت خلال أسابيع « شهر العسل الأسود » ! . تنسخ له أشعاره . ويتحدثان عن مطالعتهما ، فيتبين ذكاءها . . آه ! ليتها لم تكن زوجته ! . . أى شيء أشنع ، لرجل كان حراً ، من أن يجد نفسه مغلولا إلى حموين ، فى حين أنه لم يكن قط مغلولا إلى أبوين ؟ !

ولما تقرر سفرهما يوم ٢٠ يناير لقضاء عيد ميلاده « ٢٢ يناير » عند أبويها فى سيهام ، اكتشف ، فى آخر لحظة ، أن يوم ٢٠ هو يوم جمعة ، فأعلن أنه لن يسافر فى يوم جمعة . . فلما ابتسمت ليدى بيرون ، تضايق ، وفسر ذلك بأن يوم الجمعة هو يوم أحد المسلمين ، وأنه تعود مراعاة البطالة فيه ! . . واستجار بها واحتمى من عشرة والديها ، فقضيا بعض أوقات الصفاء . . ولعبا مرة لعبة على الورق ، وبعد ذلك أشار بإرسال الأوراق إلى أوجستا لتتسلى بها . فقالت زوجته : « سأضع صلباناً على ورقك ، حتى تفرقه عن ورق » . . فبهت ، وصاح :

« لا ! لا تفعلي ذلك ، فانك ستدخلين على قلبها الرعب » . . فقضت سواد ليلها تتساءل عما يمكن أن تعنيه هذه الصلبان !

ورحلا فى ٩ مارس إلى لندن لقضاء الربيع . . وأراد بيرون أن يتوقف وحده فترة عند أوجستا ، فألحت آنابلا فى صحبته . فنهاها عن ذلك ، فأصرّت . واستقبلتهما أوجستا بهدوء . ولم تعانق زوجة أخيها . ولما صعدت المرأتان معاً ، بدأتها آنابلا بالعناق . وبعد العشاء انصرف بيرون إلى شرب البراندى ، وأشار على زوجته بالذهاب للنوم : « نستطيع ، أنا وأوجستا ، أن نلهو ، من دونك ، يا جيلتي ! » . وحين صعد بعدها بقليل إلى غرفتها قال : « الآن ، وهى عندى ، هى ، فسترين أننى فى غنى عنك ، أنت . . قلت لك إنك حمقاء بحضورك معى إلى هنا » . . بدت لها هذه المناجزة خارقة للعادة . . وراعها ما تجلى من جماله وهو ينظر إلى الصغيرة « ميدورا » ، ويقول مشيراً إليها : « أتعرفين أن هذه ابنتى » . . ولكن لما كانت بنت أخته فإن العبارة بدت طبيعية . وأوصى فى لندن بصنع « بروشين » يضمان خصلتين من شعر أوجستا ممزوجاً بشعره . والبروشان مكونان من حروف وصلبان : A – B – † † † † . . أعطى واحداً لأوجستا ، وقال مشيراً إلى آنابلا : « آه لو عرفت معنى هذا ! » . . لكن ليدى بيرون لم تكن تريد أن تفهم . فقد أحست بعاصفة من الجزع والرحمة معاً ، تهب عليها . . فأشهدت الله على نفسها ألا تعرض لهذه الفكرة الشنيعة أبداً . ورغماً مما كانت تبديه أوجستا من طيب العشرة ، كان مقام آنابلا ويلا عليها ومحنة .

بيرون يشرب ليحاول أن ينسى وجود وزجته ، ومحنة هيامه بأخته ، ويخفت صوت ضميره الذى يؤنبه ويقرعه . . يرغم أوجستا على أن تقرأ بصوت عال خطاباته إليها خلال العامين الأخيرين ، تلك التى يتحدث فيها بلا اكتراث عن آنابلا ، وخليلاته . ثم يلتفت إلى زوجته قائلا لها : « وفى خلال تلك الأيام كنت تعتقدين أننى أموت حباً فيك ! . . » . . وفى المساء يصرفها فى ساعة مبكرة .

ويقضى ساعتين مع أوجستا . فأحست آنابلا بشقاء ، لم تستطع معه ، وهى تموت جوعاً ، أن تتناول من الطعام شيئاً . تغلق على نفسها غرفتها ، لتنتحب حتى تستروح ، وتقول لنفسها : « هذا مستحيل .. هذا مستحيل ! » . .

ثم ظهرت لها الحقيقة التى لا تطاق . فلجأت إلى الكتاب المقدس ، تتأمل ، وتناجى ، فى انجذاب علوى ، لتتخلص من قذارة الأرض ومحنتها . . وجعلت من نفسها حارسة على هذين المخلوقين ، الكافرين ، الهالكين ، لتنقذهما . .

ولكن كيف يمكن إنقاذ رجل نحبه وهو يكرهنا ؟

٢٤ — المنزل رقم ١٣

استأجرا منزلا جميلا : رقم ١٣ پيكادللى تراس . وكان لهما خدم وحشم ، ومركبتان . لكن تنقصهما الثروة . كان الإيجار سبعمئة جنيه . وهو كل الدخل الذى حملته ليدى بيرون . أما دخل بيرون فكان عدماً ، لم يكف إيراده لسداد فوائد ديونه . وهكذا لم يلبث المحضِرون أن تسابقوا لزيارتهما ، لما رأوه من مستوى معيشتهما الرفيع . . ورجع هوبهاوس من فرنسا ، بعد ما شهد عودة الأمبراطور نابليون من جزيرة إلبا ، فوجد بيرون مهموماً مغموماً . . لم يَشكُ لهوبهاوس ، ولكنه نصح له بعدم الزواج ! . . .

ولم تكن آنابلا أسعد حالا . بيرون أصبح الآن فى ذروة جماله ، يتجلى ، فى ثيابه السوداء ، كمخلوق نورانى . . لا تشبع من النظر إليه ، هى ، العاشقة ، المتكبرة ، الطاهرة . . ترى زوجها تتربص به النساء ، اللواتى أحبهن وأحببنه ، ليتخاطفنه مرة أخرى . . وتخشى أن يتبينّ فشل زواجهما وكآبة بيتهما . . زد على هذا ، خاصة ، أوجستا . فقد جاءت بعد عشرة أيام لتنزل فى ١٣ پيكادللى تراس ! . . فكيف سولت لها نفسها أن تدعوها ؟ . . إنها تفسر ذلك بعجزها عن التفريق بينهما ، وبرجائها تطهيرهما . . . . فاستقبل بيرون أوجستا بادئاً

بنظرة من نظراته الشهيرة ، الملغمة بالحقد . . ثم لم يلبث بعد بضع دقائق أن استرد ضعفه لها ، وميله إليها . وقال لزوجته : « أنت حمقاء ، إذ جعلتها تجيء إلى هذا البيت . وسوف تتبينين . وسيكون فى ذلك تغيير كبير لك من كل الوجوه »

الحياة التى كانت تجرى فى بيت أوجستا ، تجددت فى بيت آنابلا . وهى ، هذه الزوجة التقية ، النقية ، عدت نفسها قديسة تعالج المرضى الذين لا يبرأون ، كالمصابين بالجذام أو البرص . وكانت علاقات هؤلاء الثلاثة من الناس خارقة للعادة . . يتضاحكون حيناً بعضهم من بعض ، ويتبادلون لمحات من السعادة . . ثم تسوء حيناً آخر ، بحيث تدفع آنابلا فى موجة من الحقد على أوجستا ، إلى حد تهمّ معه بقتلها ! . . أرادت الشفاء للمرأة التى سببت لها الشقاء . . فلما طال مقام أوجستا عندها ، واستعصى عليها الداء . أفهمت أخت زوجها أن قد آن لها الرحيل ، فعادت أدراجها إلى بيتها . . .

* * *

نحن فى يونيه ١٨١٥ . آنابلا حامل ، فى أكثر من ثلاثة أشهر . هوبهاوس فى فرنسا ، ينتظر أنباء الحرب بين الحلفاء ونابليون . وجاء خبر بانكسار نابليون التام فى معركة ووترلو . فحزن بيرون على انكسار عدو بلاده ! .. وكانت أكثر الشابات الإنجليزيات فى بلچيكا ، يعالجن أخاً أو زوجا أو حبيباً . وبينهن كارولين لام ، ترى بعينيها ، ساخطة ، ظفر غريمتها ليدى فرانسس وبستر الشقراء النحيلة ، التى تعفف « دون چوان » ، وأقالها من الهوى . . فقد كان بيرون محقاً فى قوله : إن رجلا أشد منه حزماً وصلابة سيظفر بها . وها هى ذى تقدمت وتغندرت منذ مناورتها البريئة معه . . وقيل إنها كانت السبب فى تأخر القائد العظيم الدوق ولنجتون عن ساحة ووترلو ! . . أما زوجها وبستر ، العُتُلّ ، الغيور ، فكان يسير فى ركابها ، ينظم فى وصف المعركة قصيدة ، ملهماً بسحرها !

بيرون أشد كراهية وزهداً فى الزواج من أى وقت مضى : « الزواج يخرج

فاسداً من الحب ، كما يخرج الخل من النبيذ . إنه شراب حامض ، أضاع الزمن نكهته السماوية ، ليحوله إلى جرعات ميتة لا طعم لها . ما من أحد يعنى بالحنان الزوجى . ما من معنى ولا طعم فى قبلات الزوجين . أتظنين أن « بترارك » كان يقضى حياته فى نظم الأناشيد لو أن حبيبته « لور » الجميلة كانت زوجته ؟ » . .

وكأن كل ما حولها قد اجتمع على أن يزيد فى ضيقه بها ، ونقمته عليها . مات خالها لورد ونتوورث ، فورثت أمها ليدى ميلبانك : لقباً ، ودخلا عظيماً ، يقرب من ثمانية آلاف جنيه سنوياً . ولكن هذا الدخل لا يذهب إلى آنابلا وأمها على قيد الحياة . ولما كان الأب ، السير رالف ميلبانك ، مرهقاً بالديون ، فإن الأم لم تقدم إلى بنتها يداً . فى حين كان المنزل رقم ١٣ فى ضيق مالى خطر . وعرف الناشر مورى بحرج مؤلفه الشاعر ، فأرسل إليه شيكا مقدماً بألف وخمسمئة جنيه . . ولكن بيرون رد الشيك . وجاء الآن محضر ينام فى البيت حارساً . . وأصبح وجود هذا الرجل الغريب ، ممثل القضاء ، فى مخيلة بيرون ، مأساة ، وأى مأساة !.

وحمّل مسئولية كل هذه الأوجاع على عاتق المرأة التى أرادت ، برغمه ، أن تشاركه حياته . فقد أنذرها بأن المال سيعوزهما . وها هو ذا المال ينقصهما الآن فعلا . والمرابون يهددون ببيع الأثاث والكتب . وعلى السلم يسمع وقع خطا المحضر ، حاكم بيت بيرون . . وتلك المرأة ما زالت دائماً هناك ، بوقارها المتجهم ، وعفافها المهين ! . . وبيرون يعلم أنه يسىء معاملتها ، ويندم على ذلك أحياناً أشد الندم ، ولكن هذا الندم نفسه كان باعثاً آخر على كراهيته فيها . فقالت عنه يوماً : « لو أنه أحس بجدارتى به ، لكان معى طيباً . . . إنه يعاملنى كما لو كنت أنا ضميره » .

أجل . كان الأمر كذلك ، كانت له كالضمير الحى . . وهناك حالات يتمنى المرء فيها هرب ضميره . وهو يتمنى ، ليسترد سلام فكره وصفاء نفسه ، ألا يراها ، وأن يسافر . ويبحر إلى الشرق ، وأن يردها إلى أبيها . . فإنه كلما رآها بجواره حية تسعى ، لبسه الشيطان .

وكتب بيرون وصية ، ورّث فيها أوجستا كل ما يملك(*) . وتقبلت ذلك ليدى بيرون بارتياح ، وتجرد تام عن النفعية ، يدعو إلى أشد الإعجاب . . ووجهت خطاباً إلى أخت زوجها ، تخبرها بأن بيرون قد عمل ما ينبغى عليه عمله ، وتسألها أن تجىء لتقضى معها ثلاثة الأشهر الباقية للوضع . إنها فى تخبطها لا تريد أن تقول شيئاً لأبويها مما قد يقلق بالهما عليها ، فخطر لها أن تلجأ إلى أوجستا ! . . ولم تتردد فى دعوة المرأة التى تخشاها أكثر من سواها ، لتكون حائلا بينها وبين الخوف من الرجل الذى تحبه كل الحب ، والذى تخافه أشد الخوف ! . .

ووصلت أوجستا . فهالها ما كان عليه بيرون : أصيب بنوبة كبد ، وبهت لونه الشاحب حتى صار أصفر . شقى ، ومريض ، لا يجد حتى فى الكتابة لذة . فيعاقر خلاصة الأفيون ، ليغيب عن الوجود ، ويكف عنه الألم . واجتمعت المرأتان ، العدوتان الصديقتان ، على الرثاء له ، والخوف منه . إن أوجستا نفسها كانت هذه المرة محل نقمته مثل آنابلا . يكلمها عن زوجها وأولادها بازدراء . . فإذا نطقت أمامه بكلمة « الواجب » ، نهرها ، قائلا : « دعى الواجب لله . . . » . .

ووضعت آنّابلا ، فى ١٠ ديسمبر ١٨١٥ ، بنتاً . لم يحظ حتى بالوريث الذى كان يتمناه . فسماها : « أوجستا آدا » ! . . . وفى تلك الأثناء كانت صاحبته القديمة كارولين تملأ لندن بإشاعات علاقته بأخته !.. وفى ٢٨ ديسمبر تلقت آنابلا دعوة من أمها للذهاب إلى قصرهم الجديد فى « كريكبى » ، ولم يكن بيرون يرغب أدنى رغبة فى صحبتها ، فلماذا لا يتخلص من عبئها ؟ لقد اعتقدت أنه مجنون ما فى ذلك شك . وأن جنونه اتخذ شكل النفور منها ، والحقد عليها . فرأت أن واجبها الرحيل .

(*) بلغ هذا الميراث مئة ألف جنيه (بخلاف الستين ألفاً التى عادت إلى ليدى بيرون بموجب عقد الزواج) ، فبددت أوجستا هذا الميراث الطائل فى عامين اثنين ، ولجأت إلى ليدى بيرون ، فساعدتها ، كما ساعدت كل من كانت له بزوجها صلة قريبة أو بعيدة . .

واستشارت الدكتور بيللى طبيبها الخاص ، والدكتور « لومان » طبيب بيرون ، فقالا إن طبيعة مرضه ستظهر بلا شك فى الأيام القليلة التالية ، وإنه يمكن نقل بيرون إلى قصر كريكبي ، حيث يوضع تحت إشراف الأطباء . وأشارا عليها بأن تتجنب كل ما يثيره ، وأن تكتب إليه بابتهاج ومحبة . . فنى عشية سفرها ودعته وهى تحمل على ذراعيها صغيرتها آدا . . فتلقاها ببرود . . بيد أنها ، على هذا كله ، لم تكد تصل ، حتى كتبت إليه تطمئنه على رحلتها وصحة طفلتها . . وتتمنى عليه أن يقلع عن الشراب ونظم الشعر . . وتؤكد له حبها ، وأن والديها يتوقان إلى رؤيته فى قصرهما الجديد ، وتبعث إلى عزيزتها أوجستا بأجمل التحيات ! . .

٢٥ – وداع المرأة الودود

ظن الأطباء أن بيرون ، بعد سفر زوجته ، سيعود إليه هدوءه ، ولكنه ظل ممعناً فى غِله وهيجته . فى الوقت الذى كان فيه مصيره يقرر فى أسرة زوجته . فقد كانت ليدى بيرون ، عند وصولها إلى بيت أهلها ، لا تكاد تُعرف . . غارت وجنتاها النضرتان الورديتان ، وذبلتا . لم تعد تنام . أفكارها وشكوكها ومخاوفها تستبقيها مستيقظة محمومة . فماذا تعمل ؟ وماذا تقول ؟ إنها أحبت بيرون ، وودت لو أنقذته . إنه مجنون ، فهو إذن غير مسئول عن فعاله الشنيعة . ولا بد من معالجته . . هذا واجبها .

أما والداها فقد روعا بحالة بنتهما ، واضطراها إلى البوح لهما بجانب من الوقائع ، دون أن تشير بكلمة إلى شبهاتها فيما يتعلق بأخت زوجها . فاستنكر السير رالف ، الرجل الشريف الأمين ، ما سمع ، واستنكفه . ومع ذلك فقد غفر الوالدان لبيرون ، لاحتجاج زوجته بأنه مريض . واقترحا حضوره إلى قصرهما للاستشفاء . . . هذا ما كان فى الأيام الأولى . ثم لما بدا ، من خلال ما ترويه

آنابلا ، ما كانت عليه حياتها ، اشتد غضبهما . واقترحت الأم الذهاب إلى لندن لاستشارة رجال القانون . وانزعجت آنابلا نفسها مما جاءها من الأطباء عن مرض زوجها ، فقد أكدوا لها : « إنه أبعد ما يكون عن الجنون ، وإن حدة طبعه قد ترجع إلى ضعف الكبد ، وسوء اشتغال الجهاز الهضمي ، مما يمكن معالجته . » فإذا لم يكن بيرون معتوهاً ، فلا سبيل إلى الصفح عنه . كبرياؤها وإيمانها معاً يمليان عليها الخيرة المؤلمة ، ولا مفر منها : فتقبلت فكرة التفرقة بينها وبينه ، على مضض وقنوط ، حتى لا يجرها معه ، هذا الحبيب الملعون ، إلى عقاب الآخرة !..

وهرعت أمها فاستشارت قانونياً ضليعاً ، هو السير صمويل روميلي ، ثم محامياً شاباً لامعاً ، هو الدكتور لشنجتون ، فكان من رأيهما : أن بيرون لن يعترض على اتفاق ودي للتفرقة ، وإلا لجأوا إلى القضاء على أساس اتهامه *بالقسوة وسوء الخلق* .

فلما جاء إلى بيرون خطاب السير صمويل روميلي ، يعلنه فيه بأن والدي زوجته لا يريان السماح لها بالعودة للعيش معه ، ويرجوه تعيين محاميه ، صعق ، وانكب على وجهه . إن لديه من آنابلا رسائلها إليه ، بعد سفرها ، تفيض حباً . فماذا جرى ؟ لم يصدق أن القرار قرارها . لقد تألمت ، ثم عفت .. أتكون أوجستا هي السبب ؟.. إنهما كانتا عنده أخيراً حليفتين ضده . يستحيل أن تقطع امرأة ما بينها وبينه هكذا ... راعته فكرة الانفصال :

من بيرون الى ليدي بيرون : [كل ما أستطيع أن أقول يبدو نافلة . بيد أني أتعلق بضالة آمالي المنشودة ، قبلما تغيب إلى الأبد .. أو لم تكوني إذن أبداً سعيدة معي ؟ أو لم تقولي قط إنك كنت كذلك ؟.. أو لم نتبادل أحر دلائل المحبة والتعلق ؟..] .. وكان على حق في ظنه أن آنابلا ستتأثر بهذا النداء . ولكنها تعرف ، الآن ، أنه ما من حياة زوجية مشتركة ، ستكون ممكنة مع بيرون ، لأنه أغفل ، خاصة ، إيمانها المتين ، وتعلقها بالدين . كتبت إلى أوجستا : [أعتبر أن واجبي نحو الله يقضي علي بالتصرف كما تصرفت] .

فلعب بيرون بكل مالديه من فتنة ودلال ، وفصاحة وابتهال : [أفلا تستطيعين أيتها العزيزة جداً أن ترتبي الأمر ، وعفا الله عما سلف ؟ . . إنى مريض من كل هذا . .] . . ثم لما رآها لاتلين لها قناة ، تمرمر ، وانفجر ، وبعث إليها برسالة من رسائلها أثناء الخطبة تقول فيها : [سأكون سعيدة جداً . . ولن يكون هناك عتاب ، ولا نكوص على الاعقاب] . . .

☆ ☆ ☆

انتشر الخبر فى لندن انتشار النار فى الهشيم . ما أكثر الأطباء ، والمحامين ، والخدم ، الذين عرفوه . الآن سيبدأ قصاص الـ « س » والـ « ج » ، ونصائح الأصحاب الذين لايرحمونه ويتركونه لنفسه وحيداً . . ولما ظهر جلياً أن بيرون لم يستطع ، لاهو ولا أصحابه ، أن يثنوا آنابلا عن عزمها ، لم يبق إلا مواجهة محامى الأسرتين ، بعضهم ببعض . فدافع هانسون عن بيرون . وترافع بأن موكله يقر بسوء سلوكه خلال الإقامة بالمنزل رقم ١٣ پيكاديللى تراس ، ولكنه يعتبر أنه نال الصفح من قرينته بما كتبته إليه بعد من خطابات . فاكتفى خصمه الدكتور لشنجتون بالرد عليه بأن لديه من ليدى بيرون وقائع أشد خطورة من أن تسمح بأى صلح أو وفاق . فسأل هانسون عما تكون هذه الحجج ؟ . . فأجيب بأنها محفوظة للإدلاء بها إذا طرح الموضوع أمام القضاء . وكان بين يدى لشنجتون فعلا مذكرة حررتها آنابلا بما عرف عنها من تحليل وحساب دقيق ، حتى فى مأساة حياتها الكبرى . . وأراد هوبهاوس ولفيف من أصدقاء بيرون أن توقع آنابلا وثيقة تشهد فيها بأن رغبتها فى الانفصال لا ترجع من قريب أو بعيد إلى الإشاعات الفاضحة (عن علاقته بأخته) التى تشوه سمعته . فرفضت . فاكتفوا بسؤالها مجرد التأكيد بأن لاشأن لها فيما يروج من إشاعات . . وبقى حل المشكلة المالية ، وهى عويصة . بيرون لا يملك الآن دانقاً . واضطر إلى قبول شيك من ناشره مورى . وأخيراً وصل المحامون

إلى اتفاق. فمن الألف جنيه دوطة الليدى بيرون، تحتفظ هى بخمسمئة، ويأخذ بيرون النصف الآخر سنوياً. فإذا ماتت أمها يقسّم الدخل على يد حكم بين الزوجين. وبذلك يحتفظ بيرون بإيراده الشخصى، زائداً خمسمئة جنيه، زائداً آمالا واسعة.. حقاً، إن محاميه هانسون لم يسىء اللعب بورقه!..

ساد الحزن المنزل رقم ١٣، كما لو كان قد مات فيه إنسان، المحضرون يروحون فى الصالونات ويغدون، يرتبون الكتب لبيعها بالمزاد. وكان ذلك فى ٦ أبريل ١٨١٦. فاشترى أكثرها مورى. وكانت حجرة بيرون مملوءة بالأقراص والأدوية لنوبات كبده. وهنا وهناك أشياء مهملة تركتها آنابلا، تذكر بها. وبدأ الهدوء ينزل على بيرون شيئاً فشيئاً، مثله مثل بعض المخلوقات التى نشأت فى أجواء رطبة ملبدة بالغمام، لاتجد الصحة إلا فى الضباب والمطر، فهو لم يحتمل شمس الهناء. لقد انسلت الزوجة من حياته، كما انسل، من قبل، أصحاب له وأحباب، ماتوا، أو هجروا وراحوا..

يذرع وحده ليلا هذا المنزل الكبير.. ثم يتذكر. فيأخذ ورقة يتسابق، إليها دمعه، وهو ينظم ويكتب شعر وداعها، الذى لايمكن أن يبدعه إلا الألم:

«وداعاً!.. وإذا كان للأبد، فليكن للأبد وداعاً!.. وإنك، وإن كنت جامدة، لا يرق منك الفؤاد، فان قلبى لن يثور عليك...

ماذا كنت لا تستطيعين تلاوته فى هذا الصدر، الذى طالما أسندت إليه رأسك، إذ تأخذك من النوم سنة، لن تعرفيها بعد الآن..

إنى بلا ريب قد اقترفت ذنوباً كثيرة، ولكن، لكيما يجرحونى جرحاً أليما، أفلم يختاروا لى غير الساعد الذى ضمنى ذلك الضم الحنون، فاشتد، ورمانى؟..

ومع ذلك، هوناً ما!.. إن الحب قد يموت موتاً بطيئاً.. ولكن لاتظنى أن فى الامكان انتزاع قلبين، فجأة، وبغلظة، أحدهما من الآخر..

وداعاً!.. هكذا فُرقت عنك، ومُزقت أعز صلاتى. وهكذا هُجرت، وحُرمت، وأحرقت.. ولا موت بعد هذا الموت...»

وهو فى السياسة ليس أسعد منه فى الحب حظاً . ينتصر لنابليون ، ويسميه : « ابن الحرية » ، وينشر رأيه . فيعده قومه خائناً لوطنه ، وينبذونه . وتهب الصحف تسلقه بألسنة حداد . وتقارنه بنيرون ، وهنرى الثامن ، وإبليس . وتروج فضائحه ونقائصه . ويسبه المارة وهو فى طريقه إلى مجلس اللوردات . وفى المجلس لا يخاطبه أحد ما خلا لورد هولاند . . وكذلك قاطعه المجتمع . ووقع ما أنذرته به نجيته ليدى ملبورن . وأرادت صديقته الليدى جرسى ، الكريمة ، أن تقاوم التيار ، فأقامت حفلة راقصة ، دعت إليها بيرون وأوجستا . فلما كادا يدخلان ، حتى خلت أمامهما الصالونات ، كما لو كانا وباءً جارفاً . .

فلم تستطع مضيفتهما ، على رقتها ودماثتها ، أن تقهر هذا الحقد . وأبدى له بعض الرجال النفور والاشمئزاز ، وهرب آخرون ليتجنبوا مصافحته . فجلس فى ركن ، مشبكا ذراعيه ، ينظر باحتقار إلى هذا الجمهور الكاره اللدود . ومنذ تلك الليلة أدرك أنه لا حياة له فى مجتمع ينبذه . لقد طرد من فردوسه الروحى . وهاهو ذا يرى نفسه منفياً بين الناس . . ليكن !.. ومادامت انجلترا تلفظه لفظ النواة ، فليستأنف الرحيل إلى الشرق . . .

ولم يكن يأسف على فراق أحد إلا أوجستا . فجاء يودعها فى أحد عيد الفصح ١٤ أبريل ، وكانت على وشك الوضع . . فقضى معها سهرة حزينة ، تكلم معها فيها ، لأول مرة ، عن قوارع الندم والآلام التى تحز فى صدره ، وبكى أحر بكاء . وكتب إلى آنابلا يوصيها بأخته ، وإذا قضت ، فبأولادها . .

وامتلأ أسبوعه الأخير فى وطنه بمغامرة طريفة ، لم تزده إلا احتقاراً لسهولة النساء . فمنذ فترة من الزمن ، وامرأة مجهولة تمطره وابلا من رسائل الهوى . وحاولت أن تقتحم بيته ، فطردها الخدم مرتين . ثم كتبت إليه تحت اسمها الصريح : « كلير كليرمونه » ، تسأله توصية لدخول مسرح درورى لين ، (وكان من مساهميه ، ليحظى بأجمل الممثلات !) . . فلما أرسل إليها التوصية ، زادت

جرأة ، وكتبت إليه : [.. وربما تزعم أن هذا منى ليس إلا وهماً ، جعلنى أعتز بفكرة الميل إليك ولعله لم يكن وهماً ، لأننى منذ عام جعلت منك موضع تأملاتى ، فى كل ساعات وحدتى . . . ولست أنتظر منك أن تحبنى . فلست جديرة بحبك . . فهل لديك مانع من تحقيق الخطة الآتية ؟ : سأخرج معك مساء الخميس من المدينة فى مركبة خاصة أو عامة ، بعيداً عن لندن بعشرة أميال ، أو اثنى عشر ميلا . وهناك نكون حرين مجهولين .. ونعود فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، كل إلى داره] ... وبعد بضعة أيام : [أين ألقاك ؟.. متى ؟. وكيف ؟.. إنك مسافر يوم الاثنين إلى إيطاليا ، وأنا إلى حيث يعلم الله . . . فرجائى إليك أن ترد على بلطف ، وبلا خطب قصيرة ساخرة . . فاذا كنت بحاجة إلى سلوى وملهى ، وكنت أستطيع أن أؤديهما إليك ، فلا تكبت حاجتك . . وإنى لأقبل أى شىء إلا مخالفتك] . . كان متضجراً ، كاسف البال . وكانت الفتاة صبية نضرة . ولها صوت رخيم . وكان بحاجة إلى وقع شديد فى نفسه ، وتأثير . . لينسى . . فقبل أن يقضى معها ليلة * . . وكان ذلك هو الختام .

الحقائب معدة . وقد اشترى لهذه الرحلة مركبة فاخرة ، مصنوعة على مثال مركبة الأمبراطور نابليون . وسيصطحب معه خادمه ، الفيلسوف ، فلتشر ، وطبيباً إيطالياً شاباً ، يدعى بوليدورى ، درس الطب فى أدنبره ، وهو من هواة الأدب ، منحه الناشر مورى خمسمئة جنيه ، ليكتب يوميات رحلة بيرون . . .

وكان تطلع الناس إلى رؤية « الحاج الشرقى » ، فى دوفر ، عظيما .. استعارت نساء الطبقة الراقية ثياب الخادمات ، ليتمكنّ من الوقوف بباب الفندق ، لمشاهدته خارجاً . . ثم جاء بيرون ، يظلع ، على ذراع صديقه هوبهاوس . ولاح شقياً ، كليم الفؤاد ، والبحر هائج ، والريح معاكسة . ولما بدأت السفينة تقلع وتبتعد ، رأى هوبهاوس « الولد العزيز » واقفاً على ظهرها . فرفع بيرون قلنسوته ، وهزها : تحية وداع لصديقه .. فقال هذا فى نفسه : « فليباركه الله ! . إنه روح باسل وقلب طيب » :

* تجد تفاصيل حكاية « كلير كليرمون وبيرون » فى : « شللى » أو قبور فى جنة الحب » : بقلم صاحب هذا الكتاب . (الناشر : مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر)

٢٦ – موكب القلب الدامى

إنه ، مرة أخرى ، فوق صدر الماء ، تثب من تحته الأمواج ، وتلهث ، كالجواد الكريم الذى يعرف راكبه ، فيجرى ، ويتبهنس . . سرعان ما ألقى بغياهب المنفى فى نشيد جديد من « شايلد هارولد » . هذا السقوط ، هذا العار ، هذا الزبّد من الحقد ، أوجستا المقضىّ عليها ، المشار باحتقار إليها ، انجلترا المعادية بأسرها : تلك هى المأساة التى كانت موضع تأمله الطويل . ظل يفكر فيها ، حتى لم يعد مخه إلا « دوّامة خبال ولهب . . . » . . . ماذا كان چورچ غوردون بيرون هذا فى أبريل ١٨١٦ ؟ لا شىء . حنون ومنتقم ، حزين وفرح ، متعقل كفولتير ، ومجنون كالريح ... وحاجته الآن هى الالتجاء إلى العزلة ، التى مع ذلك تكون غاصة بالأرواح . . وأن يبدع . . ولكيما يعود بيرون لا بد من أن يعود شايلد هارولد ، فيكون لهذا السفر نشيده الثالث : « يضرب فى الارض من جديد ، بعد ما نفى نفسه بنفسه ، عالماً بأنه عاش عبثاً ، أن كل شىء بالنسبة له قد انتهى بالأمس حتى الرّمس ، وعليه هذا يسدل على قنوطه قناعاً بساماً . . . »

وقصد ساحة ووترلو ، حيث وقف يتأمل مصير الممالك ، وقدر الخلائق . ومركبته الأمبراطورية الفخمة ، وسكرتيره الدكتور بوليدورى ، يجلبان إليه السائلين ، يزعمونهما ملكين عظيمين . . فانتفخ هذا الطبيب الشاب غروراً ، إذ رأى نفسه على قدم المساواة معه ، فسأله يوماً : « وبعد ، فأى شىء يمكن أن تعمله أكثر مما أستطيع ؟ » . . فأجابه بيرون : « أما وقد اضطررتنى إلى القول ، فاعتقد أن هناك ثلاثة أشياء فى وسعى ، وليست فى وسعك : أستطيع أن أعبر هذا النهر سباحة ، وأستطيع أن

أطفىء نور شمعة بطلقة غدارة على عشرين خطوة ، وقد كتبت شعراً بيع منه أربعة عشر ألف نسخة في يوم واحد ! »

وأخيراً ، وصل الموكب ، يوم ٢٥ مايو ١٨١٦ ، إلى شواطىء بحيرة جنيف ، ونزل في فندق ديجان في سيشرون . فإذا هنالك تلك الفتاة ، آخر خليلة له : **كلير كليرمونه** ، حيث سبقته إلى الفندق ، ومعها أختها **ماري** ، والشاعر « شلي » ، صاحب ماري ، ولم يكن بيرون قد رأى شلي من قبل ، وإن كان قد قرأ شعره في *Queen Mab* وأعجب به . وعرّفتهما كلير ببعضهما . وسرعان ما صارا صديقين حميمين . فكلاهما يعشق : الفكر ، والحرية السياسية ، والتشكك في الدين ، والعيش على سطح الماء . اتخذا منزلين متجاورين ، أحدهما صغير : لشلي وصاحبته ماري (التي تزوجها فيما بعد) ، والآخر ڤيلا جميلة : سكنها اللورد الشاعر . وكانوا أحياناً يسهرون جميعاً حتى الصباح ، في البحيرة ، في ضوء القمر ، أو في الڤيلا ، إذا هطل المطر ...

اشتد تعلق بيرون بشلي ، ورأى فيه فضائل لا عداد لها . لعل الحياة إذن ليست كلها ممقوتة . ما أبعده الآن عن غرفته بالمنزل رقم ١٣ في پيكادللي ، بما فيها من زجاجات دواء فارغة ، ومحضرين يعيثون في البيت فساداً !.. إن فكرنا يجري ليقنص لنا أشباح الغائبين البعيدين عنا ، فتدنو وتبدو ، ثم تشحب وتهرب ...

ماذا جرى لأوجستا ، النائية ، من وراء البحار ؟ . . إنه لا يدري . هذه البحيرة السويسرية ، ذات المياه الفضية ، تحت نوافذه ، تذكره ببحيرة نيوستيد . لقد كان سعيداً على ضفافها .. معها .. فكتب إليها رسائل مؤثرة : [... لا بأس عليك ولا حرج مما أنت فيه . . فلا تكرهي ذات نفسك ، فاذا كرهت أحداً منا ، فليكن هذا الأحد أنا .. ولكن لا تفعلي .. إن هذا يقتلني . إننا في هذه الأرض آخر من ينبغي لها ، أو يستطيعان ، أن يكفرا عن حب بعضهما بعضاً..] .. [يالي من أحمق إذ تزوجت .. وأنت لم تكوني عاقلة جداً يا عزيزتي . . كان ينبغي لنا أن نعيش وحدنا ، سعيدين كل السعادة : فتاة عانس ، وأخ أعزب . إنني لن أجد قط امرأة مثلك . . ولا أنت رجلا مثلي (مهما يبد في هذا من الغرور) . . إننا خلقنا

لنقضي حياتنا معاً ، ولهذا السبب أراني وقد أبعدتني الظروف عن المخلوق الوحيد الذي كان يستطيع أن يحبني مدى الحياة ، والذي أحس أنني كنت أظل متعلقاً به ، تعلقاً مطلقاً ، بلا حدود ولا قيود . آه لو كنت أنت راهبة ، وكنت أنا راهباً . . لكننا نستطيع أن نتخاطب ، على الأقل ، من وراء قضبان الحديد ، بدلا من أن يكون ذلك من وراء بحر خضم . . بيد أن صوتي ، وقلبي ، على أي حال ، هما دائماً لك] . . وهي لا تكاد ترد عليه جواباً . ورسائلها ، الغامضة ، اللاهثة ، تقول له إنها تلقى آنابلا كثيراً ، وإن آنابلا شديدة العطف عليها . . وَيْ ! . . هذا ما قطع أنفاسه ! . . آنابلا هذه التي كسرت قلبه ، ذلك القلب الذي كان يلهو ، ويدّعي ، من قبل ، أنه قُدَّ من جلمود ، قد أحس الآن به هشيماً تذروه الرياح . . .

وكان شللي يحمل لكلير كليرمون حباً أخوياً جماً ، فلم يرقه احتقار بيرون لها ، وتملصه منها ، بعد ما كان بينهما . . ولكن ما هي كلير هذه عند الشاعر الأعظم ؟ . . خليلة ليلة أو بعض ليلة ؟ . . وهو يؤثر العيش مع تلك الغائبة ، عنه مع هذه الحاضرة . . إننا نعيش أحياناً مع الموتى ، أكثر وأعز مما نعيش مع الأحياء ! . . ومع ذلك كانت كلير تتهالك عليه ، وتنتظر حتى ينام شللي وماري ، وتلحق بعشيقها الزاهد فيها ، في الڤيلا المجاورة ، وتخرج من عنده في الفجر ، مستترة بكروم العنب ، لتعود إلى بيت شللي . . وحملت منه ، حزناً على حزن . . وكانت تعمل له ، وتنسخ أشعاره الجديدة ، وهو مع ذلك ينزعج منها ويتضجر . . هي عنده امرأة وضيعة ، بلا حياء ، ولا خفر ، ألقت بنفسها فوق رأسه ، كما لو انقضت عليه صاعقة .. أهي تنتظر منه غلاماً ؟ .. ليكن !.. سيربي الطفل . لأن الطفل جزء من قبيلة بيرون ، يحل محل آدا الصغيرة التي حيل بينه وبينها . . . أما « كلير » الأم الشابة ، فهو لا يريدها ، ولا يطيق مرآها ! . .

ويرحل عنه شللي ، ومعه ماري وأختها كلير . . فيتنفس بيرون الصعداء ، ويكتب ، بعد بضعة أيام ، إلى أخته أوجستا : [.. بالله لا تزجريني . فماذا كنت أستطيع؟

إن فتاة حمقاء ، على الرغم من كل ما عملت وما قلت ، أرادت أن تتبعنى ، أو بالأحرى أن تسبقنى وتتقدمنى ، فقد وجدتها هاهنا .. ولقيت الأهوال حتى أقنعتها بالرحيل عنى ، والعودة من حيث جاءت .. فذهبت أخيراً ، بعد لأى ، إلى غير رجعة ! . . والآن ، يا أعز عزيزة ، أقول لك الحق ، إننى لم أستطع مع هذا حولا ، وقد بذلت كل مافى جهدى لأحول دونه ، وأمنع وقوعه . ولم أكن مغرماً بها . لا ، ولا فى مهجتى متسع لأى إنسان . . بيد أننى مع ذلك لم أستطع لعب دور الزاهد المتشكك ، مع امرأة قطعت ثمانمئة ميل ، لتخرجنى عن عفتى ، وتسفه حكمتى !.. والآن قد علمتِ من الأمر ما أعلم ، وانتهى الحال عند هذا المآل ، وانتهينا منها ، وكفانا الله شر القتال ! . .]

٢٧ - أوجستا تعترف ...

سعى إليه فى أواخر أغسطس ١٨١٦ سفيران من سفراء الصداقة : هوبهاوس وسكروب ديفز . وحملا معهما ما كان يطلبه المنفى فى كل خطاب من المستحضرات الإنجليزية : المانيزيا ، ومعجون الأسنان ، وعصاً سيفاً ! . وأعجبهما البيت ، والمشهد المطل على ألچورا ، وسرهما ما وجدا عليه صديقهما من هدوء ، وأن استرد وجهه نضرة من بعد صفرة .. وكانت آخر إشاعات انجلترا عنه أنه كان يفسد العاملات الصبايا بشارع « باس » ، وأوجستا معه متنكرة فى زى وصيفه الغلام !.. وقضى هوبهاوس بأن حياة بيرون هنا هى مثال العفاف . وكتب إلى أوجستا : [.. إن أخاك يراعى كثيراً اللياقة ، ويعيش لا يغضب الله ، ولا الرجل ولا المرأة . . وصحته أحسن جداً مما كانت . فلا خمر ، ولا سهر ، ولا مانيزيا ، ولا طوفان من الصودا . ولا حدة ، ولا عنف ، ولا صراخ ... وهو سعيد بقدر ما يتاح لرجل شريف ، ذى عاطفة ، أن يسعد ، بعد المحنة التى اتهم فى خلالها ، بالحق أو بالباطل . . .]

ومضى فرسان كمبردج الثلاثة يزورون شامونيكس ، وجبالها المتوجة بالثلوج الناصعة . . وكانوا يلقون كثيراً مدام دوى ستايل ، الكاتبة الفرنسية المشهورة . وطفق بيرون يدوّن خلال الرحلة يومياته لأوجستا . وقرأ فى تلك الأثناء « فاوست » لجيته ، فأثرت فيه كثيراً بقدر ما أثرت مناظر الألب الخلابة ، فأخرج درامته الشعرية العظيمة : مانفرد . . .

ومانفرد هذا هو سيد سرى عظيم، من ملاك الألب، قد تبحر فى فنون السحر. وهو غنى وعالم معاً، ونفسه تبدو معذبة من ذكرى جريمة هائلة. فى مشهد أول، على طريقة فاوست، يستحضر أرواح الأرض والمحيط والجبال والنور، فتسأله الأرواح: «- ماذا تريد يا ابن الأرض؟ . . . «- النسيان» . . . «- نسيان ماذا؟» . . . «- نسيان مابى . . .» . . فماذا كان به؟ . . إنه يتركنا نحزره . . . الحسرة على امرأة تدعى «أستارتيه»، فقدها، وكان يودها لو عاد فاتصل بها . . والرغبة فى الانتقام لنفسه من امرأة لا اسم لها . . فيطلق ضدها نفثة من شر السحر.

ومن هذا نرى أن مانفرد هو بيرون، وأن أستارتيه هى أوجستا، وأن المرأة التى لا اسم لها هى آنابلا! . .

* * *

مانفرد قلق أشد القلق من سكوت أستارتيه! . . لماذا لا ترد أوجستا على شكاوى بيرون إلا بخطابات تافهة؟ . . ما هذه البلادة منها؟ وما سر هذا الجمود؟ . . لقد أدرك، من عباراتها المرتبكة الغامضة، أن روحاً قوياً مختلفاً تماماً عن روحه قد أثر فيها، وحوّل عنه فؤادها . . وهو يعلم، فوق كل علم، روح من هذا . . فماذا حدث منذ سفره، حتى تسلطت آنابلا على أوجستا هذا التسلط الغريب؟ . .

الواقع أنه منذ غادر بيرون انجلترا، قضت آنابلا عدة أسابيع فى لندن، لتكون على اتصال بمستشاريها القانونيين.. وكانت إذ ذاك فى الرابعة والعشرين. وبدت الحياة لها كأنها انتهت. وكانت ساخطة على بيرون. فقد أحبته حباً عظيما، بحيث لا تستطيع ألا تكرهه، وإن لم تكف عن حبه! . . ورأتها أوجستا قبل سفرها، فوجدتها هادئة هدوءاً رهيباً، هدوء مائتة . . . ولم تجد بعد حلاًّ فى نفسها للمشاكل الروحية والخلقية التى خلفها لها زوجها. كيف ينبغى لها أن تعامل أوجستا؟.. كصديقة؟.. إن معنى ذلك تجريد نفسها من كل حجة جوهرية لتظلماتها، إذا اقتضى الأمر يوماً أن تقاضى بيرون أثناء تربية ابنتها آدا . . كعدوة؟ كما يريد منها رجال القانون؟ إن معنى ذلك تأكيد الإشاعات التى روجتها

كارو لين لام ، وكثيرون غيرها ، فضلا عن جعل مقام أوجستا فى انجلترا مستحيلا
وهنا ينهض ضمير آنابلا ، وواجبها كمسيحية تقية ، لإنقاذ روح أوجستا . .
بل وإنقاذ روح بيرون نفسه ، إذا كان ذلك فى الإمكان ، وإن لم تعتقده .
وكان بلوغ هذه النتيجة المزدوجة محالا ، ما لم يفرق بين الآثمين ، وتقم الحوائل
دون لقائهما . . .

لقد اجتمع فى نفس آنابلا ، فى هذا الصدد ، إلى جانب ضميرها وتقواها ،
ضروب من الغيرة ، ومن النقمة ، ومن اضطهاد المرأة الآثيمة « أوجستا » ،
ومطاردتها ، كل هذا تحت قناع الواجب ، ومزيج من الحاجة إلى معرفة ما كان...
ولم يكن بيدها برهان قاطع على إثم بيرون وأوجستا . وهى تنشد البرهان .
وتحزر أن الإثم المحرم كان يرود حولها فى البيت ، منذ زواجها . . ولكن أكان
قبل الزواج ، أم بعده أيضاً ؟ . . هذا ما جهلته ، وكانت شغوفة بأن تعرفه .
فلتضيق إذن الخناق على المجرمة « أوجستا » صاحبة السر ، حتى يخرج السر من
بين أسنانها ، ولو بذلت لها آنابلا ، فى سبيل هذا ، كل الحنان والحب !

واتخذت ليدى بيرون ، فى حملتها هذه ، حليفة ، هى صديقة حميمة لأوجستا ،
تدعى : « مسز چورچ ڤلييه » ، كانت قد تمنت على آنابلا أن تؤيد أخت زوجها ،
وتحميها من افتراءات الناس عليها ، وزرايتهم بها . فزارتها آنابلا ، وقالت لها
الحقيقة . فبهتت هذه المرأة الخيرة ، واهتمت بمعرفة خبء الأمر ، لأن أوجستا
كانت قد ألقت فى روعها أنها بريئة ، براءة الذئب من دم يوسف . . فلما اقتنعت
الآن بكلام ليدى بيرون ، استنكرت الجرم الشنيع ، واستنكفت حتى غفرانه ،
لأن أوجستا كانت تحمل الوزر الزنيم بطيش نخور . وكانت هاتان المرأتان
الفاضلتان ، آنابلا ومسز ڤلييه ، مستعدتين لإنقاذ المجرمة الآثيمة ، على شريطة
أن تظهر الذلة والندامة والخضوع . إن بيرون كان يأثم ، وهو يعرف على
الأقل أنه آثم . أما هذه المأفونة الحمقاء ، أوجستا ، فلا تفكر حتى فى إثمها ! . .

واتفقت السيدتان على حمل أوجستا من استهتارها وكبرها ، إلى التكفير عن ذنبها ، والإقالة من وزرها . وبدأت خطة الغزو الروحى بإفهام أوجستا أنها ، منذ الآن ، امرأة فاسقة ، خارجة على شرائع الله والناس .

من ليدى بيرون الى أوجستا : [لم أرغب ، قبل وضعك ، أن أجازف باثارتك ، أما وقد علمت بأنك استرددت صحتك ، فلا أستطيع بعد أن أخفى عنك أن لدى أسباباً قائمة على ظروف معينة من سلوكك ، لايأتيها شك ولا تأويل ، وأريد أن أدفنها بالسكوت ، أسباباً تفرض على الواجب الذى لا مناص منه ، القاضى بالحد من علاقاتى بك ...] . . وتساءلت المرأتان الفاضلتان ، بقلق حنون ، عن رد الفعل الذى سيحدثه هذا التهديد فى أختهما المذنبة . فجاء رد أوجستا ذليلا : [إننى مضطرة ، لمصلحة أولادى ، أن أقبل من مراحمك هذه **العلاقات المحدودة** ، التى هى كل ما يمكنك أن تخوليه لتلك التى ترين أنها لم تعد جديرة باعتبارك ، ولا بمحبتك ! . . وسيأتى حين من الدهر يتغير فيه رأيك] .

ويجىء الآن دور الحصول منها على الاعتراف بجريمتها ، ثم قطع العهد عليها بألا تلق بعد اليوم بيرون . فاستمرت المراسلات بين آنابلا وأوجستا . . فسلمت هذه بوجود علاقات أثيمة فعلا قبل الزواج ، ولكنها أقسمت بمغلظ الأيمان ، ولاح الصدق فى قسمها ، أنها منذ زواجه قاومت وعارضت . . ثم صار الاستجواب أدق وأحكم . وضرب حولها حصار روحى محكم ، مخافة أن يسترد بيرون سلطانه عليها . فقد أراد منها أن تلقاه فى سويسرا أو إيطاليا . وكان يخشى أن تغريها الدعوة ، لاسيما وقد أفلس زوجها الكولونل لى ، بحيث لا تنتظر معارضته فى سفرها . وكانت تبدو عليها كل علائم الجنون ، بمجرد ما يقول أخوها إنه تعس . .

وأخيراً ، فى أغسطس ١٨١٦ ، جاءت آنابلا للإقامة فى لندن ، واستجواب أوجستا . وأعدت لذلك ، بطريقتها العلمية الدقيقة ، أسئلة مرقومة محكمة ، عن الإثم والندم ، ومخافة الله والناس . . وكانت تلقاها كل يوم خلال الخمسة عشر يوماً الأول من سبتمبر .

من مذكرات ليدى بيرون : [لقد باحت لى أوجستا باعترافات كاملة عن علاقاتها بأخيها قبل الزواج ، وأنكرت بشدة أن شيئاً من ذلك كان بعد الزواج . واعترفت بأن قصيدة : « أنا لا أنطق ، ولا ألفظ ، ولا أتنفس باسمك I speak not, I trace not' I breathe not thy name كانت موجهة إليها » .

وهكذا خضعت أوجستا ، أثناء هذه المحادثات الطويلة ، وسلمت لمن كانت أقوى منها ، توجه روحها إلى الكفارة والندامة ، لعل الله يغفر لها . . .
ولم تقطع آنابلا مراسلات أوجستا مع أخيها ، ولكنها أشرفت عليها ، ووجهتها ، بحيث لم تعد فيها ذكريات ، ولا عواطف ، ولا علامات . . وكذلك جردت أوجستا من أجمل ما فيها ، فى عيني بيرون . . وأنزلتها عن تلك الصلبان ، التى كانت بينهما ، رمز التعلق والحنان ! † ! † ! †

٢٨ — مدينة القلب السحرية

كانت عنده البندقية (ڤينيسيا) : مدينة القلب السحرية . قصدها مع هوبهاوس فى ٤ نوفمبر ، حيث نزلا فى فندق « لاجراند بريتانيا » على القنال الكبير ، فى غرف مذهبة ، مكسوة بالحرير الملوّن . . وهى عنده ، بعد الشرق ، مدينة أحلامه : أحب فيها ذلك المرح الشجى فى الجندول ، وصمت القنوات ، وأنوار المدينة . . والكرنڤال قريب .

وسافر هوبهاوس إلى روما ، وبقى بيرون وحده . فوجد مسكناً وخليلة معاً ، تحت سقف السنيور سيجاتى ، وهو تاجر أقمشة ، يجاور حانوته « سان مارك » ، اتخذ له « القرن Corno » شعاراً ! . . ولا يلبث مستخدموه أن يضيفوا إلى الشعار كلمة « الإنجليزى Inglese » ! . ولا يلبث أهل البندقية أن يشيروا إلى مسيو سيجاتى : « ذو القرن الإنجليزى » . ولم تكن تجارة الرجل رابحة ، بيد أن زوجته كانت صبية وجميلة ، فضلا عن أنها تغنى غناء شجياً ، جعل صالونات البندقية الارستقراطية تتنازعها . وعرفت ماريانا سجاتى كيف توهم بيرون بأنه أول عشاقها ، مع أنها

سهلة جشعة . كتب يقول : « عشقتها من الأسبوع الأول لاقامتي عندها ، وظللت متيما بها ، لأنها رقيقة شائقة : لما تبلغ الثانية والعشرين ، ذات عينين نجلاوين سوداوين ، عينين شرقيتين ، وألوان متنوعة أخرى من مفاتن النساء ... زد على هذا أنها بسيطة ، لا أثر للصنعة فيها ، وأنها طوع يدى ، أطارحها الهوى فى أية ساعة شئت ! » . . . أحبها على طريقته ، بشيء من العاطفة ، وشيء من الاستهانة . . كما يحب كلباً وفياً ، أو جواداً ، أو أغنية فاجرة من صديقه مور . مرحة إذا تمنى المرح ، ساكتة إذا وجم : حيوان طيّع جميل . . فكفّ عن تألمه ، أو على القليل عن التعلق بآلامه . تقدم عظيم ، إن ثرثرة هذه الأجنبية كانت له مخدّراً نافعاً . وكان عناقها الحار يحميه من عدوه اللدود : الضجر ! . . هذه دنياه ، وهذا موطنه . فألقى عصاه ، واستقرت به النوى .

وجاء الكرنفال . عيد ڤينيسيا الكبير ، موسم المساخر والسريناد ، الموسم الذى يشفق منه الأزواج ، ويتلهف عليه العشاق ، لأنه الموسم الذى يدخر فيه النساء حظوظهن ، ليكفرن عنها بعد ذلك بالصلاة والصيام . . وبدأ بيرون يعرف . حق المعرفة ، هؤلاء البندقيات ذوات العيون السوداء . . لكل منهن على الأقل عاشق *Amorose* . . أما اللواتى ليس لهن إلا عشيق واحد ، فهن الفضليات . وهن يغيرنه فى عيد الكرنفال ! . . أما ماريانا سيجاتى ، القريرة العين برجلها الإنجليزى الجميل ، فكانت ، من دونهن جميعاً ، حريصة عليه ، لا ترضى به . بديلا ! . .

ثياب وأزياء زاهية الألوان : تركية ، يهودية ، يونانية ، رومانية ، تضفى بريقها الخلاب على الجندولات : تلك النعوش السوداء . فانسجم بيرون فى نغمة هذه الحياة الراقصة . وكانت رسائله إلى صديقه مور تغنى كالقيثارات الڤينيسية .

وفى الشوارع المظلمة تسمع الأغانى والألحان ، ورنين القبلات ، وجريح التنهدات ، حتى مطلع الفجر . . وتظل ماريانا وبيرون يتنزهان سواد الليل كله ، بينما تاجر البندقية ينام فى حانوت القرمه الانجليزى ! . ما أطيب تلك الأيام ،

وما أتعب تلك الليالى ! . . فأخذت صحة بيرون تتأخر . أتكون من حمّى المياه الراكدة ؟ .. أتكون الملاريا التى كادت تقضى عليه فى بلاد اليونان ؟ . . أم هى الشيخوخة تدب إليه وتسعى قبل الأوان ؟ . .

هو فى نحو التاسعة والعشرين ، وكان يقول لماريانا : « لقد أبلى السيف قرابه !.» وينظم لها شعراً فى الكهف عن سهر الليل ، وإن كان القلب يقظان هائماً ، والبدر طالعاً ساطعاً . . لقد أبلى السيف غمده ، وأضنت الروح البدن ولا بد من هنيهة يتنفس فيها القلب ، وكذلك يرتاح فيها الحب ! . .

وقضى أيام الصوم الكبير فى السرير ، مريضاً . . وفى حرارة الحمى عادت صور الماضى ، فاستردت حياتها الخطرة . ماذا أصاب أوجستا ؟ . إنه لم يعد يفهم شيئاً من رطانتها التقية ! . . [تلقيت رسائلك كلها ، فياضة كالعادة بالرزايا والخفايا ، ولكنى لا أجد عطفاً عليك ، لأنى لا أدرى هل تتألمين من كسر فى قلبك ، أم من صمم فى أذنيك ؟ !]

وهو ينهرها ، ويسألها أن تدعه وحاله ، لأنها لا ريب تتبع قصص كارولين عنه ، أو تقع تحت تأثير « تلك الزوج ، الوحش الجهنمى ، التى سيشهد بعينيه هلاكها ! » . . ووصل الخطاب إلى آنابلا على يد أوجستا الحمقاء ! . .

ولم يطل هيامه بالسنيوره ماريانا سيجاتى . الذنب ذنبها . لم تستطع إخفاء جشعها ، تبيع الجواهر التى يهديها إليها ، فيشتريها لها مرة أخرى ! . وتصيب زوجها نوبات شرف ، وأزمات غيرة على العرض ، فى أوقات منتظمة ، كلفت بيرون كثيراً . . وأدهى من ذلك أن ماريانا أظهرت غيرتها عليه . فولى منها الأدبار . .

وعاد هوبهاوس من روما . واصطحبه بيرون ، مرة ، فى نزهة على ظهور الجياد ، فاستلفت نظرهما فتاتان فلاحتان مدهشتان . فتمنى بيرون على إحداهما موعداً ، وتدعى « مرجريتا كونى » ، فأجابت بأنها مستعدة لمشاركته الهوى ، لأن كل النساء المتزوجات يفعلن ذلك ، غير أن زوجها (وهو فرّان) رجل شرس . . فأطلق

عليها بيرون : « الفرنارينا » (الفرانة) ، ثم غزاها بقوة الذهب . وكانت فى الثانية والعشرين ، لاتعرف القراءة ولا الكتابة ، لم يقابل حتى الآن امرأة بدائية مثلها . فراقت له . فقلقت السلطانة الحاكمة على عرشها من تلك الفرانة الدخيلة . فلقيتها بالسب والضرب . فألقت مرجريتا بمنديلها الأبيض فى وجه غريمتها ماريانا ، وسألتها بأى حق تلومها ، وكلتاهما ليست له زوجاً ، وكلتاهما زوجها زو قرون انجليزى ! . . فلما اشتكت السنيوره سيجاتى لبيرون ، أدركت أنها المغلوبة على أمرها ! . .

وكان بيرون كلما زادت ثروته أمسك يده ! . . . بعض الميراث النفسانى الذى خلفته له أمه الشحيحة ! غل يده قليلا مع البقاء كريماً . يراجع نفقات البيت ، ويحاسب بدقة وصيفه فلتشر ، فى حين ينفق على غرامياته بغير حساب ، ولا يساوم مع الأحباب ! . . والمال يتدفق عليه كالغيث المنهمر . وصار فى أسواق رذيلة البندقية حاكما بأمره . فقد بيعت ضيعة « نيوستيد » وقصرها التاريخى ، لزميله القديم فى هارو ، الماچور ويلدمان ، بمبلغ ضخم ٩٤,٥٠٠ جنيه !.. وكان الناشر يدفع له فى كل نشيد ألف جنيه . هذا إلى الخمسمئة جنيه السنوية من آنابلا ، ولأول مرة صار رصيده فى البنك دائنا ! . .

وجاءه فى أبريل ١٨١٨ نبأ وفاة نجيّته العزيزة ، ومستشارته ، وكاتمة سره : ليدى ملبورن . فقال : « حلقة أخرى ، انقطعت بينى وبين انجلترا » . . وصدق حدسه فى القضاء والقدر ، إذ علم بأن السير صمويل روملى ، مستشار زوجته القضائى ومن أول العاملين على التفرقة بينهما ، قطع زوره حزناً على وفاة زوجته . . فكتب بيرون إلى آنابلا ، يذكرها بأن دعواته على أعدائه تستجاب ! . .

وجاءته من آل شللى الأخبار بأنه قد ولدت له من كلير بنت آية فى الحسن . . فاشتاق أن يرى لحمه ودمه . وإن كان فيها ، فى الواقع ، من الزاهدين ، وصفها ، فى خطاب منه إلى صديق بانجلترا : بأنها : « آخر بنت حرام » . . .

وأطلق عليها اسماً بندقياً « أللجرا » . وجاء شللي وماري إلى ميلانو ، ومعهما مربية سويسرية ، تدعى إليز ، حملت أللجرا الصغيرة إلى أبيها اللورد . . فرآها بيرون فاتنة ، ذكية . . باهى بها في المتنزهات ، عندما رأى سيدات البندقية يحطن بها معجبات . . وقرّ عيناً بإحدى سليلات بيرون . . ولو كانت بنت حرام!.

٢٩ – دون جوان يتهالك ...

[سيدى : إنى لشديد الحزن ، إذ أنعى إليكم مولاى اللورد العزيز ، وافاه الأجل المحتوم هذا الصباح ، فى نحو الساعة العاشرة ، بعد حمى بطيئة ، سببتها له الشواغل ، وحمامات البحر ، والنساء ، وركوب الخيل فى الشمس ، وكان هذا كله ضد ما بذلت له من نصح . . .]

هذا هو الخطاب الذى يمتزج فيه الهزل بالجد ، والذى بعث به بيرون ، فى آخر يونيه ١٨١٨ ، إلى هوبهاوس ، ووقع عليه بإمضاء خادمه : فلتشر .

سنرى أن مزاحه لم يكن كله هزلا . فعند ما قطع علاقته بماريانا سيجاتى ، غادر بيتها ، واستأجر قصراً من قصور البندقية المشهورة ، على القنال الكبير ، بثمانمئة وأربعة آلاف فرنك سنوياً . فأصبح له بيته ، كالبندقى الأصيل . يرسو عند عتبته جندوله الفخم ، ويقف فيه ، لاستقبال الزائرين ، الجندولى « تيتا » العملاق ، ذو الشاربين الهائلين ، الذى كانت براعته فى اكتشاف المجذفين الأقوياء تعادل لباقته فى تصيد الزوجات الضعيفات . ويتصاعد من مدخل القصر : نباح الكلاب ، وضحك القرود ، وزقزقة العصافير ، وفوق هذا كله يعلو صراخ مرجريتا كونى ، وهتافات أللجرا الصغيرة ، التى تشارك الفرانة فى تولى هذا السرك !.. ولم تكن هذه المرأة أولا إلا عابرة طريق الهوى ، فإذا بها تفرض نفسها ، وتطيل المقام ، حتى جاءت ليلة ، فألفاها بيرون جالسة على سلم القصر ، تأبى الرجوع إلى زوجها !.. فلم يلبث أن أسف على ضعفه لها . فقد ضربت كل

النساء الأخريات ، وافتضت الرسائل ، وتعلمت القراءة ، لتتبين ما فيها ، وألقت الرعب فى قلب الوصيف فلتشر والجندولى تيتا . وكان المنزل كله يضج منها . وسامحها بيرون لأنها أمسكت حساباته ، وخفضت إلى النصف نفقات البيت ، وأحبته . . وكان فرحها الوحشى الذى تبديه عند عودة عشيقها ، يذكر بيرون بزئير النمرة التى تلقى أشبالها ، ولم يكن يكره النمرات ! . . .

ووضع بيرون فى تلك الأثناء ديوان « دون جوان » . . لم يكن قط فى نظمه أشد جلاء وصفاء ومضاء فى الشكل والموضوع . شعر ساخر بنفسه . فلسفة قوية مريرة ، تحت قناع من المرح الطائش ، والقوافى المهووسة الأهواء . . وانتهى بذلك عهد الصراخ والشكوى والأنين . تأثر بفولتير ، وحكمته الباسمة الساخرة ، وحاكى شكسبير فى علمه بالحياة ، وأن الأمانى البشرية ، والحب ، والطموح ، ليست إلا وهماً . . فكيف يغضب على هذا العالم ويسخط ؟ . . العالم يدور حول محوره ، وهو مقهور ، والإنسانية تدور معه . فلا حيلة للمرء إلا أن يعيش ويموت ، ويحب ، ويدفع الضرائب ! . . هذه كلها مسرات ، وملذات ، وأخطار ، وأحزان ، لا مفر منها . .

وأشفق هوبنر ، قنصل الإنجليز فى البندقية ، من وجود أللجرا الصغيرة فى ذلك الوسط المستهتر ، فاقترح أن يقوم وزوجه بتربيتها . أما بيرون فهدد بمغادرة البندقية ، إذا وضعت كلير كليرمون قدمها فيها . . رغم رجاء شللى وزوجته مارى . وأخذت صحة بيرون فى الانحطاط سريعاً خلال الخريف . واضطر إلى اتباع أوامر الطبيب وطرد محظيته الفرانة . . ولم يمر ذلك بسلام ، فقد فعلت ما فعلته أخت لها من قبل تدعى الليدى كارولين لام ، وأغمدت خنجراً فى صدرها ، ثم ألقت فى القناة بنفسها ، فاصطادها الجندوليون ، وأبعدوها عن قصر دون جوان ، المتهالك ، المريض ، المسكين ! . .

وجاء فى ديسمبر المحامى هانسون إلى البندقية ، مصحوباً بولده ، ليحصل

من موكله النبيل على توقيعه عقد بيع نيوستيد . وكانت كبيرة دهشة هذين المحامين الواصلين من تلك الجزيرة الصخرية النائية ، محملين بالوثائق والأوراق وفرش الأسنان ومعجونها الأحمر ، إذ يبلغان الدار فى جندول ، ويصعدان سلم القصر بين صفين من الكلاب والعصافير والثعالب واللبوات ، حتى السلم الرخامى الذى يؤدى إلى مخدع بيرون . . فيجدانه طريح فراشه . وحين يراهما يصيح : « مرحى! هانسون!.. ما كنت أظنك تجازف بالحضور إلى هنا ! ».. واغرورقت عيناه بالدموع لتذكر وطنه . . وسأله ألف سؤال وسؤال عن لندن وأصدقائه ، وهو يقضم أظافره ، عادته منذ طفولته . وأصغى بارتياح إلى انتظام شؤونه المالية . فقد بيع قصر نيوستيد بـ ٩٠,٠٠٠ جنيه . دفع منها ١٢,٠٠٠ للمرابين ، ووقفت ٦٦,٠٠٠ جنيه على ليدى بيرون . وقدم هانسون كشف أتعابه بـ ١٢,٠٠٠ جنيه أخرى . فلم تبق إذن فضلة مال . غير أن فوائد المبلغ الموقوف على ليدى بيرون يدر على بيرون نفسه ٣٣٠٠ جنيه دخلا سنوياً . فإذا أضفنا إليها دخله من أشعاره (وقد قبض منذ ١٨١٦ من ناشره مورى ٧٠٠٠ جنيه) كان رجلا من أغنى أغنياء إيطاليا . وقال لهانسون إنه سعيد : « لأن المال هو السطوة ، واللذة ، وإنى لأحب المال حباً جماً » . .

وبدأ المشيب يدب وينهض بين خصل شعره النحاسى الجذاب . . وبهت محياه ، وشحب ، وامتقع ، واختفى ذلك الشبح الجميل ، فى شخص بدين ، اكتنزت يداه شحماً ولحماً . . .

٣٠ – الفارس المملوك

جاء الربيع فطرد الحميات من البندقية . وانتعش بيرون . والجندول يهتز فوق مياه القنال ، شوقاً إلى غراميات سيده . . وقلب الشاعر يرفرف وهو يخفق ، يريد أن يستقر على حال من العشق ! . . .

عرّفوه فى صالون الكونتس بنزونى بالكونتس جويتشيولى ، فى ميعة

صباها ، ذهبية الشعر ، لؤلؤية الثنايا ، مرمرية الصدر الفتّان .. لم يمض غير عام على زواجها بسيد وقور ، فى الستين من عمره .. فتذكر بيرون أنه رآها بعد عقد قرانها بثلاثة أيام فقط ، فلم تعره يومئذ التفاتاً ، لأن العادة عندهم والعرف يقضيان على الزوجة الشابة بالبقاء عاماً قبلما تتخذ لها معشوقاً *cicisbeo* !..

وفى اللقاء الثانى غزاها ، وألهب جواها . فكتبت : [كنت فى ذلك المساء متعبة . ولم أذهب إلى تلك السهرة إلا طوعاً للكونت جويتشيولى... فراعنى من اللورد بيرون مظاهر أصالته ، ونبله ، ونغمة صوته . وألوف الأشياء الساحرة التى تضرب نطاقاً من حوله ، فتجعل منه إنسياً أعلى وأسمى من كل الذين رأيتهم ، بحيث كان مستحيلا ألا يترك فى نفسى أعمق الأثر] ..

ولما هم بيرون بمغادرة الصالون ، دس وريقة فى يد تريزا جويتشيولى . كانت موعداً . فذهبت إليه . ومن تلك اللحظة كان لهما فى كل يوم موعد ولقاء ..

كانت ترى نفسها حرة ، لا يقيدها الزواج بقيد . فإن سنن الزواج غير المكتوبة فى ذلك الإقليم محددة ، مقررة . تظل الفتاة مغلقاً عليها دير حتى السادسة عشرة . ثم يبحثون لها عن زوج غنى هرم ، كلما كان «أعجز» كان أفضل . وقد ترى الفتاة خطيبها بضع مرات فى بهو الدير . وتسعد السعد كله إذ تنال حريتها بجسمها ثمناً . وكان الكونت فى الستين ، عند ما تزوج تريزا فى ربيعها السادس عشر . ومن اليوم الأول كانت لهما مخادع منفصلة ، ولا تدعوه إلا « سيدى » . وهو شيخ على شىء من الدماثة ، بالرغم مما عرف عنه من أنه سمم زوجته الأولى ، وقتل الشاعر الروائى مانزونى ، وهو مع ذلك رجل مثقف ، وصديق للشاعر ألفييرى ، ودسّاس ، ويعد أغنى أغنياء مقاطعة رومانا . ولكن شيخاً هرماً ، ولو كان مثقفاً ، لا يمكن أن يشبع رغبات مثل هذه الزوجة الشابة . فلاحظ بيرون : « إن الحب هنا ليس عاطفة باردة محاسبة ، كما هو فى بلاد الشمال . إنه الشغل الشاغل لحياتهم . إنه حاجة . إنه ضرورة . وقد صدق من وصف المرأة الايطالية بأنها مخلوقة « حبّية » . إنهن يعشن بالحب ، فاذا متن كان موتهن من الجوى والصبابة » ... وقد أنهت الكونتس الشابة مدة تمرينها فى الوفاء . واطمأن الزوج ، ووثق ، فخفف عنها الرقابة .

وآن أوان اتخاذها عشيقا . هذه المرأة الشائقة ، النبيلة المحتد ، كانت تشبه كاروالين لام ، فى عنيف عواطفها وازدرائها الرأى العام . وكانت تربيتها عالية ، تتكلم الإيطالية والفرنسية ، وقرأت كثيراً ، وتحفظ الشعر ، وتذكر طُرف المؤرخين اللاتين ، وترسم بالزيت . فرضت بادىء الأمر على بيرون الأفلاطونية ، الحب الروحانى ، تاركة له مع ذلك أعظم الآمال فيها . . على شريطة أن تحصل على ضمانات . فهى مخلصة لدستور الغرام فى عالمها ، لاتبحث عن مغامرة عابرة ، بل تطلب فارساً مملوكاً ! . . وهذه معضلة لمن كان فى مثل شبابها ، وجمالها ، ومكانتها . . الزواج قد يكون طائشاً ، أما اختيار العشيق فيتطلب العناية والتبصر . ولن يلبث زوجها أن يأخذها معه إلى أملاكه وضياعه فى رافنا وبولونى ، فهل يتبعها بيرون ؟ . . إن واجب الفارس المملوك أن يتبع . . فدون چوان فى ضيق وحيرة .

من بيرون الى هوبهاوس : [لدى آمال يا سيدى ، آمال عراض طوال . ولكنها تريدنى على أن أتبعها إلى رافنا ، ثم بولونى . وهذا حسن جداً إذا ما قطعنا الشك باليقين . أما مجرد الآمال ! . . فاذا تملصت منى ، وإذا رجعت بخفى حنين « فياسكو fiasco ! » ، فقل على سمعى السلام . لن أستطيع أن يرى الناس وجهى فى ساحة سان مارك ! . . والمال هنا فى هذا الموقف عاجز ، قصير اليد واللسان . . فان الكونت غنى غنى هائلا . . . وهى فتانة وإن كانت تنقصها اللباقة . ترد بصوت عال حيث ينبغى الهمس . . وتتكلم عن الأعمار مع سيدات عجائز يردن الظهور بمظهر الشباب . . وفى هذا المساء نفسه روعت مجتمعاً راقياً محتشماً عند الكونتس بنزونى ، إذ نادتنى بأعلى صوتها : « يا بيرونى ! . . mio Byron » ، بينما صمتت الجميلات الأخريات صمتاً رهيباً . . ونظرن إلينا بعيونهن كلها ، مشيرات بدورهن إلى فرسانهن المماليك ! . . . ومن شروطها الأولية : ألا أغادر إيطاليا أبداً . . . »

وقبلما تسافر إلى رافنا ببضعة أيام أضحت خليلته . وكانت فخوراً بذلك ، حتى لقد أعلنته على رؤوس الأشهاد ، فى مواجهة كل النساء ، مما كهرب صالونات الكونتيسات : بنزونى ، والبريزى ، عدة أمسيات . . ومما أحرج شيئاً ما الكونت جويتشيولى . ولحسن الحظ لا يلبث الزوجان أن يغادرا ڤينيسيا ، الصيف بطوله ، وأخذ الكونت زوجته ، تاركاً بيرون ، مرة أخرى ، صباً ، مستهاماً ،

يحن ويجن ، ويأسف ويتفلسف ، وهو مبهور مفتون باجتماع هذه المشاعر عليه جميعاً !

* * *

وما كادت تصل إلى رافنّا حتى أجهضت . وظلت تكتب له كل يوم خلال سفرها . كانت تعبده ، والآن ، وهى عليلة ، تتوسل إليه أن يحضر . فتردد ، فى شىء من الحذر ، متسائلا : ممن يكون ذلك الطفل ؟ . . ليس منه ، يقيناً . من الكونت ؟ هذا محتمل . وقد وعدت بيرون ، إذا جاء ، أن ينالها فى عقر دارها . وعلى رغم كل تجاريبه فى النساء وحماقاتهن ، فقد دهش من هذه الجرأة . . وإن لم يستطع مغالبة فى الرغبة الاستمتاع بهـا ، فإذا به على طريق رافنا ، فى الحر والتراب ، لايعزيه إلا مايراه حوله من نساء جميلات . . ووصل ، رافنا ، التى نفى فيها دانتى . فأعجبته . وأحدث وصوله فى المدينة الصغيرة هرجاً ومرجاً . وجاء الكونت لزيارته فى « الأوبرج » . ودعاه بأدب لزيارة زوجته ، التى ربما استطاع سيادته أن يلهيها عن مرض يبدو لسوء الحظ خطيراً . . فقصد بيرون قصر جويتشيولى الفخم ، وتأثر بمرآها . . . فلا شىء يجعله يتعلق المرأة أقوى من ضعفها . كانت تريزا طريحة الفراش ، تسعل ، وتنفث دماً . فجلس إلى جانب سريرها ، وأصبح ممرضها ، الساهر عليها ، وصار هذا المملوك الفارس : ملاكها الحارس . . وكان ينتظر ، بشىء من القلق ، فى كل لحظة ، طعنة خنجر فى عنقه ، بيد أحد زبانية الكونت . ولكن ماذا يهم ؟ . . إن الموت ملاقينا ، ولو كنا فى بروج مشيدة . ولم يكن يسوءه أن يموت من أجل تريزا . كان عبداً ، وكان سعيداً . وقد تنبأت له امرأة قنصل انجلترا فى ڤينيسيا ، وهو مسافر ، بأن امرأة ستسوده ، وهو يعتقد فى النبوءات ، وقد صدقت . وكان أخوف مايخافه أن تموت تريزا ، أن يصيبها ماأصاب كل من أحب ، حتى ولو كان كلباً ، فإذا ماتت هذه الحبيبة ، فوداعاً أيها الحب ! . . واستدعى

من البندقية صديقه البروفسور آجليتي ، ليكشف على صدرها ، فأمر باستمرار العلاج . وكان العلاج هو زيارات بيرون . قالت الكونتس جويتشيولي : « إن الهناء الذي لا أستطيع التعبير عنه ، والذى أجده فى عشرة اللورد بيرون ، له فى صحتى أطيب الأثر » .. وبلغ الهناء فعلا من حسن التأثير وسرعته إلى حد أن استسلمت ، فى ذات قصرها ، حيث تسترت على « الهوى الأعظم » وصيفة ، وزنجى صغير ، وصديقة .. وناهيك بها من مجازفة خطيرة ، لأن الكونت ذهل ذات مرة إذ أراد دخول مخدعها ، فوجد الباب موصداً بالرتاج ! . . غير أن الكونت كان لغزاً ، فاستمر رغم هذا الحادث على زياراته الكريمة لبيرون ، وأخذه معه للنزهة فى مركبة فخمة ، تجرها ستة جياد . . بينا أهل رافنا ينظرون إلى هذه الصداقة ، ويعجبون ، ويهزون رؤوسهم ساخرين مزدرين . . وكان الكونت أغنى سكان المقاطعة ، لكنه لم يكن أقربهم إلى قلوبهم . . وجاء بيرون بجياده . يركب كل مساء إلى الغابة ، ويرى « سنيورته » فى كل ساعة ، مناسبة أو غير مناسبة . فيقطف الأيام كالزهور ، دون التفكير فى المستقبل . ولما تحسنت صحة الكونتس ، ركبت حصاناً صغيراً (سيسى) لتعدو معه . وكانت لها سذاجتها وتقواها . فعلّمت بيرون أن يقف ويصلى عندما تدق أجراس الكنائس القديمة : « السلام على مريم » ! . . واشتد تعلقها به . وكانت هى صيداً مشرّفاً . فهى كونتس أيضاً من أبيها ، وامرأة فاتنة . وعاشقة مفتونة ، وليست حمقاء . بل وتعد مثقفة بالنسبة لفتاة صغيرة . قريبة عهد بالخروج من الدير . ولعله نظر إليها بعين التسامح ، لأنها أجنبية . تبهجه رطانتها ، ولم تكن تعرف من الإنجليزية إلا القليل ، ولا تفهم من شعره كلمة . ولكنه كان عندها : الشاعر ، ورجل الحب . واتخذت لنفسها منه صورة بطل ، وأحبت هذه الصورة . تصورته لا ساخراً مستهتراً ، بل فارساً ، شهماً ، رقيقاً ، رفيقاً ، يفيض حناناً .. وهو الخيال الذى تريده النساء دائماً فى عشاقهن ، وكان على استعداد للذهاب معها فى الهوس

إلى حيث تريد. كتب إلى أوجستا : [... إذا رأيت «حرمتى» ، فقولى لها إننى راغب فى الزواج مرة أخرى ، ولما كان يحتمل أنها تشاركنى مثل هذه الرغبة ، أفليس هناك وسيلة لترتيب هذا الأمر فى أسكتلندا ، بسنة من السنن ، من دون أن يخدش هذا طهارتها المنزهة ! . .]
أما فى عينى تريزا فإذا كانت خيانة زوجها تعد واجباً ، فإن تركه يعد جريمة !
وأخيراً سافر الكونت وزوجته إلى بولونى ، على أن يمضى هو لزيارة ضياعه.
وفى اليوم التالى ، تبعهما بيرون ، الذى أُحسن تدريبه ، واستأنف حياة الهوى.
فاستأجر شقة فى قصر ، وأحضر بنته أللجرا من ڤينيسيا ، لتؤنسه. وكانت بنتاً لذيذة ، بيرونية صميمة ، لاتكاد تنطق حرف الراء مثل أوجستا ، وتمط شفتيها مثل بيرون وأخته ، ولها بشرة ناصعة ، وصوت ناعم ، وتعلق غريب بالموسيقى ، وإرادة من حديد فى كل شىء . وكان يلذ لبيرون أن يرى بقربه شجرة جديدة تنمو ، من هذه الفصيلة العجيبة. فكان يلعب معها . ثم يركب جواده ، ويتنزه به تحت خمائل الكروم ، التى طابت أعنابها الأرجوانية ، ويتحدث إلى البستانى .
ثم يقصد كامبو سانتو ، ليثرثر مع حفار القبور ، الذى كانت له أجمل فتاة فى بولونى : « إنى أنظر ، وألهو ، وأستمتع ، بهذا التناقض المروع ، بين ذلك المحيا الجميل البرىء فى ربيعه الخامس عشر ، وتلك الجماجم القديمة ، التى ملأ بها الحفار واديه . وكانت إحداها لأجمل وأنبل وأغنى نساء بولونى يوماً ما . . . » . . ودهمته الخواطر الكئيبة . بولونى بعد راقنا . . ثم ماذا ؟ . . لقد بدأ يسأم مهنة الفارس المملوك . ولم يكن ذلك ذنب خليلته الشائقة ، اللطيفة ، الصبية ، المخلصة . ولكنه أحس بمرارة لأنه يفنى حياته جاثياً عند ركبتى امرأة ، وامرأة أجنبية . . .
الآن هو فى الحادية والثلاثين . فماذا يعمل ، ويأمل ؟ . . الحب ؟ . . نشيد ثالث من دون جوان ؟ إنه يفكر فى العمل والرحيل إلى بلاد بعيدة . . إلى أمريكا الجنوبية مثلا ، حيث تعرض حكومة فنزويلا على الأجانب أن يأتوا إليها ليعمروا الأرض . . هناك يلقى بوليڤار ، محرر الشعب ، وهو من رجال

خياله وأبطاله . . وأخبر ناشره مورى برغبته هذه ، فتحدث فيها إلى هوبهاوس ، فسخر من صاحبه ، وقال لمورى : « قل له إنه لن يجد هناك فرشاة أسنان ، ولا معجون أسنان ، ولا مجلات . . سيجد كل ما يكره ، ولا يجد مما يحب شيئاً ! . . »

ولما أراد الكونت أن يذهب إلى رافنا ، قالت له الكونتس إن صحتها فى حاجة إلى هواء ڤينيسيا ، فإذا لم يصحبها إليها ، فإن لورد بيرون يسره أن يكون رفيق السفر . فقبل الكونت أن يغادر العاشقان بولونى معاً ، فى ١٥ سبتمبر ١٨١٩ . وكانت رحلة هنيئة . ونصح أطباء البندقية للكونتس بهواء الخلاء . وكان لورد بيرون ما زالت له ڤيلا فى « لاميرا » ، فتفضل وجعلها تحت تصرف « السنيوره » ، وجاء فسكن معها . تحت سقف واحد ، فيها ! .

* * *

بدأ يحس أن الليالى طويلة . كانت فى رافنا ألوان تسلى ، وكان فيها الانشغال بالخوف من أن يفجأهما أحد . . . أما هنا ، فالوحدة تجرد المخلوقات من نفوذها . وامرأة فى السابعة عشرة ، لا تلبث أن تفرغ ما فى جعبتها من معرفة . . ومن حسن طالعه أن جاء صديقه توم مور ، فخفف وطأة وحدته ! . فكان يقضى معه النهار فى ڤينيسيا ، ويعود فى المساء إلى ڤيلا لاميرا ، ليؤنس حبيبته . ولما جاء توم مور يستأذن صديقه فى السفر ، قدم إليه بيرون كيساً صغيراً من الجلد الأبيض : « إليك ، هذا شىء يساوى مالا كثيراً عند الناشر مورى ، وإن كنت لا تدفع فيه أنت ستة بنسات ! » . . فسأله توم مور : « وما هو ؟ » ، فأجاب بيرون : « هذه حياتى ومغامراتى . . . وهى ليست بالشىء الذى يمكن نشره وأنا على قيد الحياة . . ولكنني أعطيك إياها لتفعل بها ما يبدا لك » . فتأثر مور ، وشكره بحرارة : « هذا ميراث عظيم لولدى الصغير . . سيدهش أناسى أواخر القرن التاسع عشر » (١) .

---

(١) اشترى الناشر مورى هذه المذكرات من مور بألفين من الجنيهات ، ثم تنازل عن حقه فيها ، وقبل حكم هوبهاوس ورجاء أوجستا فى أن تحرق ، حتى لا تسوء سمعة صديقه الشاعر بعد وفاته ، لما كانت تنطوى عليه من صراحة مخيفة ، وتفاصيل فظيعة . . .

ساءت أحواله البيتية ! لأن الكونت جويتشيولى — وكان حتى الآن يتجاهل ، وإن لم يكن يجهل ، فهو على الأقل يتسامح فى العلاقة بزوجته — ضبط فى نوفمبر ١٨١٩ خطاباً من الكونت جامبا ، والد تريزا ، ينصح فيه ابنته بالحيطة والحذر ... فجاء إلى ڤينيسيا ، فوجد امرأته فى أحسن صحة . ونشب بينهما شجار عنيف . وفى هذه المرة خيّرها : إما الحليل وإما الخليل . فاختارت « الخليل » ! وسألت بيرون الهرب معها !

هذا رأيه لو أنه كان فى العشرين وليس فى الحادية والثلاثين . كان يعرف أنه يجلب بعمله العار على أسرتها ، فأقنعها بالجهد أن تعود إلى راڤنا مع زوجها .

فجاءه الكونت دامع العينين ، فقال له بيرون : « إذا أنت تخليت عن زوجتك ، فبداهة أنى سآخذها . فهذا واجبى . وهو أيضاً ما أرغبه صراحة . أما وأنت تقول باستعدادك للعيش معها وحبها ، كما كانت الحال من قبل ، فانى لن أكون السبب فى انزعاج جديد لأسرتك ، بل سأغادر هذه البلاد أيضاً ، وأجتاز الألب » .. ويقسم لتريزا ، ليهدئها ، أنه باق على حبها مدى الحياة . . وأنه إنما يسافر لينقذها . . وسيذهب أولا إلى انجلترا ، ثم من يدرى إلى أين بعد . . ويأخذ معه أللجرا . ويلقى أوجستا ، ليحاول أن يفهم ما أصاب هذه المرأة ، اللغز المعمّى . . وكان قد حنّ فعلا لبلاده أثناء زيارة مور . . وأعد العدة . . عند ما جاءه من راڤنا نداء تريزا الحار « الىّ ! » . والله يعلم كيف صنعت . ولكنها عادت فانطرحت فى فراشها عليلة . . ولا سبيل إلى شفائها إلا إذا كان بيرون بجانبها . فخاطب أبوها زوجها . ورضى الزوج . . فهى فى الانتظار ، على جمر النار ! وبعد ما أنزلت حقائبه إلى الجندول ، وبدأوا ينزلون الأسلحة ، قال : إنه إذا دقت الساعة الواحدة ، ولم يتم كل شىء ، فلن يرحل إلى وطنه . فدقت الساعة . وبقى . وكتب إلى « السنيورة » :

[ظفر الحب ، وانتصر ! لم أجد من نفسى الشجاعة على مغادرة بلاد تسكنينها ، قبلما أعود فأراك ، ولو مرة .. إنى مواطن هذا العالم بأسره .. كل البلدان وطنى ، وهى عندى سواء .. ولقد كنت أنت ، منذ تعارفنا ، هدف أفكارى ، ومحراب فؤادى . . ورأيت أن سلام بيتك ، وراحة أهلك ، تكون فى ابتعادى . . . ولكنك أمرت بأن أعود إليك . فها أنذا . طوع يديك . . .]

٣١ – ترسانةٌ فى قصر الغرام!..

استقبلته تريزا بفرح ساذج ، كطفلة مريضة سمح لها أبواها القاسيان ، ليعجلا شفاءها ، بزيارة رفيق لعبها العزيز عليها. وبعد امتعاض أهلها، آل جامبا، عادوا فنظروا إلى بيرون كفرد من العائلة . وخصّه شقيق تريزا ، الكونت بيترو جامبا ، الشاب المتحمس المرح ، بصداقة حارة ، وأصبح ينظر إلى الفارس المملوك كما لو كان زوج الأخت !.. ونزل بيرون فى «الأوبرج أمبريال» ، فندق ليس له من الوجاهة إلا اسمه الأمبراطورى !

أتراه سيمكث يوماً ، أم أسبوعاً ، أم عاماً ، أم بعض يوم ؟! لم يكن يدرى !.. فانساق مع القدر .. إنه جاء ، لأن امرأة دعته إليها . وسيذهب عند ما يصبح ذهابه عنها مرغوباً فيه . أما الآن فلتتحكم فيه ، ما طاب لها .. أليس مملوكها ؟..

وكانت تصحبه أللجرا فى رعاية مربيتها ، وفى زحمة من لُعَبها . ما أصعب السكنى فى خان مع طفلة !.. فيأخذ فى البحث عن شقة .. فيعرض عليه الكونت جويتشيولى أن يؤجر له شقة خالية فى قصره !.. ياللدهشة !.. حقاً ، إن هذا الزوج متقلب لا يُفهم كنهه !.. أما الكونتس فقد كانت أشد ما تكون زهواً بعاشقها الإنجليزى الجميل ، وأشد ما تكون رغبة فى استعراضه ما استطاعت .. فمن الأسبوع الأول ألبسته حلة عسكرية مطرزة ، وساقته ، وسيفه يتدلى إلى جانبه ، إلى حفلة راقصة فى قصر خالها المركيز كافللى . وأصرت على الدخول ، مستندة إلى ذراع الشاعر !.. نخشى أن يصيبه ما أصابه فى حفلة الليدى جرسى ، عند ما نزحت الصالونات أمامه وأخته . لكن المركيز ، ونائب البابا ، وبقية الأعيان والوجهاء ورجال السلك السياسى جميعاً ، أبدوا من اللطف ما أمكن . وسحر بيرون بما رآه من جمال نساء رافنا ، وذكائهن ، وجواهرهن . وكان كل ذلك هوساً ، ولكنه هوس لذيذ . فإلى الشيطان الخلق الإنجليزى

التزمت ! . . إنه هنا سيعيش ، ويحب ، ويموت . . . إنهم هنا لا يحكمون على خلق الإنسان ، رجلا كان أو امرأة ، بسلوكه مع زوجه ، وإنما نحو خليلته ، أو نحو عشيقها . فالفارس المملوك ملزم بأن يعامل الزوج باحترام عظيم . بحيث يحكم أول غريب يراهما بأنهما قريبان . ثم عليه أن يرعى الحبيب . . وأن يتحول زينة للمرأة . وأن يعرف كيف يحمل شالها أو معطفها ، وكيف ينشره ويطويه ! . . فيالها من خاتمة محزنة ، لمن كان رجلا يحلم بالبطولة والمجد ! . .
ولقد كان مقضياً على بيرون بازدراء نفسه ، لولا أن السياسة الإيطالية أنجدته ، وأتاحت له فرصة سانحة سعيدة : لأنها محفوفة بالأخطار . . . مضت عليه بضعة أشهر وهو يتدخل فى سياسة البلاد . وكان مستعداً لبذل حياته فى سبيل حرية إيطاليا : لأنه كان يحب إيطاليا ، ويحب الحرية ، وكان لا يحب الحياة . والتحق بجمعياتها السرية ، حتى سجل البوليس اسمه بين غير المرغوب فيهم ، ونظم فى قصر جويتشيولى ترسانة بها مئة وخمسون بندقية ، وبعث لأصدقائه جميعا فى انجلترا ليرسلوا إليه بالسيوف والبارود . وكان فى كل تصرفاته شجاعاً ، لا يهاب الموت الذى يتربص به فى كل خطوة : من جانب الحب ، ومن جانب الحرب !..
أما الكونت جويتشيولى ، رجل المصالح الحقيقية ، الحذر ، الممالىء للحكومة ، فقد طفق يرى فى عشيق امرأته هذا : مخلوقاً سىء التربية ! . . فى أى زمان أو مكان رأى الناس فارساً مملوكاً يصفّ البنادق المحشوة بالبارود فى غرفة نومه ، ويعرض بذلك قصراً محترماً للبلاء ؟ ! لقد أجر لهذا الأجنبي دوراً فى قصره ، وتركه يخرج مع امرأته ، فقابل ذلك بنكران للجميل منقطع النظير ! . . والآن لم يعد يُرى فى بيته إلا متآمرون . ولم تعد الأدراج كلها إلا ممتلئة بالمنشورات ، والمفرقعات ! . . وصادرت الحكومة ترجمة « شايلد هارولد » وردد الناس شعر بيرون ، كنشيد من أناشيد الثورة ... وعاد الكونت مرة أخرى يخير امرأته بين الحليل والخليل . فاشمأزت . تختار ؟.. من ذا الذى أرغم امرأة يوماً على الاختيار؟

ومرة أخرى آثرت العشيق . فتوسل إليها بيرون . لأن الكونت مصر هذه المرة على التفرقة . فإذا وقعت الفرقة فإن الهيئات الدينية لا تسمح لامرأة بلا زوج أن تعيش مع عشيقها . ولكن نصائح دون چوان الأخلاقية القويمة ، لم تلق من تريزا العنيدة أذنا واعية : « إننى أرضى بالبقاء معه ، إذا سمح لك بالبقاء معى ! . . سبحان الله ! إنه لايكاد يصدق أن أكون المرأة الوحيدة فى مقاطعة رومانا التى لا تستطيع أن تتخذ لها حبيباً ! . . . . »

وكانت راڤنا كلها فى صف العاشقين . حتى أسرة جامبا ، لأنها كانت تكره جويتشيولى . والنساء طبعاً ، والشعب كله ، لما أظهره بيرون نحوه من النخوة والمروءة ، وما أغدقه من المال على الفقراء ، والمؤسسات الخيرية ، والمبرات الدينية . . فضلا عما هو معروف عنه من العمل على تحرير إيطاليا . . . فجزاه الرأى العام بأن وقف فى صفه . .

ومن المضحك أن الذى طلب الانفصال ، ليس الكونت ، بل آل جامبا ، بحجة الإهانة البالغة لكريمتهم ، وعارض فيه جويتشيولى ، حتى لا يضطر إلى رد الدوطة ! . . وكانت الدعوى معروضة أمام القضاء البابوى ، وأحدثت دوياً عظيماً ، فقد كانت أول قضية من نوعها فى راڤنا منذ مئتى سنة ! . . ورفض المحامون المرافعة عن الكونت جويتشيولى ، قائلين إنه أحمق ، أو ديوث . أحمق إذا كان لم يكتشف إلا بعد ثمانية عشر شهراً علاقة معروفة . . وديوث إذا كان قد تسامح فيها ! وأخيراً ، أعلن البابا فى شهر يوليه قرار التفرقة . فأصبح على الكونتس أن تعيش فى قصر أبيها الكونت جامبا ، ولا يلقاها بيرون إلا بتحفظ شديد . وقد عرض عليها معاشاً ، فرفضت ، لأنها لم تكن فى حبها له نفعية ، فضلا عن أن الحكم ألزم الكونت بنفقة شرعية . وكان بودها لو يتزوجها ، لولا أن ظروفه وظروفها لا تسمح بطلاق وزواج .

من بيرون الى أوجستا : [. . تعلمين أنه عند ما تفرق امرأة عن زوجها بسبب عشيقها ، فان هذا الأخير يكون بحكم الشرف ملزماً بالعيش معها بقية حياته ، ما دامت حسنة السير والسلوك . .

وقد مضى نحو ثلاث سنوات على علاقتنا هذه .. وإنى وإن كنت لست مضطرماً حباً ، كما فى البداية ، إلا أننى أشد تعلقاً بها . ولم يكن فى حسابى أن أكون كذلك بالنسبة لأية امرأة كائنة من كانت ، بعد ثلاث سنين . . . (ما عدا واحدة ، وأنت تعرفين من هى)

وليست لى أدنى رغبة أو نظرة إلى البعد عنها . . فاذا كانت ليدى بيرون تريد أن تدخل على قلبنا السرور بموتها ، وكذلك الكونت جويتشيولى ينتقل إلى الله فى أول حركة تنقلات (لأن الكاثوليك ، حتى ولو طلقوا ، لا يستطيعون أن يعودوا فيتزوجوا) ، فمن المحتمل والحالة هذه أن نتزوج . . وإن كنت أفضل عدم الزواج . . لاعتقادى أن الزواج هو السبيل لأن يكره كل واحد الآخر . .

وأنت لابد ستعجبين بالليدى بيرون العتيدة لأسباب ثلاثة : (١) إنها تدافع عن الليدى بيرون الحالية ، وتقول دائماً إنها واثقة أنها تعذبت على يدى ، وأسيئت معاملتها (٢) إنها تعجب بك ، وقد منعتها بالجهد من أن تبعث إليك بخطاب من إحدى عشرة صفحة (لأنها مراسلة عظيمة) . (٣) لأنها عند ما قرأت دون جوان فى ترجمته الفرنسية ، أخذت على وعداً بعدم الكتابة ، معلنة إياى بأن ما أكتبه شنيع . . (٤) ناهيك بأن فيها الشىء الكثير منا . . فتعرف كيف تجد الجانب السخرى من الأشياء ، مثل عمتنا صوفى ، ومثلك ، وآل بيرون جميعاً]

* * *

ظن الكرادلة أنهم ، بقرار التفرقة بين الكونت والكونتس جويتشيولى ، سيفرقون بين هذه وحبيبها لورد بيرون ، عند ما غادرت تريزا قصر زوجها فى ١٦ يوليه ١٨٢٠ إلى بيت أبيها بجوار رافنا ، بيد أن آل جامبا ، وعلى رأسهم الأب والأخ ، كانوا يحبون الشاعر ، ويشاركونه آراءه السياسية ، ويحمون غرامياته . فكان يستقبل فى « فيلتهم » على الرحب والسعة ! وكانت هى من أخلص النساء له . كتبت : « إنى واثقة من حبى ، ثقتى من شروق الشمس غداً . . وغلطتى واحدة ، وستظل دائماً أبداً وحيدة » . . ولم تكن هذه الحالة غير مرضية . فالخفاء والسر وصعوبة الزيارات والمزيج من التآمر والاستمتاع ، والخوف والحظوة ، لم يدع هذا كله تعباً أو سآمة ، تتسرب إلى علاقتهما . . وبيرون ما زال ساكناً حتى شتاء سنة ١٨٢١ بقصر الكونت جويتشيولى ، يقطع الليل إلى جانب المصطلى ، يطالع ، ويدون مذكراته ، ويطعم قططه وكلابه وصقوره وغربانه ! . . لم يعد

ثمة ما يلهمه العواطف الحية . ظل إنجليزياً قحاً ، لا يأخذ بصورة جدية : حياته الإيطالية . ولم تعد انجلترا إلا حلما بعيداً . . وهى أحيانا صدى نغمة ، أو نفحة عطر ، أو صفحة كتاب ، تذكّر بالماضى . . والأصدقاء بعيدون ، مشغولون ، بعضهم بالسياسة والبرلمان ، وبعضهم بالميسر والخمر والنساء ، وبعضهم بلقمة العيش وجهد الحياة . ولما بلغ ، فى ٢٢ يناير ١٨٢١ ، الثالثة والثلاثين من عمره ، كتب :

« غداً عيد ميلادى . . أى فى منتصف الليل ، أى بعد اثنتى عشرة دقيقة ، سأذهب فأنام ، والقلب موجع ، مثقل بفكرة أننى عشت كل هذه السنين الطويلة ، لمثل هذه النتيجة الضئيلة . . »

وظل طوال الشتاء ، مع بيترو جامبا ، شقيق الحبيبة ، يبذل من نفسه ومن ماله لأجل قضية إيطاليا الحرة . وإن كانت الخاتمة بعد ذلك هى الفشل المطبق . فكبحت السلطات جماح الفتنة . ولم تستطع أن تمس بيرون ، الإنجليزى ، إلا عن طريق آل جامبا ، فأمرت فى يوليه ١٨٢١ بإبعادهم . وتقبلت الكونتس تريزا جويتشيولى المنفى ، على شريطة ألا تضيع صاحبها . فإلى أين يتبعها ؟.. اقترحت عليه سويسرا ، ولكنه يتجنب بلاداً غاصة بمواطنيه الإنجليز ، يشيرون إليه ، ويحدقون فيه .

وبينا كان متردداً تلقى رسالة من شللى يعلنه بحضوره . فقد كانت كلير كليرمون فى قلق على بنتها أللجرا ، التى أدخلها بيرون دير راهبات قرب راڤنا . . وكلير تمطره برسائل التوسل تارة والقذف تارة أخرى ، ليعيدها إليها . . . فازداد عناداً . وقال إنه « يريد تربية بنته ، لتشب مسيحية ، وامرأة متزوجة ، إذا أمكن » . . . وكأن قلب كلير كان دليلها ، فقد عم الدير وباء أخذ معه أللجرا الجميلة . . ها هى ذى التى كان يحبها ، على طريقته ، قد اختفت أيضاً ، وكان يزهى بحسنها البيرونى ، وعيوبها الموروثة . . وقد فكر فى أن يأخذها معه فى رحلاته ، لتكون رفيقة شيخوخته الوحيدة . وشهدت الكونتس جويتشيولى بأنه ، إذ أخبرته بوفاة أللجرا ، انسدل على وجهه نقاب من الشحوب المتقع ، وغرق فى مقعده .. ولم يذرف دمعة ، ولاح عليه حزن علوى عميق ، إلا أنه أشرق ولاح كإنسان من طبيعة أسمى من طبيعة البشر . . وقال : « إنها أسعد منا حظاً . ثم إن مركزها فى العالم قلما كان يمكنها من أن تكون سعيدة . تلك مشيئة الله . . فلنسلم ، صامتين »

٣٢ — الحنين إلى الأوطان

سكن بيرون وخليلته الكونتس جويتشيولى مدينة بيزا ، تبعاً لرأى شللى.. وكاد المقام يطيب . . فإنه كان يحب شللى ، ويحمل له تقديراً صادقاً . . وكان شللى يضعه فى مكانة لا يتسامى إليها شاعر سواه . . . . وحدث فى نحو الساعة الثانية ذات صباح أن طرق باب قصر لافرانشى ، فصاحت خادمة الكونتس جويتشيولى « من *chi è?* » . وكان الطارق مارى شللى وصديقتها چين وليامز . فأدخلتا ، وأقبلت تريزا نحوهما مبتسمة ، فبادرتها مارى المقطوعة الأنفاس : « أين هو ؟ . . أتعرفين أين شللى ؟ . . . » وخرج إليهما بيرون ، فقال إن كل ما يعرفه عن شللى أنه غادر بيزا يوم الأحد ، وأبحر يوم الاثنين ، الذى هبت فى مسائه عاصفة .

وثبت غرق شللى فى فلوكته بخليج ليڤورن ، والتهمت أكثر جثته الأسماك ، فسادت الكآبة هذه الجماعة الصغيرة من الناس التى كانت تعيش فى إيطاليا ، بعيدة عن بلادها ، على الشعر والحب . .

ودب الملل فى حياة بيرون من جديد . إنه أحب تريزا جويتشيولى فى جو من الخطر والخوف والاضطهاد . . وكان الهوى الأعظم يكاد يجرى بينه وبينها ، بين سمع زوجها وبصره . . وبين زيارة المتآمرين ، ومقتل بوليس سرى . ثم أحبها بعد ذلك ، لأنها اتخذت فى نظره صورة الشهيدة فى قضية الحرية . ثم عاشرها معاشرة الأزواج ، ففقدت عنده سحرها أو كادت . . وكان ما زال فى يديها ، تتحكم فيه ، وتضيق الخناق عليه ، ولا تدع له فرصة لخياناتها ، فأحس أن وجوده أصبح أشد كآبة مما كان وهو شاب ، غير معروف ، يحبس نفسه فى نيوستيد ، ليتثاءب فى وحدته . . أليست الحياة تسلمه من وحدة إلى وحدة ، ومن وحشة إلى وحشة ، ولو كان فى أحضان امرأة ؟ . . . والآن ، وهو فى شمس إيطاليا الضاحية ، يفكر فى سماء الشمال ، المربدّة ، الملبدة بالغيوم العظيمة تجرى هاربة

أمام الرياح ، كما شهدها فى اسكتلندا .. فأرسل بطله « دون جوان » إلى انجلترا عن طريق الشعر . . ووصفه متطلعاً بشغف إلى صخور دوفر السوداء ، وجروفها الهائلة . . ولشد ما حسد بيرون بطله دون جوان وهو يصف رحلته إلى لندن ! . . آه لو استطاع ، يوماً ما ، أن يقوم بها هو نفسه ، لا بطل خياله ، وشبح أوهامه ! . . إن ذلك يتوقف على آنابلا دون سواها . إنها هى التى كانت علة منفاه بمرسوم غير مكتوب . فإذا أمكنه أن يعود إلى لندن كوالد وزوج ، فكل شىء سينسى . . وتحولت شخصية زوجته فى ذهنه . عاد فعرف فيها وفاءها ، وصفاتها العظيمة ، وما انطبع عليه فؤادها من الرحمة الحقة ، والعفة المثلى . فلماذا لا تغفر له ؟ . . إن قلبه ، فى وحدته ، قد حن إليها . . ولم يكن عنده منها صورة ولا خطاب . . وتلقى منها أخيراً خصلة من شعر بنتهما آدا ، وإلى جانبها التاريخ . . فهل هذا تشجيع ؟ من يدرى ؟ . . وهمّ بكتابة خطاب رقيق إليها ، ثم أشفق من مصيره لديها . . ولكنه كان فعلا فى أشد الشوق لأن يسترد آنابلا ، ويسترد بها أيضاً مكانته بين الناس . . وقد أفضى بهذه الأمنية ، فى أمازيثه ، إلى سيدة تدعى ليدى بلسنجتون كانت مارة بجنوة فى ١٨٢٣ ، وكتبت عنه كتاباً من أجمل وأصدق الكتب التى وضعت عن بيرون . . .

أجل . لقد ظل إنجليزياً صميماً ، إلى حد لم يحمل معه حياته الإيطالية على محمل الجد . ومع ذلك فانجلترا نفسها ليست له إلا حلماً بعيداً . . إن نغمة ، أو زهرة ، أو نفحة عطر ، أو صفحة كتاب : تنادى الماضى . . . « آه ! . . هذا أرغن يعزف فى الطريق . . ونغمة الفالس أيضاً ! . . يجب أن أخرج لأسمع ! . . إنهم يعزفون الفالس كما سمعته عشرة آلاف مرة فى حفلات لندن الراقصة ، بين عامى ١٨١٢ و ١٨١٨ . . يا للموسيقى من شىء غريب ! . . » . . الأشباح تمر . . كارولين لام ترقص الفالس . . . لقد سمع بأنها ذهبت إلى حفلة متنكرة كبرى ، وهى فى زى دون جوان تتبعها حلقة من ملازميها فى أشكال عفاريت ! . وقد سمع عن ليدى بيرون أنها وضعت

تحت رعايتها حفلة خيرية راقصة... فامتعض وأمضّه الأمر ساعات.. أترؤس مرقصاً، بينا زوجها فى المنفى، مجازفاً بحياته فى سبيل شعب أجنبى؟!..

ولو أتيح له أن يطلع على يوميات آنابلا، التى كانت تكتبها فى تلك الأيام، لقرأ كيف أنها خرجت فى ساعة مبكرة، لترى بيتهما القديم رقم ١٣ بيكادللى تراس.. وكيف نظرت من عرض الطريق إلى الحجرة التى طالما جلست فيها وإياه... وكيف أنها أحست كما لو كانت قد عاشت هناك مرة مع صديق مات عنها من زمن طويل.. وسوف يعترف هو أيضاً بعد ذلك فى أحاديثه مع ليدى بلسنجتون التى دوّنتها ونشرتها: « ما من سعادة حقة فى غير الزواج. فاذا أحب الناس بعضهم بعضاً إلى حد لا يستطيعون معه العيش مشطورين متفرقين.. كان الزواج لهم هو العروة الوحيدة الوثقى التى تكفل الهناء... »

علمه دهره ما لم يكن يعلم، ولقى من الحياة ويلا، فبعد أن كان الزواج عنده « يخرج من الحب فاسداً، كما يخرج الخل من النبيذ » صار الزواج هو النبيذ الحر المعتق، وهو الرحيق المختوم!..

٣٣ ــ بطل وجندى

كان من أولئك الرجال الذين لايعزيهم شىء أبداً عن ضياع أوهام الشباب وأحلامه.. وكان يقول ما أضيق الأمل فى أن تقدّم السن يبرىء مشاعرنا ويشفيها.. إنما نحن نبدل مشاعر بمشاعر، لا أكثر ولا أقل. ونحلّ البخل محل الحب، ونحل الشك محل الثقة: « هذا مايعطينا إياه العمر، وتحمله إلينا التجربة.. لا.. ليتنا لانعيش حتى نكبر ونعجز.. أعطونى شباباً، فالشباب هو حُمّى العقل، وليس الكبر الذى هو الغلل.. إنى أذكر صباى، عند ما كان قلبى يتفجر بالمحبة لكل من يبدى نحوى أى ميل.. والآن، وأنا فى السادسة والثلاثين، وهى ليست بعد سن الشيخوخة، أرانى لا أكاد أستطيع إشعال فتيلة ضئيلة، لأدفىء عليها عواطفى المثلجة... »

ثم اكتشف، مع الأيام، أن التشكك فيما وراء الطبيعة لايرتبط حتما

بالتشكك السياسى . . بل على الضد . إذا نحن ، الأناسىّ التعساء ، اندفعنا فى مغامرة فظيعة ، مجردة عن العقل ، فلنساعد بعضنا بعضاً ، ولنحاول ، كما قال شللى بعد ما قال جيته : أن نشيد عالمنا الصغير فى صدر الكون الكبير . .
وهو الآن يريد أن يحارب فى سبيل الحرية ، ويحارب الحرب خاصة . فأرسل بطله دون جوان إلى الحرب الروسية التركية ، ليدلل على رخص الحياة البشرية عند أولئك القواد ، قوادنا ، الذين يقتلون ويقيمون « المجازر بالجملة » . وسخر من المجد الحربى ، ومن أولئك العدّائين فى سبيل الرتب والأوسمة ، الذين يضيعون الحياة من أجل شريط أو نجمة ، أو إشارة إلى أسمائهم فى برقية . وقال : « إن الرجل الذى يكفكف دمعة واحدة ، يستحق من المجد الشريف ، أكثر من ذلك الذى يريق من الدماء بحاراً . . »
ماذا تراه يريد أن يكون ؟ هملت أم دون كيشوت ؟ الرجل الهائم بالعدل ، الذى يجرؤ ، ويخفق ، ولا يأسف على إخفاقه . . أم الهائم النائم ، الذى أضاع الفكر عليه الفعلَ ؟ أيعرف هو نفسه مايريد وما لايريد ؟ إنه كان متقلباً . إنه ما زال يمزج أوهام الطفولة بحكمة الشيخوخة ! . . أحياناً يتمنى لو رسم كوناً جديداً ، وأحياناً يتأمل ، باستسلام ، حركة الكون الأبدية . .
لعل أعظم الحوادث التى تمر بنا فى حياتنا تكون قد أعدتها لنا وقائع وأمور من الضآلة بحيث قلما تلفت نظرنا . . فنرى أعمالنا وأقوالنا تلقى علينا شباكاً تزداد عيونها كل يوم ضيقاً ، حتى لايبقى إلا طريق واحد مفتوح أمامنا ، فنلجه ولو كان فيه حتفنا . .

ظل بيرون ، عامين ، وهو يتبع ، باهتمام وأسى ، نهضة اليونان من مرقدها ، فى سبيل استقلالها . وكان يقول ، ويكرر ، لأصدقائه جميعاً : « أريد أن أعود إلى اليونان . ومن المحتمل أن أموت فيها » . . ولم تكن رغبته هذه راجعة إلى أنه يحمل للأتراك أى ضغن أو حقد . بل ، على العكس ، من ذلك ، كان يحمل أعز التذكارات للباشوات ذوى اللحى البيضاء ، الذين استقبلوه فى ١٨١٠ ،

وأكرموا وفادته . إنما هو قد رثى لحال اليونان المستعبدة . وارتاح إذ عرف أنها هبت تنفض عنها غبار الذل . ولم يكن الأتراك قد جعلوا فيها إدارة منظمة ، وإنما اتخذوا منها « معسكراً مؤقتاً فى أوربا » ، والمعسكر يمكن نقله وفضّه على الدوام . وليست الثورات فى سبيل الحريات مجرد أقوال . إن من يثور يجب أن يؤمن بالثورة . وما كان الفضل إلا للثورة الفرنسية ، التى علمت اليونانيين ، وعلمت الإيطاليين ، وعلمت البولونيين : معنى كلمة « الحرية » حق الشعوب جميعاً . وترجم لهم المارسييز . . . وجاء بيرون فى « شايلد هارولد » فبعث اهتمام أوربا بمصيرهم . فكفّوا عن اعتبار عبوديتهم سنّة طبيعية . فكفّوا عن أن يكونوا عبيداً .

كانت الدول الكبرى : تكاد تكون مجتمعة على التخلى عن اليونان ، حتى لاتشتبك فى مشاكل ، ولا تضحى بمصالح . ولم يكن لليونانيين إلا الاعتماد على أنفسهم . وكانت الحكومة البريطانية معادية لأى تغيير يمس الدولة العثمانية . ولكن حدث فى يناير ١٨٢٣ أن جاء النائب اليونانى لوريوتيس لينافح عن قضية بلاده . فانتصر له فريق من النواب المستنيرين ، وتألفت لجنة لهذا الغرض ، قررت أن تبعث إلى اليونان « إدوارد بلاكير » ، وهو مؤلف كتب عديدة عن البحر الأبيض المتوسط ، وكان « تريلاونى » ، صديق شللى وبيرون يعرفه ، فكتب إليه فى فبراير بأن بيرون يتحدث دائماً عن سفره إلى اليونان . فابتسم هوبهاوس وكينارد حين اطلعا على هذا الخطاب ، لأن « الولد العزيز » لم يكن قط قائد جيش ! . . ومع ذلك فإن اسمه قد ينفع . فكتب بلاكير إلى بيرون ، يعلنه بأنه ، فى طريقه إلى اليونان ، سيتوقف بمدينة جنوة لمقابلته . وعلى ذلك وجد بيرون نفسه مندمجاً فى صميم العمل الجدى والنضال الفعلى من حيث لا يقدّر !..

ولقد لقى فى مدى حياته الكثير من العقبات التى تقف فى سبيل العمل ، بحيث لايسعه إلا الإشفاق مما سينهض منها أيضا فى وجهه . كانت هناك تريزا ،

وهو يعرف عناد « هذا الجنس الملعون من النساء » ، ويعرف ضعفه هو أمام هذا الجنس : [فهى تعارض طبعاً فى تركى إياها ، ولو لبضعة أشهر ، وقد فازت فى الحيلولة دون عودتى إلى انجلترا فى ١٨١٩ . . فنى وسعها أن تبعدنى عن اليونان فى ١٨٢٣] . . ثم كان هناك رأى انجلترا نفسها . أتريد معاونته فعلا فى تحرير اليونان؟ فجاء الرد من هوبهاوس بتعيينه عضواً فى اللجنة . . فوضع تقريراً عما يحتاج إليه الموقف ، من أسلحة وذخائر ، مما هو جدير بأركان حرب ممتاز ! . .

لقد كان يؤمل أن يكون مدافعاً عن حرية الشعوب ، وفى الوقت نفسه سيداً داعراً ! . . . أن يكون زوجاً ، ودون جوانه . . أن يكون ڤولتيراً ملحداً ، و« حنبلياً » متعصباً !.. لقد حارب المجتمع الإنجليزى ، وهو يرغب الحظوة عنده !

بيد أن هذه المغامرة اليونانية تؤدى كل ما يتمنى . فاعتزازه بحسبه ونسبه لا دخل له فى رغبة تحرير شعب أجنبى . بل إنه إذا لعب هذا الدور فى أرض الحكمة والفنون هذه ، فسيؤيده الرأى البريطانى العام ، ويمجده . وعلى ذلك صفا منه الذهن ، واطمأن القلب . . ليكون ذلك الزعيم المنشود . . .

وفى يوم الجمعة ١٣ يوليه ١٨٢٣ كان الجميع على ظهر السفينة *L'Hercule* واعجبا ! . . بيرون ، الشديد التطير ، يرضى بالسفر يوم جمعة ١٣ ! . . فأخذ معه صاحبه تريلاونى ، وبرونو الطبيب (تحت التمرين) ، وبيترو جامبا (أخا تريزا) ، وثمانية خدم ، منهم فلتشر وصيفه ، وتيتا ملاح الجندول ! . . كما أخذ خمسة خيول ، وأسلحة ، وذخيرة ، ومدفعين صغيرين ، وخمسين ألف دولار أسبانى . وكانت الشمس محرقة ، والهواء ساكناً ، حتى تعذر الإبحار . فنزل بيرون مساء إلى البر ، وتعشى تحت شجرة جبناً وفاكهة . وأخيراً هبت الرياح فى نحو منتصف الليل ، فاضطربت السفينة العتيقة ، وهاجت الخيول . فاضطروا ، مرة أخرى ، إلى العودة إلى الشاطىء . وظل بيرون يفكر . وكاد يهم بالعدول ، لولا أنه ذكر : « إن هوبهاوس والآخرين سيسخرون منى » . . وذهب لزيارة البيت

الذى شهد فيه عيشاً لم يكن مع ذلك سعيداً . . وبقى وحده ، بضع ساعات يتأمل فى الغرف الخالية . ولما عاد ، قال لبيترو جامبا : « أين ترانا نكون بعد عام ؟ »

وماذا ترى الحياة تكون إذا وفق فى اليونان ؟.. أيكفّر النصر عن الماضى ، ويحظى بغفران آنابلا ؟ ولكن أين تذهب نبوءة المنجمة ، التى تنبأت بموته فى السابعة والثلاثين ؟ .. إنه يعتقد أنه ذاهب حتماً إلى الموت . وكان القبطان سكوت رجلا مجرباً ، لكنه سكير . جلس مرة يعاقر الخمر مع فلتشر ، وقد توثقت مودتهما . وسمع بيرون حديثهما : فالكابتن سكوت يتساءل : « لماذا يذهب سيدك إلى هذه البلاد المتوحشة ؟ إنها كلها صخور ولصوص ، يعيشون فى الجحور ، ويخرجون منها كالثعالب . وعندهم بنادق طويلة ، وغدارات ، وخناجر » . وكان فلتشر ناقماً على اليونان واليونانيين ، ومتعصباً للأتراك ، فقال : « إن الترك هم وحدهم المحترمون فى هذه البلاد ، فاذا خرجوا منها أصبحت اليونان مستشفى للمجاذيب مطلق السراح . . . هذه بلاد براغيث وذباب ولصوص . . فلماذا يذهب إليها مولاى ؟ . . الله وحده يدرى ، ولست أدرى ! . . » . . ولما فطن فلتشر إلى أن سيده يصغى قال : « مولاى لا يمكن أن ينكر ما أقول » . . فقال بيرون : « لا .. إنه كذلك عند من ينظرون إلى الأشياء بعيون الخنازير ، ولا يستطيعون أن يروا إلا ما رأوا » . .

لقد استسلم للذهاب إلى اليونان ، برغم فوضى أحزابها ، المتعارضة المتضاربة أبداً ، لا يستقر بينها وئام . . وتمنى لو تلقى من بلاكيير ممثل اللجنة تعليمات توجهه . فإذا به يخيب أمله . . فقد سافر بلاكيير قبل ذلك بخمسة عشر يوما ، دون أن يترك خبراً . . الحق أن أعضاء هذه اللجنة الإنجليزية كانوا مهملين إهمالا لا يحتمل . فقد جعلوه يهجر بيته ، وعمله ، وخليلته ، ويركب البحر . . وقد تركوه الآن فى جزيرة مجهولة ، دون توجيه ، ولا تعليم ، ولا هدف ! . .

وظهر من كرم بيرون فى حملته ما لا حد له . كانت ضيعة روشديل قد بيعت فى يونيه ١٨٢٣ بمبلغ ٣٤,٠٠٠ جنيه . وكان قد قرر أن ينفق هذه الثروة الطائلة فى سبيل القضية اليونانية إذا دعت الحال . وكان صاحبه تريلاونى يستحثه على مغادرة جزر بحر إيجه ، ليقتحم اليونان نفسها ، فأجابه بيرون : « . . . ولكن أية

يونان ؟ أنلحق بكولوكترونس فى الموره ؟ أم بالسوليين فى ميسولونغى ؟ أم بقاطع الطريق أوديسوس فى أثينا ؟ » . . إن أحداً لم يكن يعرف ! . . . لقد كان كل زعيم يستطيع أن يجمع حوله عشرين رجلا ، يبعث رسولا إلى بيرون ! . . وأخيراً جاء خطاب من بلاكيير يشير بالانتظار . وكان من رأى الكولونل نابير : « من الصعب دخول اليونان ، ولكن أصعب من ذلك الخروج منها ! » . وكان من رأيه أيضاً : « لا يجوز لأحد أن يتدخل فى الشؤون اليونانية ، من دون فرقتين أوربيتين ، ومشنقة متنقلة ! » . . . هذا فضلا عن أن أسطول الترك القوى يسد منافذ الشواطىء ويحاصرها . وأبى الكابتن سكوت أن يجازف بسفينته فى بحر يسيطر عليه الأسطول التركى . . فلم يبق أمام بيرون إلا البقاء حيث هو ، واستأجر ڤيلا مؤقتاً فى جزيرة ماتكساتا . وهناك عاش حياة هنيئة ببساطتها كحياة الجندى . وكان رفيقاه الوحيدان هما جامبا والدكتور برونو . . .

الهناء ؟ . . نعم ، الهناء . ما من ثائرة فى مشاعره تزعج سلام روحه . ما من نظرة ناقدة جارحة تتربص به وتتندّر .

وكانت أخبار اليونان تجىء مطمئنة ومخيبة للأمل فى وقت واحد . فقد كسب اليونانيون انتصارات على الترك ، ولكنهم لم يستطيعوا التفاهم فيما بينهم . وأعلنت لجنة لندن إرسال باخرة محملة بالمدفعية الحديثة . . ووصل عن اللجنة أيضاً الكولونل ستانهوب ، وهو رجل لم يعجب بيرون ، لأنه أقرب إلى السياسى منه إلى الجندى . وساعد نابير على الأقل بيرون فى الاختيار بين الأحزاب . وكان نصيراً للبرنس ماڤرو كورداتو ، صديق بيرون ، والزعيم الوحيد من زعماء الثورة الذى كان رجلا جاداً شريفاً . فاتصل البرنس ببيرون ، وأنبأه باستعداده لإخراج الأسطول اليونانى ، واقتحام الحصار ، والوصول إلى ميسولونغى لتولى العمليات الحربية ، إذا استطاع بيرون ، فى انتظار القرض الذى يفاوَض فى عقده بلندن ، تقدمة أربعة آلاف جنيه إنجليزى ،

لدفع تكاليف الحملة . وهو مبلغ باهظ . فدفعه بيرون . وجد مسرة فى أن يتعهد ، هو المدنى البسيط ، أسطولا وجيشاً ! . . وقارن ، متسليا ، راضياً ، بين ما دفعه هو لليونان ، وما بدأ به بونابرت حملته الإيطالية فكان ما بذله هو أكثر سخاء . وسأله السوليون أو (السوليوت *Souliotes*) ، أهل ميسولونغى ، أن يأخذهم تحت قيادته ، ويكون لهم زعيما . فأغراه ذلك . . أى شىء أبدع وأروع من أن يأخذ هؤلاء المحاربين المتوحشين ، رجال هذه القبيلة الباسلة تحت إمرته ! ؟ . . من يدرى ! . لعل اليونان ستحرر على يديه ! . .

وفى أواخر السنة ، وبفضل عون بيرون المالى ، تجهز الأسطول اليونانى ، وخرج به البرنس ماڤروكورداتو ، ثم خرج ستانهوب ، إلى ميسولونغى . وهناك التمسوا من بيرون اللحاق بهم : « فان أوامره ستكون منزلة ، والشعب يملأ الطرقات ، سائلا عن لورد بيرون . . . »

٣٤ — الشاعر يُعتَق

وصل بيرون إلى ميسولونغى ، بعد رحلة خطرة ، كاد فيها أسطول الترك يظفر به وبثروته . فاستقبل بطلقات المدافع والبنادق وعزف الطبول البربرية . . وهتاف الجنود والأهلين . وكان كل ما حوله فى ميسولونغى يفوح بالملح والسمك والحمأ المسنون . . . والمدينة غاصة بجنود السوليوت الجائعين ، المأجورين من اليونان بثمن بخس ، فكانوا خطراً مباشراً ، أشد من خطر الترك . وليست تهمهم حرب الاستقلال إلا قليلا . كانوا على الدوام مأجورين . وكان البرنس ماڤروكورداتو يخشاهم ، ويتوسل إلى بيرون أن يأخذهم على حسابه ! . .

والجميع دائماً فى انتظار الباخرة الموعودة من لندن بمدافعها وذخائرها . واكترى بيرون فيمن اكترى للتدريب على المدافع بعض الألمان والسويديين . وكان كل يوم يكشف عن فضائل جندية كانت فيه خفية : « لست كبير الأمل فى النجاح ، ولكن لابد من عمل شىء ، ولو باستخدام الجنود للحيلولة بينهم وبين الفوضى ، والعيث فى البلد فساداً » . . .

الجو مدلهم . والريح هوجاء . والسحاب مكفهر ، يركب بعضه بعضاً . . والمطر يهطل مدراراً بلا انقطاع . . واستحال ركوب الخيل . واشتد الخلاف بين بيرون والكولونل ستانهوب . قال بيرون : « من الغريب أن الجندى ستانهوب يرى محاربة الترك بسنان القلم ، وأنا ، الكاتب ، بحد السيف ! . . . » . . وثبت لكل من عاشر بيرون فى تلك الأيام العصيبة ، ورأى مصابرته وصبره وتضحيته وجلده وبسالته ، أنه من نسيج عظيم . ولكى يضرب المثل فرض على نفسه شظف العيش ، كالجندى اليونانى . وأصبح ، بكرمه وسخائه ، كما كان فى رافنا ، محبوباً من الفلاحين ، يقتحمون بيته فى أى وقت من نهار أو ليل ، ويبسطون حكايات شجارهم وعراكهم ، ويطلبون الحكم بينهم ، أو يلحون فى إخلاء سراح أسير منهم . . وكان فى هذا كله معرضاً لخطر الموت فى كل لحظة . وأحب خشونة العيش . وزاد احتقاره لملذات الطبقات التى تصف نفسها بالراقية ، ومسراتها السخيفة ، تلك التى تقتل القلب ، وتجرد المرء من الشعور . . . وكان على هذا محوطاً بقوم يكره بعضهم بعضاً ، ويتنازعون على ماله . ولم يكن يستطيع أن يعتمد على أحد غير جامبا وخدمه . زد على هذه الفوضى والخلافات المستعرة : الإشاعات الحمقاء بأن البرنس مافروكورداتو سيبيع البلاد للإنجليز ، ولورد بيرون ليس إنجليزياً ، وإنما هو تركى ، متنكر باسم زائف ! . .

وحدّث ، ولا حرج ، عن المنافسة على القيادة بين القبائل ، وعلى الزعامة بين الأحزاب ! . . وبعد يوم عبوس ، فى هذه الإحن الممضة المثيرة ، التى توترت فيها أعصاب هذا الشاعر الرقيق ، شعر بالظمأ ، فجاءوه بنبيذ التفاح « السدر » ، فشربه ، وقام ، ثم ترنح ، وسقط فى ذراعى صاحبه . واكفهر وجهه ، والتوى فمه ، وتخضخض جسمه بهزات عنيفة . وبعد دقيقتين ثاب إلى رشده ، وكان أول ما نطق به : « أليس اليوم يوم الأحد ؟ » . . فقيل له أن نعم . فقال : « آه ! . . كان غير ذلك يدهشنى ! » . . فقد كان يوم الأحد عنده من الأيام

المنحوسة . وأراد الدكتور برونو أن يفصده . لكن فكرة إهراق دمه كانت تسبب له الرعب ، كما لو كان شخصاً بدائياً . فعصر برونو يديه مذعوراً ، ثم وضع له العَلَق على صدغيه ، وعجز بعد ذلك عن وقف النزيف . فهرع تيتا وفلتشر إلى المستوصف فى طلب الدكتور ملنجن . وهو طبيب ألمانى فى خدمة الحكومة اليونانية . فتمكن هذا ، بعد جهد ، من إقفال العرق بحجر كاوٍ . . وكان من حوله جامبا وفلتشر وتيتا وبرونو . وقد ضاع صوابهم . ورأى الطبيبان فى هذا مبادىء الصرع . واشتد القلق مساء ، لأن بيرون لم يكد يثوب إلى نفسه ، حتى علم بأن السوليوت قد تمردوا ، وقتلوا الليوتنانت ساس ، وهو ضابط سويدى . ولم يكن مصرعه إلا بسبب سوء تفاهم بين رجلين لا يتكلمان لغة واحدة . ولكن دمه المسفوك خضّب برج بابل هذا . . ولم يكن المهندسون الإنجليز فى غبطة لما حولهم من وحل وبؤس ، وما أصاب البلدة من هزة أرضية خفيفة ، ومن عسكرية همجية . . وحاول بيرون أن يطمئنهم ، وما زال طريح فراشه ، لكن الكولونل ستانهوب صرّح بأن حياتهم ليست فى أمان . فاحتج بيرون : « وأين هى الحياة التى فى أمان ؟ . . سواء هنا أو فى أى مكان ؟ »

وأعقب النوبة التى أصابت بيرون أسبوع كئيب . فهو لم يكد يطرق سمعه كلمة « صرع » ، حتى خشى على عقله . قال للدكتور ملنجن : « أتظننى حريصاً على الحياة ؟ . . لقد ضقت ذرعاً بها ، وإنى لأرحب بساعة الرحيل منها . . فلماذا آسف عليها ؟ . . أيمكن أن تؤدى أية مسرة ؟ . . قلّ من الناس من عاش أسرع منى . فاذا شئت قلت إننى شاب عجوز . وما كدت أبلغ الشباب حتى بلغت ذروة الشهرة . وقد عرفت كل لون من ألوان المسرات ، التى يمكن (أو لا يمكن ! . .) أن تتاح للبشر . وقد سافرت ، وأشبعت تطلعى . وأضعت أوهامى وأحلامى جميعاً . ولكن ما يشغلنى الآن ويقلقنى شيئان : أتصور نفسى أفنى فناء بطيئاً على فراش العذاب ، أو أنهى حياتى مخبولا معتوها ! . . . »

وسره خطاب من ليدى بيرون ، عن طريق أوجستا ، تتحدث فيه عن صغيرته آدا : [. . . إنها بصحة جيدة ، وهى تفضل النثر على الشعر ، وتميل إلى الميكانيكيات ، وهوايتها صنع الزوارق الصغيرة . .] . أتراه سيعود فيرى أولاء النسوة الثلاث ؟ إن

الأفق أمامه يزداد كل يوم إظلاماً . . كيف يتهيأ له أن يعمل عملا نافعاً ، فى هذه الفتنة المحيطة به ، بين قوم يكره بعضهم بعضاً ، وينقم كل منهم على الآخر ؟

وفى ٩ أبريل تلقى رسائل من انجلترا ، تحمل أخباراً عن قرض اليونان . فلا يلبث أن يجد فرقة مدفعية ، وجيشاً صغيراً منظما . فأنعشته البشرى . فنهض ليركب جواده ، مع جامبا ، فى ذلك اليوم ، رغم أن الجو كان منذراً بالسوء .

وعلى ثلاثة أميال من البلد فجأهما المطر ، كأنه من أفواه القرب . فاضطرا إلى ترك الجوادين ، والعودة إلى ميسولونغى فى مركب ، وثيابهما مبللة . . وبعد ساعتين من وصوله ، أحس برعشة ، وشكا من الحمىّ وآلام فى المفاصل . ودخل عليه جامبا مساء ، فوجده ممدداً . قال له : « إننى أتألم ، وسيان لدى الحياة والموت ، ولكننى لاأستطيع احتمال الآلام » . وفى المساء ، تحدث ببشر إلى الدكتور ملنجن .. ثم قال لهم : « الحق أنه تعز فى هذه الدنيا معرفة ما يصدق وما لا يصدق » .. وفى الليل استدعى برونو ، وشكا له الرعشة . ثم جاء ملنجن . واقترحا أن يفصداه . فرفض ، قائلا : « أو ليس لديكما دواء آخر ، غير الفصد ؟ إن الرجال الذين يموتون من طرف المبضع ، أكثر من الذين يموتون بأسنة الحراب ! » . . فلفته ملنجن إلى أن الفصد إنما يكون خطراً على الأمراض العصبية . . قال بيرون : « ومن العصبى إن لم يكن أنا ؟ . . إن أخذكم الدم من مريض عصبى ، بمثابة إرخاء أوتار آلة موسيقية ، خطأ ، لأن تلك الأوتار ليست مشدودة بما فيه الكفاية . . وأنتم تعلمون كم كنت ضعيفاً قبل مرضى . فبفصدكم إياى زدتم هذا الضعف ضعفاً ، وأنتم تقتلوننى قتلا لا مفر منه . . .

وفى ١٥ أبريل ، تحدث طويلا إلى خاصته : [أحس بأن رأسى أحسن حالا ، وأظننى . . لولا ذلك التيار من الكآبة ، الذى يسرى فى . .] . . ثم : « إننى مقتنع بهناء الحياة البيتية ، وليس على ظهر الأرض رجل يحترم المرأة العفيفة أكثر منى ، ورجائى الاعتكاف فى انجلترا ، مع زوجتى وآدا ، يمنحنى من الهناء فكرة لا عهد لى بها من قبل . إن الاعتكاف سيكون خيراً عظيما لى ، أنا الذى كنت كالموج ، فى العواصف الهوج » . . ثم تحدث معجباً بتيتا ،

الجندولى ، الذى لم يغادر غرفته منذ بضعة أيام ، وعن برونو الذى يحبه . ثم عن الدين أيضاً : [ليست لديكم أية فكرة عن خواطرى الخارقة للعادة ، التى تعرض لذهنى ، عندما تشتد بى الحمى . أرانى يهودياً ، ثم محدياً ، ثم مسيحياً .. إن الأبدية أو اللانهائية مفتوحة أمامى . وإنى ، لهذا ، والحمد لله ، مطمئن سعيد . .]

وفى الليل ، اشتدت به الحمى وصار يهذى . . فهدده ملنجن وبرونو بأنه سيصاب باحتقان فى المخ ، إذا لم يدعهما يفصدانه . فرضخ . وألقى واحدة من نظراته الملغمة ، تلك التى كانت أيام « شايلد هارولد » ، يرتجف منها النساء فى صالونات لندن . . وقال ، ماداً ذراعه : « هيا .. أرى أنكم عصبة جزارين .. خذوا من دمى ماشئتم . . ولننته »

وفى ١٧ أبريل ، فصدوه مرتين ، فتوسل إليهم ألا يعذبوه بطلب المزيد من دمائه . . وجزع تيتا من هذيان سيده ، فرفع الغدارة والخناجر ، التى كانت دائماً بجانب سريره . وارتاع جامبا إذ وجد بيرون قد تغير كثيراً فى يوم واحد . وانهار من عينيه فيض من الدمع ، بحيث اضطر إلى الخروج .

وكان بيرون يشرب كميات كبيرة من عصير الليمون ، وينهض ، من وقت لآخر ، بمعونة فلتشر وتيتا . والأرق يرهقه . . قال لفلتشر : « أعرف أن الانسان بلا نوم ، إما أن يموت أو يجن . . وأوثر مئة مرة أن أموت . . فلست أخاف الموت » .

وفى ١٨ أبريل ، اجتمع للاستشارة أربعة أطباء : ملنجن ، ومساعده تريبر ، وبرونو ، ولوشا ڤايا طبيب البرنس ماڤروكورداتو . فانقسموا فى الرأى : اقترح برونو ولوشا ڤايا علاج التيفوئيد ، وأراد ملنجن وتريبر الاستمرار فى وضع العلق واللبخ . وعارضوا فى فصد بيرون ، كما كان يريد برونو . فقال بيرون لملنجن : « إن جهودكم لانقاذ حياتى ضائعة ، فانى سأموت ، وأحس بذلك . ولست آسيا على الحياة ولا آسفا ، لأننى جئت اليونان لأنهى وجوداً أليما . وقد أعطيتها مالى وأيامى ، والآن أعطيها حياتى »

وبعد ظهر ذلك اليوم ، أدرك جميع من حوله أن النهاية تقترب . فخرج فلتشر وجامبا ينتحبان . وبقى تيتا ، لأن بيرون أمسك بيده ، ولكنه أشاح

بوجهه ، ليخفى دموعه عن سيده . . فحدّق فيه بيرون ، وقال بظل ابتسامة ، بالإيطالية : « يا له من مشهد جميل ! » . وغاب فى الحال فى بحران . وبدأ يصيح ، كما لو كان يقود حملة ، تارة بالإنجليزية ، وتارة بالإيطالية : « إلى الأمام !.. تشجعوا !.. اتبعونى !.. ولا تخافوا ولا تجزعوا !.. »

وفى لحظات صفائه يدرك أنه مائت . فيقول لفلتشر : « الآن ، وقد كاد الأمر ينقضى ، لا بد لى من أن أحدثك ، ولا أضيع لحظة » .. « — أأذهب يا مولاى لأحضر قلماً وورقاً ؟ » . . « — يا لله !.. أنت تضيع الوقت ، وليس عندى منه الكثير . . فانتبه .. إن مستقبلك مكفول ... » . . فقال فلتشر : « — أتوسل إليك يا مولاى أن تهتم بما هو أعظم » . فقال بيرون : « — طفلتى العزيزة . . حبيبتى آدا . . رباه ! . . لو استطعت فقط أن أراها ، وأن أباركها ! .. وأختى العزيزة أوجستا وأولادها ! .. اذهب لترى ليدى بيرون ، وقل لها كل شىء .. فأنت وهى متفاهمان » .

ثم تحشرج الصوت فى حلقه ، بحيث عزّ على فلتشر أن يتبعه . وظل يتمتم ، فى جد واهتمام ، أشياء غير مفهومة . . ثم رفع من صوته : « — فلتشر ! إذا أنت لم تنفذ كل أوامرى ، التى أعطيتك ، فسأعود لأعذبك ، إذا وجدت سبيلا ! » .. وكان هذا التهديد آخر لمحة من مزاحه وبشره . . فاضطرب فلتشر ، وتوسل إلى مولاه أن يعيد ما قال . . : « — سبحان الله !.. إذن فقد ضاع كل شىء ، وفات الآن الأوان . . أو لم تفهم ما قلت ؟ . . انتهى كل شىء . . والأمر لله » . . وحاول مرة أخرى أن يكرر ما قال ، فلم يستطع إلا : « — زوجتى ! .. بنيتى !.. أختى !.. أنت تعرف كل شىء .. فقل كل شىء !.. أنت تعرف رغباتى »

ثم تعذر بعد ذلك فهم ألفاظه . نطق بأسماء وأرقام . وتكلم تارة بالإنجليزية ، وتارة بالإيطالية ، وأحياناً : « مسكينة اليونان . . مساكين يا أتباعى ! » .. ثم : « لِمَ لم أعرف ذلك من قبل ؟ » . . و : « اقتربت ساعتى !.. لست أخاف الموت . . ولكن لماذا لم أذهب إلى بلدى ، قبل مجيئى هنا ؟ » . . ثم بعد ذلك ، بالإيطالية : « إنى أترك للدنيا شيئاً عزيزاً ... » . . وفى نحو العاشرة مساء : « الآن ، أريد أن أنام » .. واستدار ،

وراح فى نوم لم يستيقظ منه .. وتصاعدت حشرجة من حلقه . وسال الدم على طول وجهه . وظل هكذا أربعاً وعشرين ساعة .

وفى مساء ١٩ أبريل ١٨٢٤ ، عند الشفق ، وكان فلتشر ساهراً إلى جانب سيده ، رآه يفتح عينيه ثم يغمضهما .. فصاح : « يا ربى !.. أخشى أن يكون مولاى قد ذهب .. » .. فجس الأطباء نبضه ، وقالوا : « أجل لقد ذهب ... » .

وكان إعصار هائل قد هب على ميسولونغى من لحظات . . وجنّ الليل . وزمجر الرعد ، وتوالى البرق يشق أكباد الظلمات .. وكانت أضواء البرق الخلب القصيرة ، المتتابعة ، ترسم من بعيد ، على شاطىء البحر ، ظل الجُزُر القاتم ، فى خط أسود . . والمطر يدفعه الريح ، فيضرب زجاج النوافذ كالسياط .. وما زال الجنود والرعاة ، الذين يحتمون من غضب السماء ، يجهلون النبأ الحزين . . وإن كانوا يعتقدون ، كأسلافهم ، أن موت بطل من الأبطال تنذر به الطبيعة .

وإذ كانوا يصغون إلى هزيم هذا الرعد المسعور ، تهامسوا :

— مات بيرون !..

* * *

لانبالغ إذا قلنا إنه لولا معونة بيرون لقضية اليونان ، باسمه ، ثم بموته ، لما تحرك الرأى العام البريطانى ، وحمل حكومته على تأييدها . . واليوم صارت ميسولونغى بلدة صغيرة مزدهرة ، أقام فيها اليونانيون « فردوس الابطال » . . وحفروا اسم بيرون على نصب فيه . . ومازال الصيادون ، سكان هذه المملكة الغريبة ، مملكة الماء والملح والحمأ المسنون ، يعرفون اسم بيرون ، وإن لم يعرفوا أنه شاعر . . فإذا ما سئلوا عنه ، أجابوا :

— رجل شجاع ، جاء ليموت فى سبيل بلادنا ، لأنه كان يحب الحرية .

فهرس

الجزء الأول

الجزء الثانى

الجزء الثالث

شركة فن الطباعة
صندوق بوستة ٤ شبرا مصر - تليفون ٥٨١٤٩